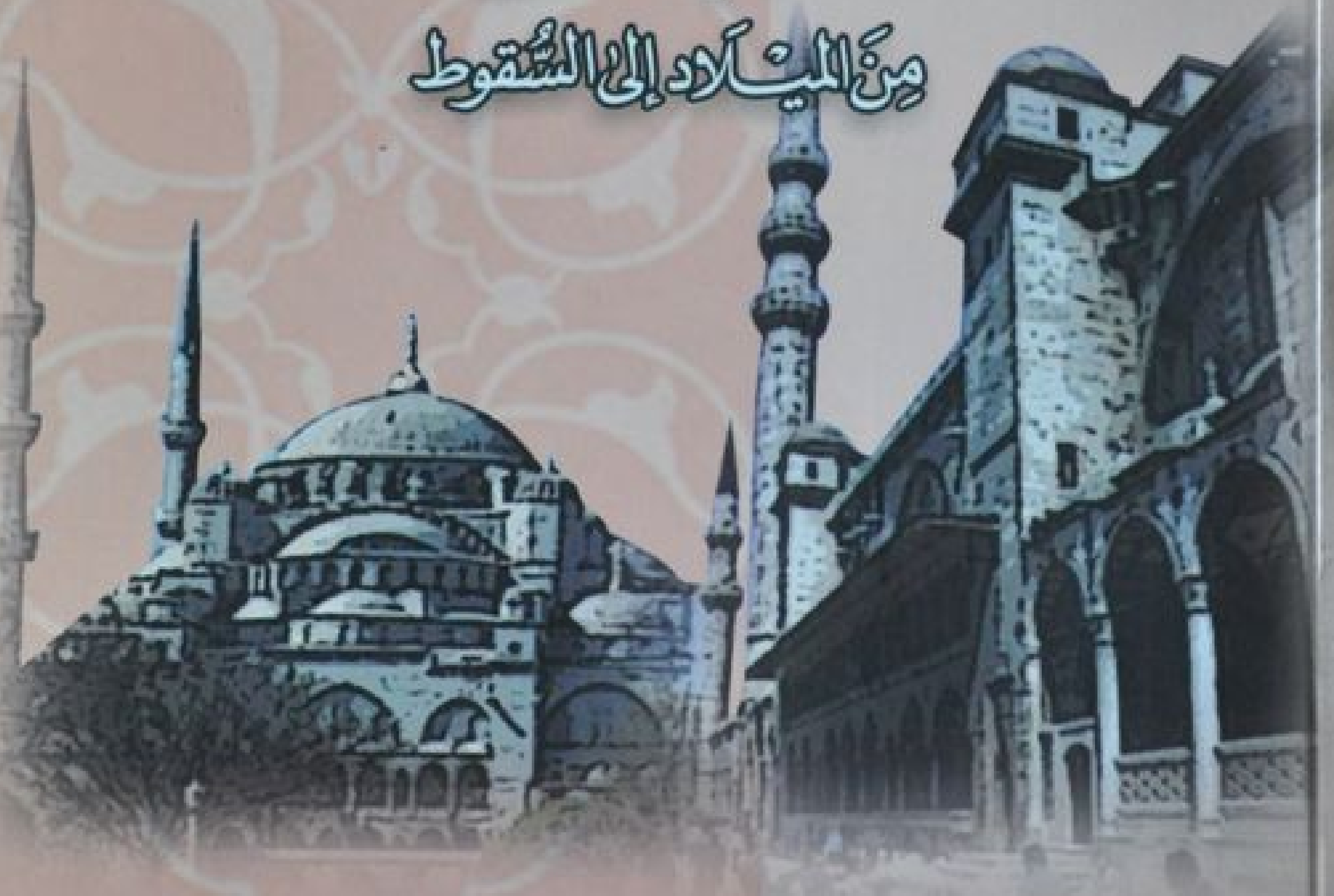
صفحات من التاريخ الإسلامي

تاريخ ورجال

للناشئة

الدولة العثمانية

من الميلاد إلى السقوط



جمع وإعداد

د. عدنان العطار

دار الأصالة

دار وحي القلم

الدولة العثمانية

من الميلاد إلى السقوط

جمع وإعداد

د. عدنان العطار



بسم الله الرحمن الرحيم

دار وحي القلم

❖ تستقبل تآليف الكتاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

❖ دار وحي القلم:

تجمع بين الأصالة والحداثة ، وتستوحي إصداراتها من وحي الواقع ، من وحي التجربة والممارسة ، ومن رصد ما يدبر لهذه الأمة ويراد بها.

❖ دار وحي القلم:

يعنيها جديد الإبداع الذهني الذي يُشِعُّ صورة الإسلام النقية في واقع يغصُّ بالأزمات والنكبات التي تستهدف الأمة في دينها وتراثها وأخلاقها.

❖ دار وحي القلم:

تتقدم - بمعونة الله تعالى - نحو عالم كتابي من نوع آخر. وضمن خطة تعميم القراءة وتدعيم الكتابة والأخذ بيد القراء الأكارم - وقد أخذت الدار على نفسها استقبال الأسماء التي تحمل العناوين المضيئة الموضحة ضمن خطتها.

❖ دار وحي القلم: تدرك - أننا جميعاً في دار الممر لذا عليها أن تنير لنا السبيل إلى دار المقر بأمن وأمان ويسر ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المدير العام لدار وحي القلم .

الكتاب

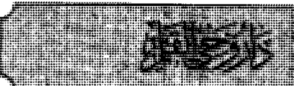
الدولة العثمانية

من الميلاد إلى السقوط

جمع وإعداد

د. عدنان العطار

الطبعة الأولى	1427 هـ/2006م
عدد الصفحات: 208	القياس 17 × 24



دمشق سورية ص.ب 30297
فاكس: 2455738(0096311)
هاتف: 396818(0096393)
E-mail: info@alkalam-sy.com - Site: www.alkalam-sy.com
بيروت - لبنان - هاتف: 653666 (009661)
فاكس: 653655 (009661) - ص.ب: 113/6501



المقدمة

ظلَّت الدولة العثمانية، منذ نشأتها، تشكّل هاجساً كبيراً بالنسبة للأوروبيين، لقد وقفت في بادئ الأمر ضد الخطر الصليبي الذي أخذ يتجدد على الأمة الإسلامية. ومَثلتْ أقوى وأنجح مقاومة ضد الأوروبين الذين أخذوا بالتوسع باتجاه الشرق خلال القرنين الخامس عشر، والسادس عشر، ثم ما لبثت أن اعترضت المشروع الاستعماري الأوروبي ورديفه الصهيوني في العالم العربي والإسلامي.

لقد ظلت الدولة العثمانية العدو الأكبر والأول للمسيحية الأوروبية التي راحت تنفث سموم حقدها للقضاء عليها بوسائل وطرق متعددة، أهمها الغزو الفكري الذي ظلَّل عدداً من مؤرخي أمتنا، الذين استندوا في تفسير الأحداث وتحليلها على أسس بعيدة عن الموضوعية التي يتبجح بها هؤلاء في دراساتهم وأبحاثهم حول تاريخ الأمة وميراثها الثقافي والحضاري.

لقد تعرضت الدولة العثمانية إلى حملات عنيفة ظاهرها محاربة الظلم والفساد، وباطنها التشهير بها والنيل منها وصولاً إلى تفتيتها، والقضاء على جسدها كأمة واحدة بعد سلخ الأمم والشعوب التي جسّدت وحدة هذه الدولة.

وانطلق الغرب الاستعماري، والصهيونية العالمية في بث هذه السموم فاستخدموا أساليب الطعن والتشويه والتشكيك فيما قام به العثمانيون من خدمة الإسلام وعقيدته. وبدأت معاهد الاستشراق والجامعات الأوروبية بالاهتمام

بالتاريخ العثماني، وظهرت دراسات معادية لهذه الدولة وللإسلام عموماً. خصوصاً بعد أن سقطت عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية)، وحوَّلها العثمانيون دار إسلام وأطلقوا عليها اسم «إسلام بول» أي دار الإسلام. فتأثرت نفوس الأوروبيين بنزعة الحقد والمرارة الموروثة ضد الإسلام، فانعكست تلك الأحقاد في أفعالهم وكتاباتهم.

وكان زعماء الدين المسيحي من قساوسة ورهبان يغذون الشعوب الأوروبية بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام والمسلمين، وعملوا على حشد الأموال والمتطوعين لمهاجمة المسلمين (البرابرة على حد زعمهم)، وكلما انتصر العثمانيون على هذه الحشود ازدادت موجة الكره والحقد على الإسلام وأهله، فاتهم زعماء الدين المسيحي العثمانيين بالقرصنة، والوحشية، والهمجية وعلقت تلك التهم في الذاكرة الأوربية.

لقد أحرزت الدولة العثمانية باسم الإسلام انتصارات باهرة واجتاحت جيوشها أقاليم شاسعة في جنوبي شرقي أوروبا ووسطها، ووصلت في فتوحاتها إلى ڤيينا عاصمة النمسا، وهي أقاليم لم تخضع من قبل لحاكم مسلم. وقامت بدور هام في نشر الإسلام في ربوع هذه الأقاليم.

إن العودة إلى الأصول التاريخية العثمانية التي كتبت قبل القرن العشرين تسمح لنا بالقراءة الدقيقة لتاريخ هذه الدولة العظيمة. التي وحَّدت الشعوب الإسلامية في إطار يعتمد على المساواة بينهم دون تفريق في الجنس واللون، ويعتمد المساواة بينهم وبين أتباع الأديان الأخرى في تطبق الشريعة الإسلامية، فالدولة العثمانية هي التنظيم السياسي الوحيد في العصور الوسطى والحديثة الذي اعترف رسمياً بالأديان السماوية الثلاثة، في إطار واقعيّ من التعايش السلمي المنسجم.

غير أن هذا لا ينفي وقوع هذه الدولة في بعض مراحل تاريخها في زلات ارتكبها بعض السلاطين أو القيمّين على هذه الدولة، ومع هذا تبقى هذه الفترات الزمنية جزءاً من تاريخ هذه الدولة، ومن تاريخ عالمنا الإسلامي، فلا يمكن فصلها عن ذلك المجد الحضاري لهذه الدولة.

في هذا الكتاب الذي أعددناه للناشئة، ملامح، وصور مبسطة لتاريخ هذه الدولة الإسلامية الكبيرة، من لحظة ميلادها إلى لحظة الأفول، حيث فقدت أمتنا بسقوط هذه الدولة، وحدة الأمة تحت راية الخلافة الإسلامية. التي أسقطها وهن الأمة وانتكاستها الحضارية التي أفقدتها لبّها وأوهنت همتها، ثم تكالب الدول الغربية الحاقدة على الإسلام والمسلمين.

والله نسأل أن تكون هذه الصفحات خير دليل لناشئتنا الكريمة، لمعرفة تاريخ أمتنا الزاهر، والفهم الحق لهذا التاريخ في ظل ما يكتب حولها. وهو الموفق لكل خير، وعليه التكلان والاستعانة.

الدكتور عدنان العطار

دمشق

٢٥/ربيع الثاني/١٤٢٦هـ

تمهيد: في أصل الأتراك

يُعتبر الأتراك من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية، فهم معدودون من الشعوب الطورانية، كما أنهم يشبهون في الخلقة الصينيين، والتبت واليابان. ومع اختالطهم بالأمم الأخرى ـ عند استطانهم غربي آسية ـ كالقوقازيين، والمكدونيين والأرناؤوط، والروم، والبلغار، والأكراد، والصرب، تولّدت منهم أمة لا تشبه المغول ولا الصين.

وقد استوطنت عشائر «الغز» التي عرفت بالترك أو الأتراك، منطقة ما وراء النهر والمسماة اليوم (تركستان)، والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، تم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، وذلك بسبب العوامل الاقتصادية، أو لأسباب سياسية حيث تعرضت هذه القبائل لضغط كبير من قبائل أكثر منها عدداً وقوة وهم المغول، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر، بحثاً عن نعمة الاستقرار والأمن.

ونزلت هذه القبائل من شواطئ نهر جيحون، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية التي فتحتها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة (٢١هـ/ ٦٤١م).

وفي عام (٢٢هـ/ ٦٤٢م) تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها وكانت هذه الأراضي يسكنها الأتراك، هناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمٰن بن ربيعة بملك الترك شهربراز، فطلب من عبد الرحمٰن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبد الرحمٰن إلى القائد سراقة بن عمرو، وقد قام شهربراز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب إلى

الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يلعمه بالأمر، فوافق على ما فعل وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الأتراك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها.

. وتقدمت الجيوش الإسلامية لتفح البلدان الواقعة شمال شرق بلاد فارس حتى تنشر دعوة الله سبحانه وتعالى فيها، وبعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام هذه الجيوش الإسلامية، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الإسلامية أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدات والأقاليم ومنهم الأتراك: فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية، ومن ثم اعتنق الأتراك الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين في الجيوش الإسلامية لنشر دعوة الإسلام، ثم تم فتح بلاط طبرستان في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وعبر جيش الإسلام نهر جيحون سنة (٣١هـ)، ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك في الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشاركين في جيوشه التي تواصل نشر دعوة هذا الدين. كما تم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. وتوغلت هذه الجيوش حتى وصلت سمرقند، ومن ثم صارت بلاد ما وراء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الإسلامي. وانخرط الأتراك في الحضارة الإسلامية منذ ذلك التاريخ حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة حملت لواء الإسلام وكانت على صلة قوية بالدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

الإرهاصات الأولى لظهور الدولة:

كانت بلاد الأناضول (آسية الصغرى) في القرن الخامس الهجري، داخلة في ملك القسطنطينية. وكان العالم الإسلامي منقسماً إلى دولتين، الخلافة العباسية في بغداد، والدولة الفاطمية في مصر.

وكانت فارس الغربية تخصُّ بني بويه، الذين استأثروا بالأمر في بغداد وحجروا على الخلفاء العباسيين، وأما في شرقيِّ إيران فكانت الدولة السامانية تارة في بخارى، وتارة في سمرقند. وبقيت مستتبة إلى زمان محمود الغزنوي التركي، الذي

استولى على خراسان، وعلى قسم من بلاد العجم، ولو لم يُشغل بفتوحات الهند، لربما كان تقدّم إلى بغداد، فشلغت الهند الدولة الغزنوية، وبذلك اتسع المجال لدولة أخرى تركية من الغز، يقال لها الدولة السلجوقية.

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السنّي بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للدولة الفاطمية.

وكان طغرل بك أحسن السلاجقة سياسة، وأوفرهم عقلاً، فاتخذ لنفسه خطة معيَّنة، وصار يفتح البلاد بلداً بلداً حتى وصل إلى بغداد.

استطاع عام (٤٤٧هـ) أن يسقط الدولة البويهية في بغداد، وأن يقضي على الفتن وأزال النفوذ البويهي الشيعي الذي كان يسيطر على الخلافة العباسية. ودخل عاصمة الخلافة، وقد استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم ومن جملتها أن لقبَّه بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن يُنقش اسم السلطان طغرل على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومنذ ذلك الحين حلَّ السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد.

كان السلطان طغرل بك يتمتع بشخصية قوية، وشجاعة فائقة كما كان متديناً وعادلاً، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وسعى لتوحيد السلاجقة الأتراك في دولة قوية.

وتوطيداً للروابط بين القائم بأمر الله، وبين طغرل بك، فقد تزوج الخليفة من ابنة جغري بك الأخ الأكبر لطغرل بك، وذلك عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، ثم تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة وذلك في شعبان عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م). غير أن الزعيم السلجوقي لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث أنه توفي ليلة الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م)، وكان عمره إذ ذاك سبعين عاماً.

بعد وفاة السلطان طغرل بك تولَّى زمام السلطة من بعده ابن أخيه ألب أرسلان، الذي حسم الأمر له بعد أن حدثت بعض المنازعات حول تولي السلطة، وكان ألب أرسلان شبيهاً بعمه طغرل بك، حيث كان قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام في البلاد المسيحية المجاورة، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وقد استطاع أن يستولي على أرمينيا وهزم ملوكها. وهكذا انفتحت أمامه مسالك الأناضول، فبث فيها الغارات من كلِّ جانب، ووصل إلى قيصرية.

وقد أغضبت هذه الفتوحات دومانوس ديوجينس إمبراطور الروم، فعزم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن إمبراطوريته. ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة «ملاذكرد»، عام ٤٦٣هـ الموافق أغسطن عام (١٠٧٠م). التي انتصر فيها السلطان ألب على ملك الروم الذي سقط أسيراً، ولما وقف بين يدي السلطان قال له: لو كُنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال: كل قبيح، قال: فما ظنك بي؟ فقال إما أن تقتل وتشهر فيّ في بلادك، وإما أن تعفوا وتأخذ الفداء وتعيدني قال: ما عزمت على غير العفو والفداء. فافتدى منه بألف ألف دينار وخمسمئة ألف دينار. وقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبَّل الأرض بين يديه. وقبَّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له عشرة ألف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله..

لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم، وما أروع نصيحة العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري، في معركة «ملاذكرد» عندما قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

وقتل السلطان ألب أرسلان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام (٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٢م)، في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاه. الذي توسعت الدولة السلجوقية في عهده لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً وبوفاته انتهى دور القوة والمجد (٤٤٧-٤٨٥هـ/ ١٠٥٥-١٠٩٢م) الذي عرفته الدولة السلجوقية في عهد السلاطين الثلاثة. لتبدأ مرحلة الضعف والصراع مع بداية تسلّم نظام الملك زمام السلطة، ثم مرحلة السقوط في عهد غياث الدين أبو شجاع محمد الذي استمر حكمه حتى عام (٥١١هـ/ ١١٢٨م). وكان آخر حكام الدولة السلجوقية.

لحظة ميلاد الدولة العثمانية:

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت في بداية القرن السابع الهجري تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان الأول مؤسس الدولة هاجر في عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط (شرق تركيا الحالية)، ثم بعد وفاته سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مئة أسرة وأكثر من أربعمئة فارس، وحين كان أرطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمئة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية فإذا به يسمع أصواتاً، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين المسلمين والنصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان منه إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك سبباً في تغليب كفة المسلمين على أعدائهم النصارى. وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومن معه، وأقطعهم أرضاً على الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم وحقق بذلك السلاجقة حليفاً قوياً في جهادهم ضد الروم.

وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم، واستمرت طيلة حياة أرطغرل الذي توفي سنة (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)، وحتى تسلّم ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية.

أولاً: الدولة العثمانية
الواقع السياسي وضرورة التوسع

أ ـ الأمراء العثمانيون:

١ ـ عثمان بن أرطغرل (١٢٩٩ ـ ١٣٢٦).

٢ ـ أورخان بن عثمان (١٣٢٦ ـ ١٣٦٠).

٣ ـ مراد الأول بن أورخان (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩).

ب ـ السلاطين العثمانيون:

٤ ـ بايزيد الأول بن مراد (١٣٨٩ ـ ١٤٠٣).

٥ ـ محمد الأول شلبي بن بايزيد (١٤٠٣ ـ ١٤٢١).

٦ ـ مراد الثاني بن محمد (١٤٢١ ـ ١٤٥١).

٧ ـ محمد الثاني (الفاتح) بن مراد (١٤٥١ ـ ١٤٨١).

٨ ـ بايزيد الثاني بن محمد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢).

جـ ـ الخلفاء العثمانيون:

٩ ـ سليم الأول بن بايزيد (١٥١٢ ـ ١٥٢٠).

١٠ ـ سليمان الأول (القانوني) بن سليم الأول (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦).

١١ ـ سليم الثاني بن سليمان (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤).

١٢ ـ مراد الثالث بن سليم الثاني (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥).

١٣ ـ محمد الثالث بن مراد الثالث (١٥٩٥ ـ ١٦٠٣).

١٤ ـ أحمد الأول بن محمد الثالث (١٦٠٣ ـ ١٦١٧).

١٥ ـ مصطفى الأول بن محمد الثالث (المرة الأولى) (١٦١٧ ـ ١٦١٨).

١٦ ـ عثمان الثاني بن أحمد الأول (١٦١٨ ـ ١٦٢٢).

. ـ. مصطفى الأول بن محمد الثالث (المرة الثانية) (١٦٢٢ ـ ١٦٢٣).

١٧ ـ مراد الرابع بن أحمد الأول (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠).

١٨ ـ إبراهيم الأول بن أحمد الأول (١٦٤٠ ـ ١٦٤٨).

١٩ ـ محمد الرابع بن إبراهيم الأول (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧).

٢٠ ـ سليمان الثاني بن إبراهيم الأول (١٦٨٧ ـ ١٦٩١).

٢١ ـ أحمد الثاني بن إبراهيم الأول (١٦٩١ ـ ١٦٩٥).

٢٢ ـ مصطفى الثاني بن محمد الرابع (١٦٩٥ ـ ١٧٠٣).

٢٣ ـ أحمد الثالث بن محمد الرابع (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠).

٢٤ ـ محمود الأول بن مصطفى الثاني (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤).

٢٥ ـ عثمان الثالث (١٧٥٤ ـ ١٧٥٧).

٢٦ ـ مصطفى الثالث بن أحمد الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٧٤).

٢٧ ـ عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث (١٧٧٤ ـ ١٧٨٩).

٢٨ ـ سليم الثالث بن مصطفى الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧).

٢٩ ـ مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول (١٨٠٧ ـ ١٨٠٨).

٣٠ ـ محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩).

٣١ ـ عبد المجيد الأول بن محمود الثاني (١٨٣٩ ـ ١٨٦١).

٣٢ ـ عبد العزيز بن محمود الثاني (١٨٦١ ـ ١٨٧٦).

٣٣ ـ مراد الخامس بن عبد المجيد الأول (١٨٧٦ ـ ١٨٧٦).

٣٤ ـ عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩/ مات ١٩١٧).

٣٥ ـ محمد رشاد الخامس بن عبد المجيد الأول (١٩٠٩ ـ ١٩١٨).

٣٦ ـ محمد وحيد الدين السادس بن مراد الخامس (١٩١٨ ـ ١٩٢٢).

٣٧ ـ عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز (١٩٢٢ ـ ١٩٢٤).

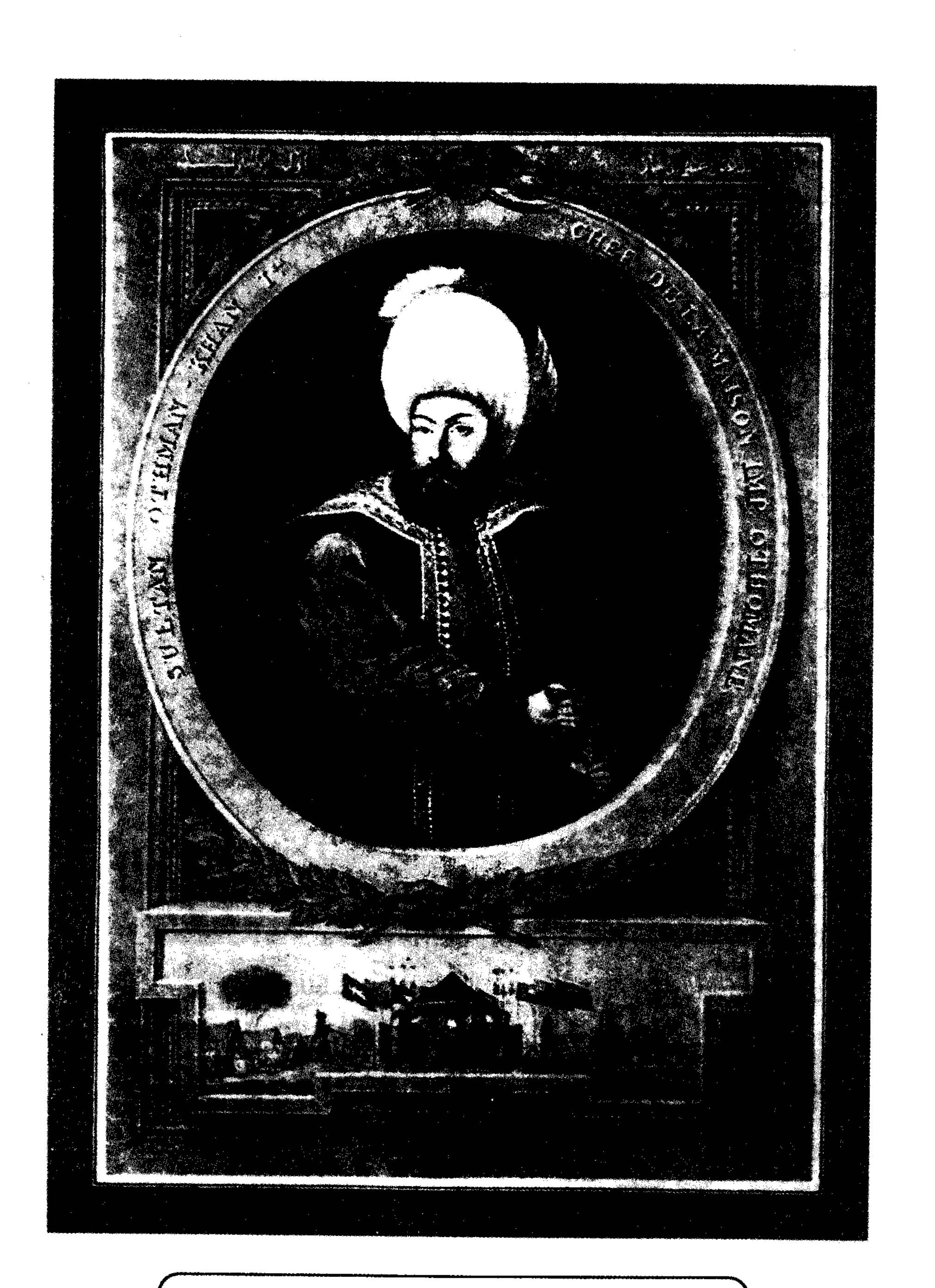
وانتهاء الخلافة الإسلامية.








الأمراء العثمانيون



عثمان الأول مؤسس الدولة

١ ـ عثمان الأول مؤسس الدولة
١٢٩٩ ـ ١٣٢٦م

ولد عثمان بن أرطغول عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، والذي تنسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو عاصمة الخلافة في بغداد. فعثمان الأول يعتبر بحق مؤسس الدولة، وهو من حدد الوضع الديني والعسكري والسياسي للعثمانيين.

فمن الناحية الدينية، فقد اعتنق الدين الإسلامي وتبعه الأتراك وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام.

ومن الناحية العسكرية، فقد أتاحت مجاورتهم لاراضي الدولة البيزنطية، توجيه نشاطهم نحو الحرب والجهاد لاستكمال رسالة الدولة السلجوقية بفتح كافة الأقاليم البيزنطية وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية.

أما من الناحية السياسية فقد انتقل بإمارته من وضع الإمارة الحدودية إلى وضع الدولة بكل مقوماتها.

لقد كان على عثمان أن يكافح على جبهتين، الجبهة البيزنطية، وجبهة الإمارات التركمانية التي أبدت معارضة له، وقد وضع نصب عينيه توسيع رقعة إمارته على حساب البزنطيين متجنباً الاصطدام بالإمارات التركمانية في الأناضول.

ففي عام ١٢٩١م فتح قلعة «قرة جه حصار» الواقعة إلى الجنوب من سكود وجعلها قاعدة له وأمر بإقامة الخطبة باسمه ومنها قاد شعبه إلى بحر مرمرة والبحر الأسود وفي عام ١٣٠١م هزم القائد البيزنطي موزايون بالقرب من أفيون ـ حصار بين إزميد ونبقية. وأتاح له هذا النصر أن يسيطر عسكرياً على بروسة ونيقية ونيقوميديا وفتح مدينة يني شهر التي اتخذها عاصمة له واتجه بعد ذلك على

محورين شمالاً حتى نهر سقاريا وصولاً إلى البحر الأسود، وفي الجنوب الغربي باتجاه بحر مرمرة وذلك بهدف عزل المدن البيزنطية التي أراد فتحها.

وقد أتاح زوال الدولة السلجوقية الرومية عام ١٣٠٤م المجال لعثمان بأن يستقل بكافة الأراضي المقتطعة له. ولقب نفسه «باد شاه آل عثمان».

وأرسل عثمان إلى أمراء المقاطعات البيزنطية في آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب. فأسلم بعضهم وانضموا إليه في حين قبل البعض الآخر دفع الجزية، بينما عارضه فريق ثالث من الأمراء حين آنسوا من أنفسهم القوة للتصدي لطموحاته.

ركّز عثمان جهوده بعد ذلك على المدن الكبيرة المعزولة، ورأى أن يبدأ بفتح مدينة بروسة. فبنى بالقرب منها قلعتين تشرفان عليها وتحيطان بها، بهدف إحكام عزلتها وتشديد الحصار عليها. ثم عهد إلى ابنه أورخان بمحاصرتها. وفعلاً سقطت المدينة بيد أورخان في السادس من شهر نيسان عام ١٣٢٦م.

لقد تمثلت عبقرية عثمان في كونه وضع أسس دولة استوحى نظمها من الدولة السلجوقية الرومية سواء فيما يتعلق بالتقاليد أو التنظيمات أو بالحضارة الموروثة عن العالم الإسلامي.

لقد كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة، جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية الأمير عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت، وكانت هذه الوصية تتضمن دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

يقول الأمير عثمان الأول في وصيته: «يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله ربّ العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة، فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يا بني! أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنّك الشيطان بجندك ومالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

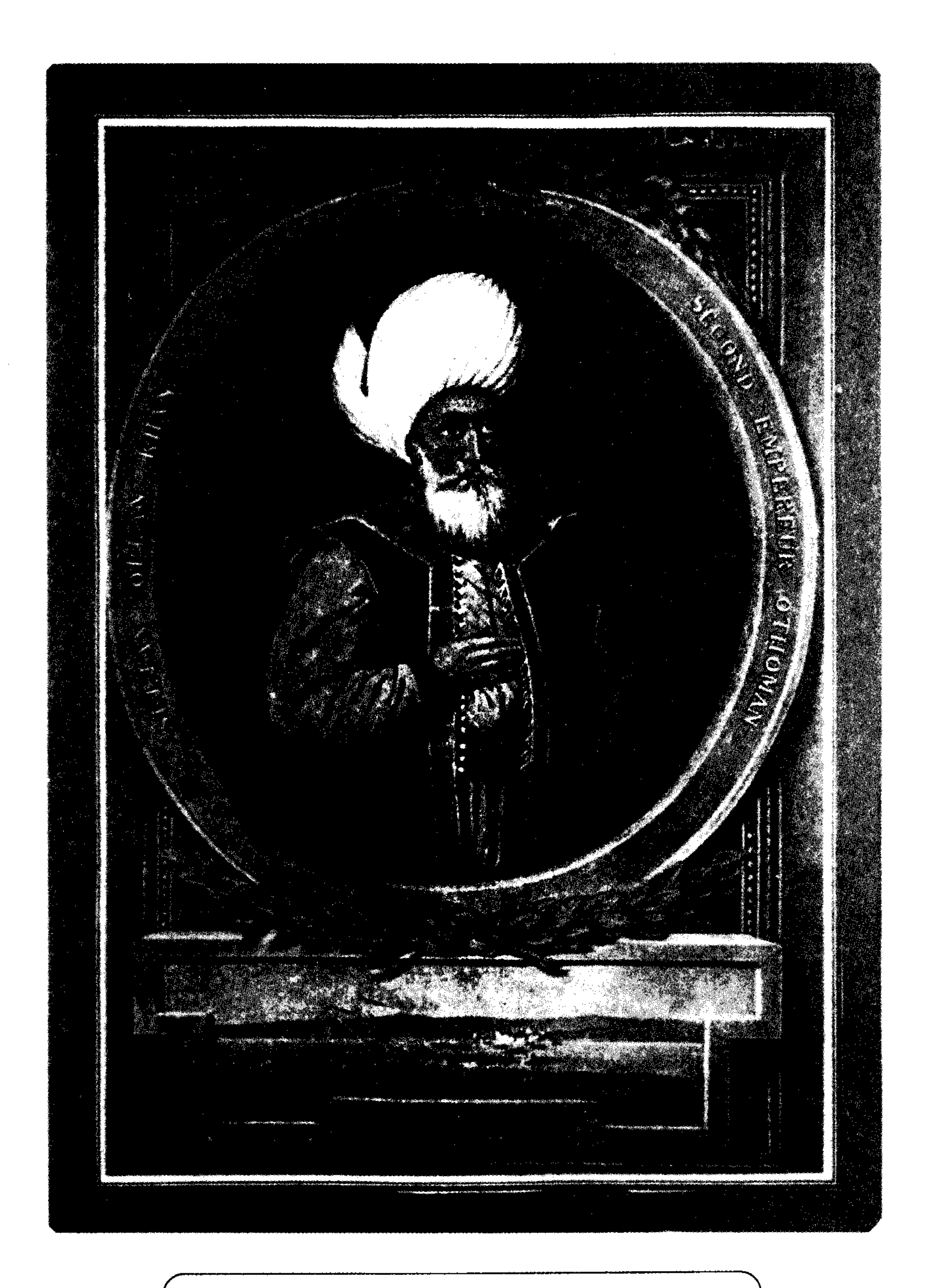
يا بني! إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله ربّ العالمين، وأنَّ بالجهاد يعمُّ نور ديننا كل الأفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله

يا بني! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكمٍ أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت.

وهذا يا ولدي ما أنت أهل له.

وتوفي الأمير عثمان الأول يوم ٢١ رمضان ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م وكان عمره سبعين سنة، وحكم (٢٧) سنة. وحزن عليه قومه، لأنه كان بطلاً مغواراً، وهو الذي أسس هذا الملك الذي سميّ بالدولة العثمانية. وكان زاهداً يقتدي بأصحاب رسول الله ﷺ، وقد توفي بعد أن استطاع أن يوسع من الإمارة التي استلمها من والده، والتي كانت مساحتها ٤٨٠٠ كيلو متراً مربعاً، ومات وقد وصلت إلى ١٦,٠٠٠ من الكيلومترات المربعة. فرحمه الله رحمة واسعة.



الأمير المجاهد أورخان بن عثمان

٢ـ الأمير المجاهد أورخان بن عثمان

١٣٢٦ ـ ١٣٦١م

ولد عام ١٢٨١م وهو ثاني أولاد السلطان عثمان الأول، خلف والده الذي أوصى له بالحكم لشجاعته، وإقدامه ومحبة الجيش له، ولم يوصي عثمان لولده علاء الدين لأنه كان متصوفاً لا يحب الحرب منعزلاً للعبادة... والدولة تحتاج لأن يرأسها حاكماً شجاعاً جريئاً عالي الهمة سديد الرأي..

استلم أورخان الحكم في ٢١ رمضان ٧٢٦هـ ١٣٢٦م، وبعد أن دفن والده في مدينة بورصة. حيث بقايا مقبرة السلاطين العثمانيين الآن.

سلم أورخان أخاه علاء الدين تدبير أمور الدولة الإدارية، وتفرغ للحرب والجهاد في كل البلاد المجاورة له ونشر الراية العثمانية.

اعمال الأمير اورخان التنظيمية:

١ ـ تأسيس جيش عثماني (الإنكشارية) محترف كما كان الأمر في بداية الدولة الأموية والعباسية... حيث أن الاعتماد على المجندين غصباً لا يجدي.

٢ ـ ضرب العملة الذهبية باسمه.

كانت الجيوش لا تجمع المجاهدين إلا وقت الحرب وتصرفهم بعد انتهائها. لذا خشي أورخان من تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التابع لها وانفصام عرى الوحدة في الدولة العثمانية. حيث أسس الجيش الجديد (الانكشاري) وذلك بمشورة خليل الأسود (قره خليل) الذي أشار عليه بأخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية إسلامية بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان الذي يطعمهم ويأمُرهم، ولا حرفة لهم إلا الحرب، والجهاد في سبيل الله، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبهم.

أوكل السلطان إلى الحاج بكطاش الذي كان من شمال شرق الأناضول ـ من

مدينة صامسون ـ على البحر الأسود وهو شيخ الطريقة البكطاشية الدينية ليعلمهم أصول الدين الإسلامي وليدرب قادتهم على النزال وممارسة الحرب والجهاد. . .

ارتقى هذا الجيش في نظامه، وزاد عدده حتى صار السلطان يعتمد عليه في الحرب وكان المجاهدون المتوافدين من البلاد الإسلامية يدعمونه دون أن يدخلوا في تنظيماته.

ويعد هذا الجيش من أكبر عوامل توسع الدولة العثمانية وانتصاراتها ومنه القواد والولاة والمستشارين. . . وأزواج بنات السلطان والمعتوقات من جواري السلطان. وهي إنعامات سلطانية.

ولكن مع الزمن كان المتنفذين في الدولة يدخلون أولادهم في هذا الجيش وتحزّب هؤلاء، فكان هذا سبباً في انهيار الدولة العثمانية وكان هذا الجيش يضم العلماء الذين يجرون تجارب على تحسين الأسلحة. وصنعت له أقوى وأكبر مدفعية في العالم. . . وهي المدفعية التي خطط لها أحد رجال تونس. . . الذي ذهب إلى إسبانيا ودخل أحد الأديرة وأجرى التجارب الكثيرة وألف ثلاثة كتب أحدها عن صناعة المدافع والثاني عن المقذوفات والثالث عن أصول الرمي. . .

ولمّا أتم تجاربه عاد إلى تونس ونسخ ثلاثة نسخ عن هذه الكتب وأرسل النسخة الأولى إلى السلطان العثماني الذي استفاد منها في صناعة المدافع والنسخة الثانية إلى سلطان المماليك بالقاهرة فأهملها. . . والثالثة إلى عمان واستفاد منها الجمادار البلوشي القائد العماني المشهور فعمل مدافع أكبر وأبعد مدى من مدافع السفن البرتغالية استطاع بموجبها تطهير المحيط الهندي وشرق أفريقيا من السفن البرتغالية. (وانتقم للعثمانيين والمماليك بهزيمة البرتغاليين بمعركة ديو ١٦٥١م) هذا الجيش (الانكشاري) الذي وسَّع البلاد العثمانية كان سبب تأخر هذه الدولة عندما دخله أبناء بعض رجال الدولة دون كفاءة قتالية، ودون استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل عزَّة البلاد. بل كان همهم الحصول على المال، وإشاعة الفتنة والفساد في الدولة. وانصرف بعضهم للخدمة في قصر السلطان فكان منهم الشوربجي باشي وعشي باشي وسقا باشي وأوده باشي وآغا البشاكير وآغا الأباريق وآغا البزاة. . . .

وقد قام السلطان محمود الثاني بإلغاء الجيش الإنكشاري ووضع الأساس لجيش حديث على الطرق الأوربية الحديثة.

قام أورخان بنقل مقر الحكومة العثمانية من اسكي شهر إلى مدينة بورصة لحسن موقعها وحصانتها... وأرسل قواد جيوشه لفتح ما بقي من بلاد الروم في آسيا الصغرى (الأناضول) ففتحوا أهم مدنها..

فتوحات أورخان في آسيا الوسطى:

وفتح السلطان نفسه مدينة أزمير بعد سنتين من الحصار وبذلك أصبحت آسيا الصغرى كلها تحت حكمه ونفوذه. مما جذب إليه قلوب الأهالي وقد عاملهم بالرفق واللين والإحسان حيث بقي من أسلم من الروم أو دفع الجزية وسمح للباقين بالهجرة بعد بيعهم أملاكهم ومنقولاتهم. في عام ١٣٣٦م ضم السلطان أورخان إلى مملكته إمارة قرقسي الواقعة غرب الأناضول على بحر مرمرة إلى الشرق من بحر إيجة وذلك لوقوع الخلاف بين ولدي أميرها بعد وفاته وكانت أمارة قوية ولولا وقوع الخلاف بين أمرائها لما احتلها. وبعد ذلك بدأ بناء الجوامع والتكايا لمرابطة المجاهدين الذين توافدوا من كل العالم الإسلامي لمساعدة العثمانيين لتحقيق النصر وتوسيع دار الإسلام.

وأسس أورخان أول مدرسة عالية تشبه جامعات اليوم في عاصمته واهتمت بالعلوم الوضعية والحربية في مدينة بورصة وهي التي طورت المدافع التي احتل بها محمد الثاني مدينة القسطنطينية...

فتوحات أورخان في أوروبا:

في زمن أورخان جاء الصرب ـ من شمال روسيا الآن ـ وسكنوا البلقان واحتلوا قسماً كبيراً منه وهاجموا عاصمة الروم رغم أنهم مسيحيون فاستنجد به ملك الروم جان «حنا أو يحيى» باليولوغ عام ١٣٥٥م يرجوه مد يد المساعدة لصد غارات أمير الصرب دوشان الذي جمع تحت سلطته الصرب والبلغار وزحف على مدينة القسطنطينية (استانبول اليوم) كان دوشان قد ولد في البوسنة عام ١٣٠٨م

وصار أميراً لبلاد الصرب وحالف جمهورية البندقية. والإمارات المسيحية الأخرى في البلقان وكان يريد احتلال القسطنطينية لإعادة أمجاد الدولة الرومانية. . .

عرض امبراطور الروم على أورخان أن يزوجه ابنته إذا ساعده على دفع هجمات العرب.

أجاب أورخان نداء أمبراطور الروم، وأرسل خيرة جنوده لمساعدته ولكن دوشان توفي وسَلِمت القسطنطينية. . .

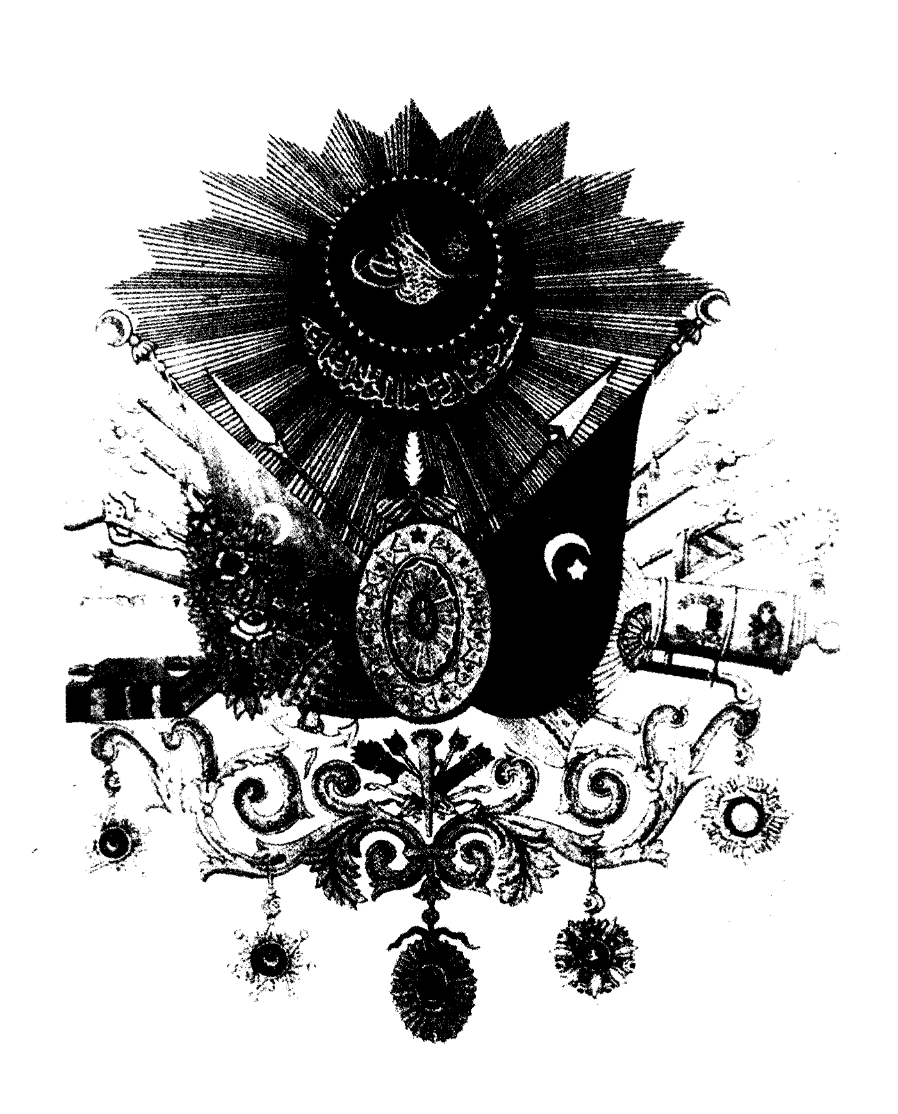
كان انتقال جنود أورخان إلى البر الأوربي مناسبة ليتعرف على تلك الأراضي، ورأى بقايا الجنود الأمويين العرب المسلمين فاحتل جزء من الساحل الأوربي ليكون قاعدة له للتوسع في أوربا.

وفي سنة ١٣٥٧ اجتاز القائد سليمان باشا ابن أورخان وليّ عهده وصدر مملكته مضيق الدردنيل بأربعين رجلاً من أشجع فرسانه وأحضروا القوارب التي عبر بها الجيش العثماني إلى أوربا وكان عدده ثلاثين ألفاً واحتل كاليبولي ـ (شنا قلعة).

وكانت أسوارها مهدمة بسبب الزلزال فسقطت بسهولة كما احتل أبسالا وتكرطاغ الواقعة على بحر مرمرة. . . .

في عام ١٣٥٩ توفي سليمان بن أورخان وتولى السلطنة ولي العهد أخوه مراد وتولى منصب الصدارة خير الدين باشا. وهي نفس السنة التي توفي فيها الأمير أورخان. حزناً على وفاة ابنه سليمان.





الأمير مراد الأول



٣ـ الأمير مراد الأول بن أورخان
١٣٦٠ ـ ١٣٨٩

ولد مراد الأول في بورسة عام ١٣٢٦هـ واستلم السلطنة بعد وفاة والده أورخان عام ١٣٦٠هـ ومدة حكمه ٣٥ سنة قضاها في الفتوحات وترتيب أمور الدولة.

كانت فاتحة أعمال مراد احتلال مدينة (أنقرة) عمورية مقر سلطة القرمان؛ وكان السبب أن القرمان اغتنموا فرصة وفاة السلطان أورخان وحرّضوا أمراء آسيا الصغرى لقتال العثمانيين وكانوا يتخوفون قوة العثمانيين لذلك هاجمهم واحتل أنقرة فانتقل القرمانيون إلى دمشق وسكنوا زقاق القرماني في سوق ساروجة بدمشق. . .

لذلك عمد بقايا القرمانيون إلى الصلح مع السلطان مراد، وزوج علاء الدين سلطان القرمان ابنته لمراد ليطمئن السلطان مراد وتقوية الدعم له ضد الروم والصرب. . .

عام ١٣٦١م قام السلطان مراد باحتلال أدرنة وقد سلمها القائد الرومي بعد قتال قليل لضعف مقاومته.

وكانت أدرنة مدينة كبيرة تقع على ملتقى ثلاثة أنهر وكان بناها الأمبراطور أدريان وسميت باسمه.

أعجب السلطان مراد بمدينة أدرنة وجعلها عاصمته، وتحت حكمه، واستمرت أدرنة عاصمة الدولة العثمانية حتى احتلال القسطنطينية بعد ذلك احتل فيليبوليس ورادار وكوملجنة جنوب غرب أدرنة وفاردار. وبذلك أصبحت مدينة القسطنطينية محاصرة من البر الأوربي كما هي محاطة بسيطرة العثمانيين على البر الآسيوي.

خاف الروم من تقدم سيطرة العثمانيين على البر الأوربي في البلقان ووصولهم حتى البحر الأدرياتيكي.

خاصة وأن العثمانيين قد فصلوا بين الإمارات البلقانية الصربية والبلغارية، ودولة الألبان المستقلة على ساحل البحر الإدرياتيكي. . .

خاف الروم البيزنطيون الأرثوذوكس من توسع العثمانيين، فطلبوا من البابا أوربن الخامس أن يتوسط لملوك أوربا الغربيين لمساعدة الصرب والروم والبلغار على محاربة المسلمين خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء البلقان لذلك أطلق أورباك الخامس نداءه إلى كل مسيحيي العالم لمحاربة المسلمين وحرضهم على محاربة المسلمين حرباً دينية حفاظاً على الدين المسيحي من امتداد النفوذ العثماني المسلم. . . والمدعوم من الفرق الدينية المسلمة في كل العالم الإسلامي، كان أول من استجاب لنداء البابا أوروك ملك الصرب بعد دوشان الذي جمع القوى الصربية وفرسان المجر وسار بعدد كبير من فرسان أوربا الذين انضافوا إلى جيشه. . . لمحاصرة أدرنة عاصمة العثمانيين وذلك عام ١٣٦٣. واستغلوا فرصة انشغال السلطان في محاصرة مدينة بيجا في آسيا الصغرى فلما وصل خبر تقدمهم باتجاه أدرنة جمع العثمانيين قواهم وهاجموا الأحلاف في ليلة مظلمة وألقوا الرعب في قلوبهم فولوا الأدبار تاركين قتلاهم وأموالهم وسلاحهم. . .

بعد هذا النصر حاول العثمانيين تأسيس المساجد والمدارس والرباطات للمجاهدين وتدريب الجيش العثماني وتحسين أسلحته. . . حتى أصبح أقوى جيوش أوربا وآسيا.

هابت الدول قوة العثمانين وبدأت تهادنهم لتجنب الحرب معهم فأرسلت لهم جمهورية راجوزه وهي على ساجل البحر الأدرياتيكي بموجبها ٥٠٠ دوكا ذهب وهي أول معاهدة بين العثمانيين والأمارات المسيحية في البلقان عام ١٣٧٩م.

بعد هزيمة الصرب برز سيسمان أمير البلغار ليتزعم قتال العثمانيين ولكن بعد عدة محاولات لمعارك كثيرة تحقق عجزه عن مقاتلة العثمانيين أبرم صلحاً معهم على أن يتزوج السلطان ابنته ويدفع خراجاً سنوياً معيناً.

بعد ذلك ألف مراد فرقة الخيالة العثمانية المسماة سيباه، وجعل علمهم اللون الأحمر المزين بالهلال الذي لايزال علم تركيا إلى اليوم. . . . بينما المقاتلون المشاة (بيادة).

بعد ذلك انصرف مراد إلى ترتيب الأمور في آسية الصغرى فزوج ولده بايزيد الملقب بالصاعقة لشجاعته بنت أمير كرميان. الذي قدم للسلطان مدينة كوتاهية كما هي عادة الفرنج تدفع العروس دوطه لزوجها وهذا قديماً. . .

وفي عام ١٣٧٩ إتحد لازار ملك الصرب بعد أوروك مع سيسمان أمير البلغار لمقاتلة العثمانيين، ولكن بعد مناوشات كثيرة تبين لهم عجزهم وانتظروا الوقت الذي انشغل به العثمانيون في آسيا الصغرى لتحقيق أطماعهم. . . .

في عام ١٣٨١ بدأ توسع الدولة العثمانية ثانية فقد ألزم السلطان الحميد أحد أمراء آسيا الصغرى بالتنازل عن بلاده وقام قائده ديمور طاش باشا بحرب على الصرب والبلغار لعدم دفعهم الجزية، وفتح مدن موناستر ديرليه واستيب وصوفيا بعد معارك وحصار دام ثلاث سنوات.

وفي عام ١٣٨٣ فتح الصدر الأعظم مدينة سالونيك الشهيرة في سواحل بحر أيجة.

هذه الفتوحات دعت الروم البيزنطيين للتآمر على الدولة العثمانية فتمرّد صاووجي أحد أولاد السلطان على والده بالاتفاق مع أندرو ابن أمبراطور الروم حنّا باليولوج بالثورة على السلطان. ولكن جيش السلطان انتصر عليهم وقام مراد بقتل ابنه بدون شفقة وكذلك كل من ساعده وتطوع في جيشه من المسلمين والروم. . . وطلب من ملك الروم قتل ولده ففقأ عينيه ونفاه حتى مات.

كل هذه الفتوحات في أوربا كان وراءها خير الدين باشا أشهر قواد الدولة العثمانية، ولما توفيّ هذا القائد الذي وضع أسس الدولة العثمانية إتحد علاء الدين ملك القرمان مع بعض الإمارات في آسيا الصغرى ضد العثمانيين ولكن السلطان مراد أرسل إليهم قائده ديمور طاش فقهرهم في سهل قونية وأخذ علاء الدين أسيراً فتوسطت لعلاء الدين ابنته زوجة السلطان فأطلقه السلطان مقابل جزية سنوية مرتفعة. . .

في هذه الأثناء اغتنم الصرب وجود الجيش العثماني في آسية فهاجموا القوات العثمانية ١٣٨٧م وحققوا بعض الفوز وانضم إليهم أمير البلغار سيسمان، ولكن

القوات العثمانية بقيادة الوزير علي باشا احتلت ترنوه وشوملة وفرَّ سيسمان إلى نيكوبوليس ١٣٨٨ وفيها نظَّم جيوشه وعاد لمحاربة العثمانيين فهزم ووقع أسيراً. فضم السلطان نصف بلاد الصرب إلى أراضيه وأبقى النصف الآخر لسيسمان. على أن يدفع الجزية.

ولما حاول ملك البلغار مساعدة ملك الصرب انهزم وفر إلى ألبانيا يطلب المساعدة ضد العثمانيين، ولكن السلطان لم يمهله ولحق به ونشبتْ المعركة في سهل كوسوفو دافع فيها الصرب دفاع الأبطال وبعد معركة حامية شعر أحد قادة الصرب (فوك) بأن المعركة تميل لصالح العثمانيين لشجاعتهم وحسن تدريبهم فانتقل مع عشرة آلاف مقاتل إلى صفوف العثمانيين وأعلن إسلامه.

وبهذه المعركة «كوسوفا» انتهى استقلال الصرب كما فقدت بلغاريا والروملي وإمارات الأناضول استقلالها.. وتم النصر للعثمانيين وذاعت شهرتهم في أوربا كأقوى دولة فيها...

بعد المعركة قام السلطان مراد يتفقد القتلى فقام جندي صربيّ اسمه ميلوك بطعن السلطان بخنجر مسموم. فقتل السلطان وقام جنوده بقتل ميلوك وذلك في يوم النصف من شعبان ٧٩١هـ ١٣٨٨م. فدفن في مدينة بورصة.. وكانت مدة حكمه ثلاثون سنة...



السلاطين العثمانيون



السلطان بايزيد الأول



٤ـ السلطان بايزيد الأول بن مراد

١٣٨٩ ـ ١٤٠٣

ولد السلطان بايزيد الأول عام ١٣٦٠م وهو أكبر أبناء السلطان مراد. وكان له أخ أصغر منه يدعى يعقوب متصفاً بالشجاعة، والإقدام وعلو الهمة فخيف على المملكة من الفتنة إذا ادعى الملك وثار على أخيه لذلك قتل باتفاق أمراء المملكة وقواد جيوشها اتقاءاً للفتنة، واستند الفقهاء على نصّ قرآني ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَـرَة: ١٩١].

فتوحات بايزيد الأول:

ابتدأ السلطان بايزيد أعماله بتولية الأمير اسطفان بن لازار ملكاً على الصرب وتزوج أخته (أوليفيرا) وأجازه حكم بلاده حسب قوانين الصرب مقابل جزية معينة، وعدد من الجنود ينضمون إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب.. وبذلك ضمن حدود بلاد الصرب وفتنهم. وذلك ليتفرّغ للحروب في آسيا.

انتقل السلطان بايزيد إلى آسيا الصغرى وفتح مدينة ألاشهر المعروفة لدى الروم باسم فيلادلفيا ١٣٩١ وهي آخر مدينة للروم في آسيا. وهابه أمير آبدين الواقعة جنوب فيلادلفيا فترك له أملاكه صلحاً، وكذلك أمير منتشا وصاروخان الواقعة شمال أزمير على بحر أيجة وانتقلا إلى ساحل البحر الأسود ليعيشا عند أمير قسطموني.

كما تنازل للسلطان علاء الدين السلجوقي عن أكثر بلاد القرمانلي مقابل ما يؤمنه على ما تبقى من أملاك السلاجقة في آسية الصغرى...

بعد هذه الانتصارات عاد السلطان إلى البر الأوربي وحاصر القسطنطينية وترك قسم من جيشه لحصارها وسافر إلى بلاد الأفلاق (رومانيا) الآن وقهر أميرها الدوق مانيس الذي وقّع على معاهدة يعترف فيها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده ويتعهد

بدفع جزية سنوية مقابل أن يحكم بلاده بموجب قوانين أهلها... وذلك عام ١٣٩٣م.

اغتنم السلطان السلجوقي علاء الدين بُعدَ السلطان عن الأناضول في بلاد الأفلاق وأراد استعادة مدينة أنقرة وجهز لذلك جيشاً كبيراً وتحالف مع الأمراء المجاورين وسار ضد السلطان وهزم قائده الكبير ديمور طاش باشا وأخذه أسيراً.

بلغ ذلك السلطان فعاد بسرعة إلى الأناضول وَجَدَّ في حرب علاء الدين وكانت المعركة الفاصلة في (آق جاي) فهزمه السلطان بايزيد وأسره وولديه محمد وعلي وضمَّ ما بقي من أملاكه إلى الدولة العثمانية وهكذا انتهت الإمارة القرمانلية. وفتح إمارات سيواس وتوقات وكان آخر أمرائها الغازي برهان الدين.

لم يبق من أراضي آسيا الصغرى إلا إمارة قسطموني وكان أميرها يسمى بايزيد أيضاً. وكان أمير قسطموني قد حمى وساعد كثير من أمراء آسيا الصغرى وقد احتل العثمانيون إماراتهم. فطلب منه السلطان تسليم أولاد صاحب آيدين وصاروخان فامتنع فسار إليه السلطان بايزيد وأغار على بلاده وفتح مدائن سامسون، جانك، عثمانجق... وهرب أمير قسطموني إلى بلاد تيمورلنك سلطان المغول...

ومع كل هذه المعارك استمر العثمانيون في محاصرة القسطنطينية وخلال الحصار قام السلطان بضم بلاد البلغار إلى الأملاك العثمانية بعد أن قتل أمير المنمرد، سيسمان وأسر ابنه وعيَّن حاكماً على سمسون عام ١٣٩٤م.

بهذا أصبح ملك المجر مجاوراً للعثمانيين، وذلك بعد سقوط الأفلاق والبلغار، والصرب تحت سيطرة العثمانيين فاستنجد بأوربا وساعده البابا... ونادى بالحرب الدينية ضد الإسلام في أوربا. فأجاب الدعوة دوق بيورغونيا الواقعة بين فرنسا وألمانيا وأرسل إلى المجر الكونت دي نيفر ومعه ستة آلاف محارب من أشراف فرنسا وأمرائها ومنهم أقرباء ملك فرنسا وانضم إليه أمير بافاريا الألماني، وأستريا «النمسا»، وشولية قائد فرسان المعبد الاسبتارية. المحاربين الفرنجة في بلاد الشام لنصرة المسيحية وكانت قاعدتهم جزيرة رودس بجانب آسيا الصغرى بين بحر أيجة، والبحر المتوسط وكذلك جزيرة قبرص على سواحل بلاد

الشام. وهم فرسان القديس يوحنا الأورشليمي. اجتاز الحلفاء لملك المجر نهر الدانوب وعسكروا حول مدينة نيكوبلي فسار إليهم السلطان بايزيد ومعه مئتا ألف مقاتل بينهم الكثير من فرسان الصرب تحت قيادة أميرهم اسطفان بن لازار.

كان المسيحيون من صرب وبلغار وروم الخاضعين لبطريرك القسطنطينية الأرثوذكسي يتلقون كل مساعدة ورعاية من العثمانيين وقد تركوا لهم إدارة شؤونهم وفق أعرافهم، ولم يتعرضوا لهم بأي أذى واستطاعوا الحج إلى مدينة القدس التي كانت تحت سيطرة المسلمين. واستمر خط التجارة الهندية إلى أوربا عن طريق الحرير حتى أوربا ماراً بالإمارات العثمانية لذلك تمتعوا بالرفاه والحياة الكريمة آمنين على أموالهم وتجارتهم التي تمتد من بلاد المغول حتى أوربا...

قاتل السلطان بايزيد المتحالفين يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨هـ الموافق ٢٧ أيلول ١٣٩٦ وانتصر عليهم وأسر كثيراً من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر نفسه وقتل كثيراً من الجنود.

أقسم الكونت دي نيفر على الكتاب المقدس أن يعود لحرب العثمانيين. أطلق السلطان بايزيد الكونت دي نيفر وقال له: أنت في حل من هذا اليمين فلا أحب إليّ من النصر في الحرب، ولو أتى كل ملوك أوربا. في هذا الوقت كان تيمورلنك القائد المغولي التتري قد احتل كل بلاد الترك وسار إلى احتلال العراق والشام وأقام فيها من القتل والحرق والنهب والسبي. فالتجأ إليه أولاد السلطان علاء الدين السلجوقي. فأغار على أراضي وإمارات السلطان بايزيد ولما كان أكثر جيشه في أوربا بعد معركة نيكوبلي، ومحاصراً للقسطنطينية لذلك أبرم صلحاً مع أمبراطور الروم في القسطنطينية على أن يدفع سنوياً مبلغ عشرة آلاف دينار ذهبي وأن يجيز للمسلمين العرب القاطنين في القسطنطينية بناء جامع لهم وإقامة محكمة شرعية للنظر في قاضياهم...

الحرب مع تيمور:

هاجم تيمور الأعرج الدولة الجلائرية في بغداد فهرب سلطانها أحمد الجلاير إلى حماية السلطان بايزيد ولما طلبه تيمورلنك رفض السلطان بايزيد تسليمه فأغار

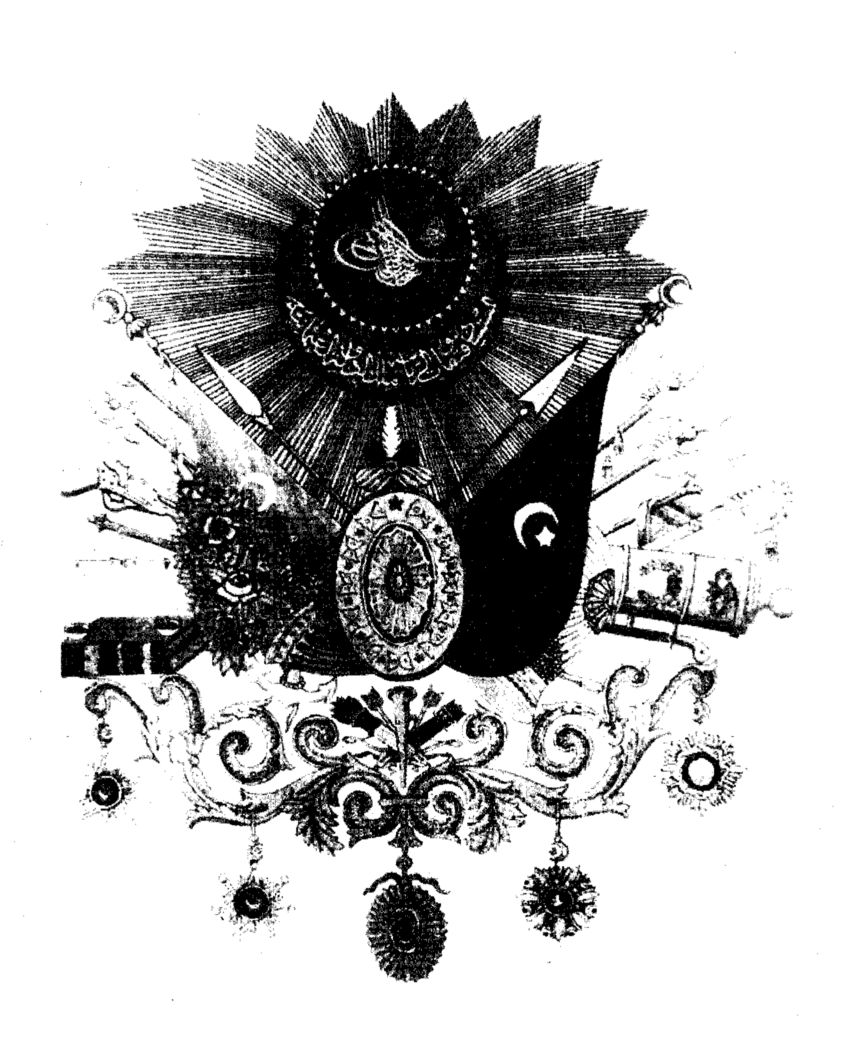
تيمور بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى وافتتح مدينة سيواس بأرمينيا وأسر ابن السلطان بايزيد المدعو أرطغرل وقطع رأسه ولذلك جمع السلطان جيوشه وسار لمحاربة تيمور وتقابل الجيشان في سهل أنقرة ولما بدأت الحرب وبدا تفوق العثمانيين. وفي مساء اليوم الأول انفصل عن جيشه فرق أيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضموا إلى جيش تيمورلنك ولم يبق مع السلطان إلا عشرة آلاف انكشاري وعساكر الصرب والبلغار فحارب معهم في اليوم التالي حتى وقع أسيراً مع ابنه موسى وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى ولم يقف على ابنه الخامس مصطفى على أثر.

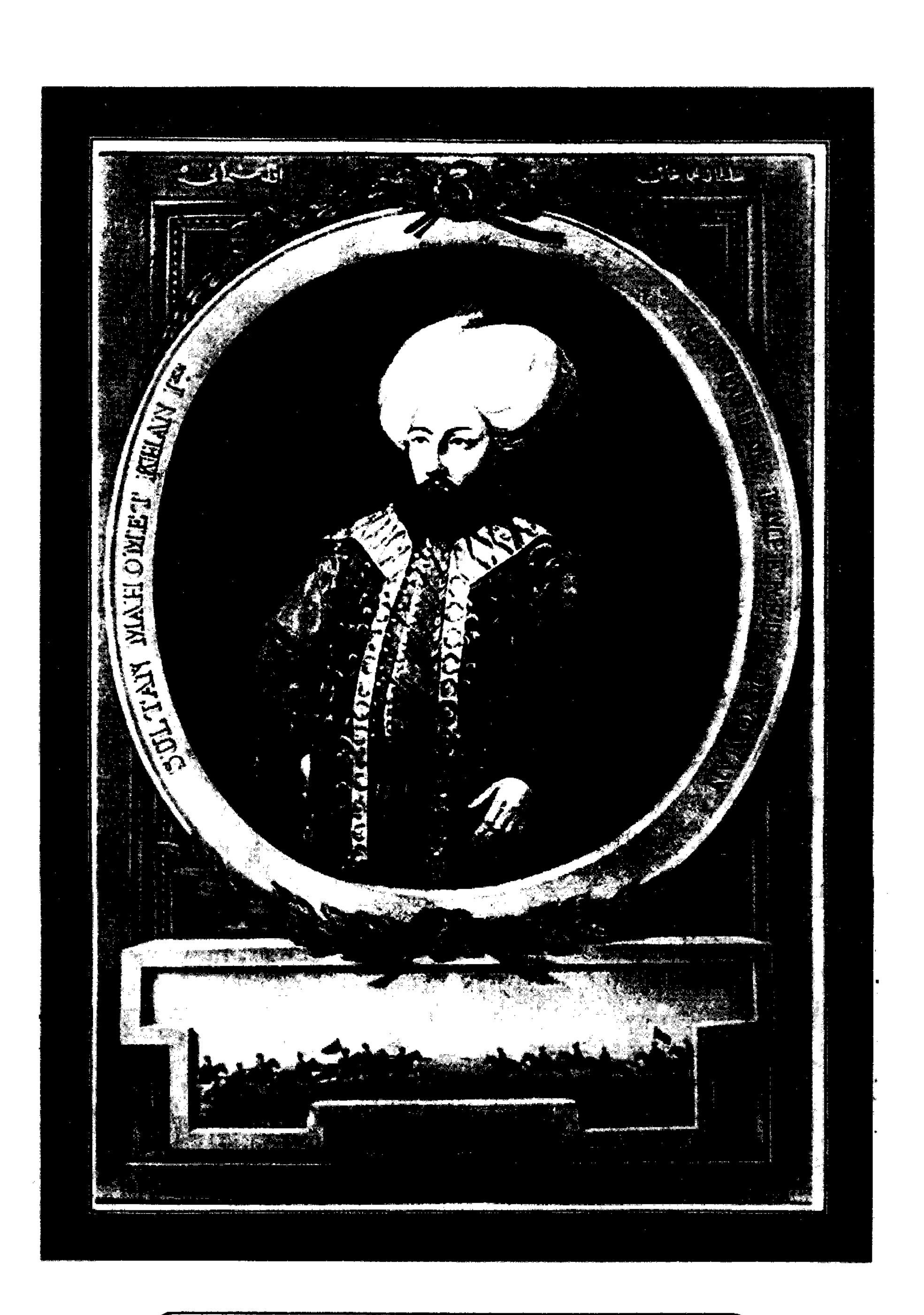
قام تيمور بوضع بايزيد في تخت حديدي تجره الجياد وذلك عندما حاول الهرب ومات في ١٥ شعبان ٨٠٥هـ ١٤٠٣ ميلادية وعمره ٤٤ سنة بعد أن حكم ١٣ سنة. وقام ابنه موسى بنقل جثته إلى بورصة حيث دفن في مقابر العثمانيين.

أعاد تيمور أمراء آسيا الصغرى إلى إماراتهم وبذا تجزأت الدولة من جديد واستقل الصرب والبلغار والأفلاق (رومانيا)، وزاد الطين بلة تنازع أولاد بايزيد. كل منهم يدعي الأحقبة بالسلطنة فأقام ابنه سليمان في أدرنة حيث ولاه الجنود سلطاناً، فعقد حلفاً مع امبراطور الروم البيزنطي وتنازل له عن مدينة سلانيك، أما ابنه محمد فقد بقي يحارب مع من تبقى من جنوده واستخلص من تيمور مدينتي أماسيا وتوقات.

أما عيسى فلما بلغه خبر وفاة والده جمع ما كان معه من الجند بمدينة بورصة وأعلن نفسه خليفة آل عثمان بمساعدة القائد ديمورطاش وقام تيمور بتشجيع الثلاثة على منافسة بعضهم البعض يريد بذلك إضعافهم.

سار محمد لمقاتلة أخيه عيسى وهزمه وقتله. واستخلص أخاه موسى من أمير كرميان وسلمه قيادة الجيش وأرسله إلى أوربا لمحاربة أخيه سليمان ولما لم ينجح موسى في محاربة سليمان قام محمد بالسفر إلى البر الأوربي وحارب أخاه سليمان وقتله خارج أسوار أدرنة عام ١٤١٠، وأغار على بلاد الصرب، وعاقب أهلها على خروجهم على الطاعة وقاتل سجموند ملك المجر. ولما خرج أخوه موسى استطاع الانتصار عليه وقتله عام ٨١٦هـ ١٣١٣م.





السلطان محمد شلبي الأول



٥ـ السلطان محمد شلبي الأول

١٤١٣ ـ ١٤٢١

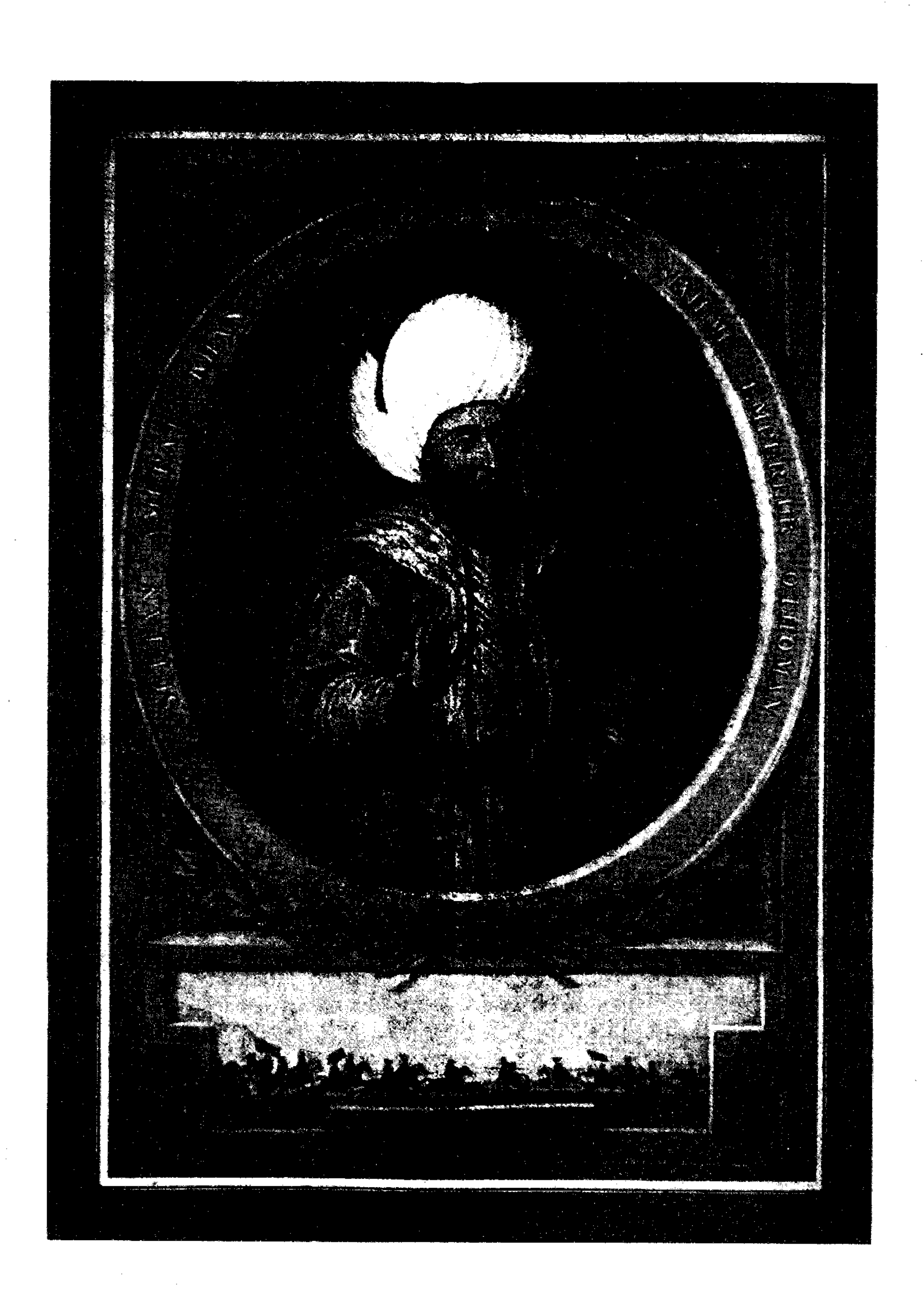
انفرد محمد بالحكم سنة ٨١٦هـ ١٤١٣م واشتهر في التاريخ باسم محمد شلبي.

قام بمهمة إعادة بناء الدولة العثمانية وساعده ملك الروم الذي استمر على تحالفه معه بعد موت أبيه بايزيد ورد له البلاد التي غزاها الأمير موسى بن بايزيد.

فقد حارب أمير قرمان، كما حارب قره جنيد حاكم أزمير، كما حارب عالماً كان قاضي عسكر اسمه بدر الدين وكان قد بشَّر بالمساواة بالأموال والأمتعة والممتلكات فتبعه كثير من الفقراء، كما أعلن المساواة بين الأديان الإسلام والمسيحية واليهودية واعتمد على شخص يهودي اسمه (طور لاق كمال) فأرسل إليه السلطان محمد القائد البلغاري سيسمان وأعطاه ولاية سمسون ولكن بدر الدين استطاع الانتصار عليه وقتله...

فجمع السلطان محمد خيرة جنوده وقاتله في ضواحي أزمير وانتصر عليه وأخذه أسيراً ثم قتله... وقبض على بدر الدين في مقدونية عام ١٤١٧م وقتله بناءاً على فتوى بأن الفتنة أشد من القتل...

وظهر شخص ادعى أنه مصطفى ابن السلطان بايزيد ولما حاصره محمد هرب إلى ملك الروم الذي حفظه عنده ولم يسمح له بمغادرة القسطنطينية. ولم يكد محمد شلبي ينهي هذه الفترة حتى فاجأه الموت سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م في مدينة أدرنه بعد أن أوصى بالسلطنة لابنه مراد وكان والي أماسيا، والسلطان محمد هو أول خليفة عثماني أرسل الصرة إلى شريف مكة لتوزيعها على الفقراء.



السلطان مراد خان الثاني



٦ـ السلطان مراد خان الثاني بن محمد
١٤٢١ ـ ١٤٥١

تولى السلطان مراد الثاني السلطنة بعد موت أبيه سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م وعمره ثماني عشرة سنة وأهم أعماله:

١ ـ الصلح مع أمير القرمان.

٢ ـ الاتفاق مع ملك المجر على هدنة مدتها خمس سنوات.

٣ ـ اقترح على الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني تجديد المعاهدة التي وقعها والده من قبل. لكن مانويل طلب من مراد الثاني أن يبقى اثنين من إخوته رهينة في القسطنطينية لضمان حسن تنفذها. إلا أن مراد الثاني رفض طلب الإمبراطور الذي هدّده بإطلاق سراح مصطفى المطالب بعرش السلطة. بعد رفض مراد الطلب البيزنطي. اقدم الإمبراطور على إطلاق مصطفى. الذي سار يريد أدرنة. ولكن السلطان مراد هزمه بعد أن خانه أتباعه الذين سلموه إلى مراد الثاني الذي أمر بشنقه.

٤ ـ سار السلطان مراد بعد انتصاره على عمه مصطفى وحاصر مدينة القسطنطينية وهاجمها يوم ٣ رمضان ٨٢٥هـ ٢٢٤١ ولكنه رفع الحصار وسار لمحاربة أخ له يدعى «مصطفى» شق عصا الطاعة، واستعان ببعض أمراء آسيا الصغرى فانتصر عليهم وقبض على مصطفى وقتله مع كثير من أعوانه. وتنازل أمير قسطموني عن نصف أملاكه للسلطان وسلمه الأموال وزوجه بابنته عام ١٤٢٣، واستولى على إمارة أيدين وصاروخان ومنتشا وبلاد القرمان التي ساعدها تيمورلنك على الانفصال وكذلك بلاد القرمان. وبذلك أصبح بإمكانه التفرغ للبر الأوربي فانتقل لأوربا وحارب ملك المجر وألزمه بالعودة إلى الشاطىء الأيمن لنهر الدانوب «الطونة» وأن يكون هو الحد الفاصل بين الدولة العثمانية والمجر واحتل بعد معركة كبيرة مدينة كولمباز.

كما قبل أمير الصرب برنكوفيتش بدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوكا، كما يقدم فرقة من جنوده للمساعدة وقت الحرب وأن يزوجه ابنته مارا وأن يقطع علاقته مع ملك المجر. وفي عام ١٤٣٠م. أعاد فتح مدينة سالونيك وكان تنازل عنها لامبراطور الروم.

كما أراد أن يفتح ما بقي من بلاد الصرب وألبانيا والأفلاق (رومانيا الآن) فتوجه إلى بانيه عاصمة ألبانية فأطاعه سكانها وفي عام ١٤٣٣م اعترف أمير الأفلاق بسيادة الباب العالي. ولكن ملك المجر جمع أمير الأفلاق وأمير الصرب وشكّل تحالفاً لمحاربة السلطان مراد، فسار إليهم وقهرهم في بلاد المجر وعاد بسبعين ألف أسير، وفي السنة التالية عصى أمير الصرب فقام السلطان مراد بفتح مدينة سمندرية على نهر الدانوب بالقرب من بلغراد بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر وبعدها حاصر بلغراد ستة شهور دون أن يتمكن من فتحها... وتصالح مع الصرب وتنازل عن سيادته على بلاد الأفلاق. وتوفي أكبر أولاده علاء الدين فحزن عليه وتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر أربعة عشر سنة وذلك ليعيش براحة في آيدين بالأناضول...

ولكن ملك المجر نقض الهدنة بناءاً على نصيحة الكردينال قيصر يورجيا الذي أفتى لملك المجر «أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعد حنثاً ولا نقضاً لليمين...».

كانت المجر محاصرة لمدينة وارنه على البحر الأسود عندما حنق السلطان فهاجمه السلطان مراد وهزمه وقتل ملك المجر وتفرق جيشه.

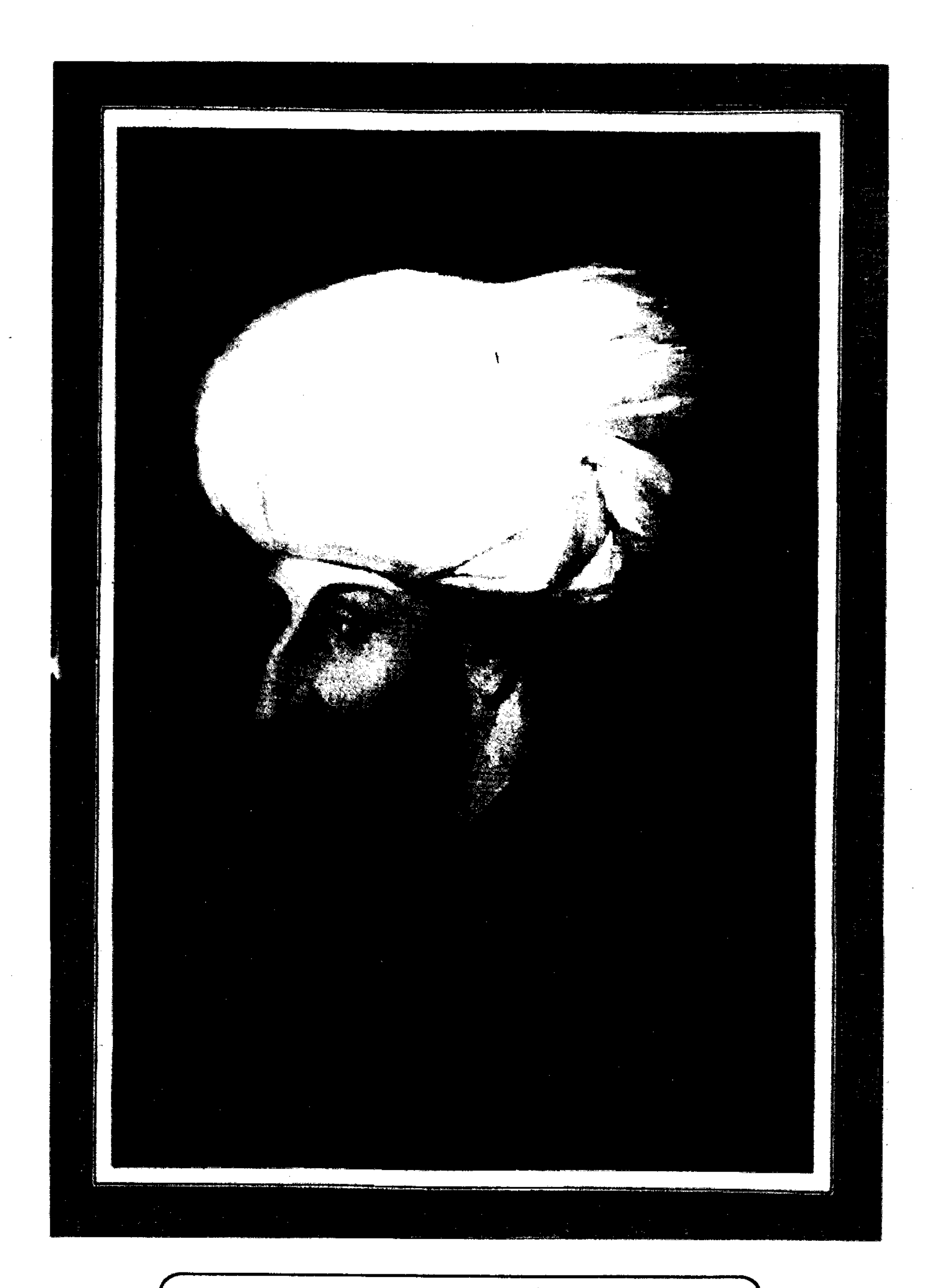
ولم تفد شجاعة قائده هونياد شيئاً، وفي اليوم التالي هاجم العثمانيون معسكر المجر واحتلوه وقتلوا الكردينال قيصر وذلك في ٨ رجب ٨٤٨هـ ١٤٤٤ ميلادية.

في عام ١٤٤٥م قام الإنكشارية بازدراء ملكهم وعصيانه ونهبوا العاصمة أدرنه. فعاد مراد إلى الحكم وقضى على الفتنة وأغار على بلاد اليونان.

كان الأمبراطور إيمانويل قد قسم ملكه بين أولاده فأعطى ابنه حنا القسطنطينية وما حولها... وابنه الآخر بلاد موره وتساليا...

هاجم السلطان مراد كورنثة. . . . وحاول فتح بلاد موره ولكن عصيان الألبان بقيادة اسكندر بك الذي حاربه السلطان واسترد مدن ألبانيا ولما حاول هونياد ملك المجر احتلال صربيا، حدثت معركة وادي (قوص أوه) كوسوفو وانتصر السلطان في ١٧ تشرين أول ١٤٤٨م وانتصر على لازار ملك الصرب وعاد إلى أدرنه ولكنه في الخامس من محرم ٨٥٥هـ الموافق ٧ شباط ١٤٥١م توفي، وتولى بعده ابنه أبو الفتح محمد الثاني ودفن في مقبرة العائلة بمدينة بورصة (بروسة).



السلطان محمد الفاتح



٧ــ السلطان محمد الثاني بن مراد
١٤٥١ ــ ١٤٨١
«فاتح القسطنطينية»

ولد السلطان محمد الفاتح يوم ٢٦ رجب ٨٣٣هـ ٢٠ نيسان ١٤٢٩، وهو سابع سلاطين العثمانيين، واستلم الحكم في محرم ٨٥٥هـ ١٤٥١م. ولما تولى الملك لم يكن بآسيا الصغرى خارجاً عن سلطان الدولة العثمانية إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب على البحر الأسود ومملكة طرابزون ومدينة القسطنطينية وضواحيها، أما أقليم جزيرة المورة من بلاد اليونان فكان يحكمه الفرنج وبلاد ألبانيا كانت تحت حكم اسكندر بك المتحالف مع البندقية لتيسير التجارة من الهند والصين عن طريق الحرير ومصر إلى أوربا. . . .

الفتح الكبير «فتح القسطنطينية»:

قام السلطان ببناء قلعة على مضيق البوسفور ليمنع المدد عن القسطنطينية من إمارة طرابزون. ولما بلغ إمبراطور الروم ذلك أرسل رسولاً إلى السلطان يعرض عليه دفع الجزية التي يقررها على أن لا يبني القعلة.

حاصر السلطان محمد المدينة عام ١٤٥٣م من جهة البر بجيش يبلغ مائتين وخمسين ألف جندي، ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشر بطارية مدفعية وضع بها مدافع جسيمة طول المدفع ٨٠ ذراعاً تقذف أحجار وزنها عشر أرطال (٢٥ كغ) إلى مسافة ميل واحد. وكان المسلمون قد حاصروا المدينة إحدى عشرة مرة دون أن يستطيعوا فتحها. وقد حاصرها معاوية رضي الله عنه في خلافة علي ٦٥٤م ويزيد بن معاوية ٦٦٧ وسفيان بن أوس ٦٧٢ ومسلمة بن عبد الملك ٧٣٩ وهارون الرشيد ٧٩٨.

ويورد أحد المؤرخين البيزنطيين أن وزن الأحجار ٣٠٠كغ ومداها أكثر من ميل وكان جر المدفع يحتاج إلى ٧٠٠ رجل وحشوه إلى ساعتين من الزمن، وأثناء القتال اكتشف المحاربون قبر أبي أيوب الأنصاري الصحابي الجليل الذي استشهد عام ٥٢هـ خلال حصار القسطنطينية زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وبعد الفتح بنى السلطان محمد الثاني مسجداً حول القبر وجعل من تقاليد العثمانيين، أن كل سلطان عند توليه يتقلّد سيف الغازي عثمان الأول في هذا المسجد (مسجد أبي أيوب الأنصاري) وبقيت هذه العادة حتى انتهاء الدولة العثمانية..

شعر امبراطور الروم بالخطر واستنجد بأمراء أوربة فأرسلوا له عمارة بحرية لفك الحصار عن المدينة لعلمهم أن المدينة ذات ثلاثة أسوار لا يمكن اختراقها إلا من جهة الخليج حيث لها سور واحد كانت العمارة البحرية النجدة للروم من جنوة تحت أمرة جوستنياني الذي أتى من البحر وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانية وانتشرت بينهما حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧ (٢١ إبريل سنة ١٤٥٣) انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها ثم أعيدت بعد مروره كما كانت. وبعدها أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار براً وبحراً فخطر بباله فكر غريب في بابه وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه، وتم هذا الأمر المستغرب بأن مهد طريقاً على البر اختلف في طوله والمرجح أنه فرسخان أي ستة أميال ورصت فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو السبعين سفينة في ليلة واحدة حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن أوطانهم حتى الممات. وفي يوم ١٥ جماد أول سنة ٨٥٧ (٢٤ أيار سنة ١٤٥٣) أرسل السلطان محمد إلى قسطنطين يخبره أنه لو سلم البلد إليه طوعاً يتعهد له بعدم مس حرية الأهالي أو أملاكهم وأن يعطيه جزيرة مورة فلم يقبل قسطنطين ذلك بل آثر

الموت على تسليم المدينة. فعند ذلك نبه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم في يوم ٢٠ جماد أول سنة ٨٥٧ (٢٩ مايو سنة ١٤٥٣) ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر وبإقطاعهم أراضي كثيرة. وفي الليلة السابقة لليوم المحدّد أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها للاحتفال بالنصر المحقق لديهم وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبرون حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم، فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم، ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا حيث كان يصلي فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الأهالي، ويعتقد الروم حتى الآن أن حائط الكنيسة انشق ودخل فيه البطرق والصور المقدّسة وفي اعتقادهم أن الحائط ينشق ثانية يوم يخرج الأتراك من القسطنطينية ويخرج البطرق منها ويتم صلاته التي قطعها عند دخول العثمانيين عليه عند الفتح. وقد أرخ بعضهم هذا الفتح المبين (بلدة طيبة) سنة ٨٥٧ وسميت المدينة إسلامبول أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام.

أما قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه. وبعد فتحها جعلت عاصمة للدولة ولن تزال كذلك إن شاء الله. ولنذكر هنا أن المسلمين حاصروا القسطنطينية إحدى عشرة مرة قبل هذه المرة الأخيرة منها سبعة في القرنين الأوّلين للإسلام، فحاصرها معاوية رضي الله عنه في خلافة سيدنا علي رضي الله عنه سنة ٣٤هـ (٦٥٤م) وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧هـ (٦٦٧م) وفي سنة ٩٧هـ (٧١٥م) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي وحوصرت أيضاً في خلافة هشام سنة ١٢١هـ (٧٣٩م). وفي المرّة السابعة حاصرها أحد قوّاد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٢هـ (٧٩٨م).

هذا ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً. ثم زار كنيسة أيا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين. وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين، ثم

جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروا جورج سكولاريوس. واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيساً لطائفة الأروام واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين وأعطاه حرساً من عساكر الإنكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالأروام وعين معه في ذلك مجلساً مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس. وفي مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط.

وبعد إتمام هذه الترتيبات وإعادة ما هدم من أسوار المدينة وتحصينها سافر بجيوشه لفتح بلاد جديدة فقصد بلاد موره لكن لم ينتظر أميراها دمتريوس وتوماس أخوا قسطنطين قدومه بل أرسلا إليه يخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوكا. فقبل ذلك السلطان وغير وجهته قاصداً بلاد الصرب فأتى هونياد الشجاع المجري وردّ عنهم مقدمة الجيوش العثمانية لكن لم يرغب الصرب في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين للبابا وكان الصرب أرثوذكس يفضلون سلطة المسلمين لعدم تعرضهم للديانة المسيحية واكتفائهم بالجزية والدفاع عن المسيحيين الأرثوذكس حسب الاتفاق مع بطرك القسطنطينية التي أصبح اسمها إسلامبول وتحول إلى استانبول.

تعهد أمير الصرب بدفع ثمانين ألف دوكا ١٤٥٤م للسلطان جزية مع الاعتراف بسيادته لذلك اتجه السلطان إلى بلاد اليونان وفتح مدينة كورنث ثم إقليم مورة عام ١٤٦٠م وفتح بعض جزائر بحر إيجة مثل تاسوس وأميروس بالقرب من مضيق الدردنيل..

ثم اتجه لِيتُم ما بقي بيد الروم من آسيا الصغرى ففتح أماستريس مركز تجارة جنوة وسينوب وطرايزون.

اغتنم أمير الأفلاق (رومانيا) فأعلن العصيان واتحد مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين وأغار على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية وأخذ منها خمسة عشر ألف أسير قتلهم أمام سكان الأفلاق فسار إليه السلطان بمئة وخمسين ألف جندي فهرب إلى ملك المجر، ولما حاول ملك المجر استخلاص البوسة، هُزم ودخل

أهالي البوسنة البشناق في الإسلام ودخل ثلاثون ألف جندي منهم في الجيش العثماني وفي عام ١٤٧٠م احتل العثمانيون جزيرة (أكريبوز) في بحر إيجه بين اليونان وآسيا الصغرى.

وفي عام ١٤٧٥م أرسل السلطان أسطولاً ففتح شبه جزيرة القرم وكانت تحت حكم فرسان القوزاق الذين يستعين بهم البغدان في محاربة العثمانيين ودخل القوزاق في الإسلام وصاروا عوناً للدولة العثمانية وبذلك صارت كل سواحل البحر الأسود تابعة للدولة العثمانية.

بعد ذلك توجه لحصار جزيرة رودس وحاصرها ولكن الفرسان االاستبارية (فرسان القديس يوحنا) دافعوا عنها بشراسة وجاءتهم النجدات من جنوة والبندقية والبابوية فرفع الحصار وتوفي السلطان عام ٨٨٦هـ ١٤٨١م ومدة حكمه ٣١ سنة وعمره ثلاث وخمسين سنة.

الإصلاحات الداخلية في عهد محمد الفاتح:

جعل السلطان محمد الثاني الوظائف الداخلية أربعة هم أركان الباب العالي:

١ ـ الوزير الأول الصدر الأعظم.
٢ ـ قاضي عسكر.
٣ ـ الدفتردار.
٤ ـ النيشانجي.

وجعل تعيين القضاة من اختصاص الوزير.

كما نظم الجيش فجعل:

١ ـ رئيس للإنكشارية.

٢ ـ رئيس للمدفعية الطوبجية.

٣ ـ رئيس للمؤونة والذخائر.

ونظم القضاء وهو أول من ألغى نظام السن بالسن والعين بالعين الواردة في قوانين حمورابي والقوانين الرومية وجعل عوضها غرامات مالية نقدية.



السلطان بايزيد الثاني



٨ ـ السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح
١٤٨١ ـ ١٥١٢

كان للسلطان محمد الثاني ولدان هما: بايزيد حاكم أماسيا، وجم حاكم بلاد القرمان.

قام بايزيد بتأييد الانكشارية بالسفر إلى إسلامبول ومعه أربعة آلاف فارس فاستقبله أمراء الدولة وأعيانها والجند وأصدر سنة بإنعامات سلطانية على الجيش وأمراء الدولة التي أصبحت سُنَّةً، وعَادَةً لكلٍّ من يتولى السلطنة حتى أبطلها السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٠م.

كان السلطان بايزيد محباً للعلم ولكن أخاه جم حاول الثورة عليه... وقاد أنصاره واحتل بورصة، ولكن السلطان قهره في معركة أسكي شهر فهرب إلى مصر، وأقام بالقاهرة عند السلطان قاتيباي. ولكنه انتقل إلى حلب وتحالف مع القرمان كما تحالف مع فرسان القديس يوحنا وسافر إلى رودس، ولكن بايزيد فاوض فرسان القديس يوحنا مقابل دفع مبلغ ٤٥ ألف دوكا. قام هذا السلطان بعقد حلف مع مملكة بولونيا المهددة من أمارة موسكو ودولة السويد ١٤٩٠م. وكذلك تحالف مع البابا اسكندر يورجيا وكان يملك روما ونابولي ودولة فلورنسا ودوقيه ميلانو...

هذا جعل دوقية البندقية تخاف من ضياع استقلالها فاستغاثت بدول أوربا ولكن السلطان تابع انتصاراته واحتل مدن رودنسو، ومودون، وكورون وناورين ولكن عصيان أحد أبنائه جعله يبرم صلحاً مع دوقيه البندقية عام ١٥٠٢م ويصطلح مع ملك المجر ويعود إلى آسيا الصغرى.

ففي ١٨ صفر ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، ترك السلطان بايزيد الثاني الحكم لابنه سليم الأول (٩١٨هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على

أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولةالعثمانية بصورة أوسع، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتوليه ابنه سليم مكانه، وقد توفي السلطان بايزيد الثاني وهو ذاهب إلى ديمتوقة، فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن في جامعه الشريف.






الخلفَاء العثمانيُون



سليم الأول بن بايزيد

٩ـ سليم الأول بن بايزيد
١٥١٢ ـ ١٥٢٠

استلم الحكم عام ١٥١٢م وقضى أولى أوقاته بحرب مع أخيه أحمد كما ذهب إلى بورصة فقتل الوزير لخيانته، وقبض على خمسة من أولاد إخوته وقتلهم، وكذلك لاحق أخاه كركود وقتله، ثم عاد إلى أدرنه فعقد هدنة مع البندقية، والمجر، وإمارة موسكو، وسلطان مصر. لأن أنظاره متجهة إلى بلاد فارس وسلطانها الشاه اسماعيل الشيعي. لاحتلاله ولاية شروان ونقل عاصمته إلى تبريز ليكون قريباً من آسيا الصغرى، وكان الشاه اسماعيل قد احتل ديار بكر وبغداد عام ١٥١٠ وفارس وأذربيجان وساعد أخاه أحمد في عصيانه. كما قام بإرسال وفد إلى مصر للتحالف معه وبذلك امتدت مملكته من الخليج إلى بحر الخزر إلى نهر أمور داريا.

شعر السلطان سليم بالخطر وبادر إلى حصار الشيعة في شرق الأناضول ويقال إن عددهم أربعين ألفاً فذبحهم في ٥ جماد أول ٩٨٠هـ/ ٢٤ آب ١٥٧٣م انزعج الشاه من هذه الجريمة وأعلن الحرب على العثمانيين، فانطلق السلطان سليم بجيشه قاصداً مدينة تبريز حيث وقعت المعركة في وادي (جالديران) حيث انتصر السلطان وفر الشاه هارباً ووقع كثير من جنوده في الأسر وكذلك إحدى زوجاته فزوجها لأحد جنوده. . .

وعاد ومعه أربعون معلماً في كافة الصناعات التي كانت معروفة في إيران، وفي عام ١٥١٥م فتح قلعة كحوماش الشهيرة وإمارة ذي القدر.

وفي طريق العودة فتح الموصل وأورفة وماردين والرقة شمال سورية وأخضع قبائل الكرد.

وفي عام ١٥١٦م. توجه إلى محاربة المماليك في سورية ومصر باعتبارهم حلفاء الشاه وتقابل الجيشان في معركة مرج دابق شمال حلب. فهزم سلطان مصر لأن السلطان سليم كان قد اشترى بعض فرق جيشه.

ودخل السلطان سليم حلب، ثم حماه ودمشق، حيث التقى بالعلماء وأحسن إليهم بالعطاءات وأمر بترميم الجامع الأموي الذي تهدم بالزلازل.

وفي دمشق لُقِّب سليم بخادم الحرمين الشريفين، وكان هذا اللقب أول من لقب به السلطان قانصوه الغوري بعد تحصين جدة ضد البرتغاليين.

انتخب المماليك في مصر طومان باي خلفاً للسلطان الغوري الذي عرض عليه السلطان سليم الصلح فرفض واستعد لملاقاة العثمانيين بعد قطع جيوشهم لسيناء... فسار إلى القاهرة وانتصر على الجيش المملوكي وتغلب عليهم بمدافعهم التي استولى عليها في حلب... ودخل العثمانيين القاهرة بعد مقاومة سكانها وقتلوا خمسين ألفاً من سكانها...

هرب طومان باي إلى الجيزة ولكن السلطان استطاع القبض عليه وشنقه على باب زويلة في القاهرة سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م... ودفن في القبر الذي أعده قانصوه الفوري له...

وزَّع السلطان سليم العطايا والخلع على علماء القاهرة وحضر عيد فيضان النيل، وعمل احتفال سفر المحمل الشريف إلى مكة المكرمة وأكرم البدو في سيناء ومدين على طريق الحج وجعل لهم الصرة إضافة للحبوب والأعلاف التي كانت توزع عليهم في زمن المماليك لتزويد قافلة الحج بالطعام والأعلاف... قبض السلطان سليم على الخليفة العباسي وأجبره على التنازل عن الخلافة له ومنذ ذلك التاريخ أصبح سلاطين آل عثمان يسمون خليفة رسول رب العالمين.

اعمال السلطان سليم بمصر:

قسم مصر إلى مماليك الوجه البحري ولايةً، ومماليك الوجه القبلي ولايةً أخرى والقاهرة وبها والٍ عثماني يتبع السلطان والكل منقادين إلى وزير الديوان الكبير، وجعل جيشها سبع وجاقات. وجعل للباشا حفظ البلاد وتوصيل أوامر السلطان إلى الديوان الكبير الذي له حق نقض أوامر الباشا وعزله... وجعل المماليك جباة للخراج بأوامر تصدر من الديوان الكبير.

أما الوجافات فكانت عشرين ألف من المشاة، واثني عشر ألف من الخيالة، وعشرة آلاف لحفظ جدة وينبع ومكة والمدينة المنورة.

وأنشأ أسطولاً في السويس لمحاربة البرتغاليين.

ولكن هذه الإصلاحات لم تستمر وعاد المماليك لإلحاق الذُّل والإهانة بالأهالي، فهاجر كثير منهم إلى الشام والحجاز وتعطلت الزراعة حتى عصر السلطان محمود الثاني.

وكان السلطان سليم عيَّن خير بك حاكم دمشق المملوكي والياً على مصر مكافأة له لخيانته للسلطان الغوري في معركة مرج دابق، وكذلك ابن معن على جبل لبنان ولقبه بأمير البرّ.

أمر السلطان سليم ببناء جامع محي الدين بن عربي فعمل المهندس الدمشقي تقي الدين على بنائه بهندسة نادرة فقد أقام المئذنة على أقواس تحتها فراغ وعاد السلطان عام ٩٢٤هـ وصلى بالجامع.

في عام ٩٢٤هـ وصل أدرنه سفير من مملكة أسبانيا ليخابره حول السماح للمسيحيين زيارة القدس مقابل المبلغ الذي كان يدفع للمماليك مقابل زيارتهم للقدس وبيت لحم. فعقد معاهدة شبيهة بمعاهدة إسبانيا مع المماليك، وكذلك أتى إليها مندوب دوقية البندقية ليدفع له خراج سنتين المقرر عليها نظير احتلالها لقبرص... ويدأ يعد العدة لفتح جزيرة رودس. ولكن الموت لم يمهله فتوفي في شوال ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م. في السنة التاسعة من حكمه وكان عمره إحدى وخمسون سنة. بعد أن جمَّل إسلامبول وبنى فيها مساجد على يد العمال السوريين والمصريين الذين جاء بهم من القاهرة ودمشق وتبريز.



الخليفة العثماني سليمان القانوني

١٠ـ الخليفة العثماني سليمان الأول (القانوني) بن سليم الأول

ولد في شعبان ٩٠٠هـ الموافق لـ ١٤٩٥ ميلادية. واستلم الحكم في ١٦ شوال ٩٢٦هـ الموافق ٢٩ أيلول ١٥٢٠ ميلادية حيث بايعه الأمراء والقواد والجنود الانكشاريين، ووزع عليهم الإعطيات كما سار لدفن أبيه وبنى له مسجداً ومدرسة. وأول أعماله خيانة (جان برد الغزالي) والي دمشق المملوكي الذي استولى على قلعة دمشق ومدينة بيروت وحاصر حلب ولكن السلطان عين فرحان باشا لإخماد ثورته فترك حلب وهرب إلى دمشق فحاصره فيها، وفي يوم ٢٧ كانون الثاني ١٥٢١م. خرج الغزالي من القلعة للقتال فهُزم وهرب متنكراً فقبض عليه فرحان باشا وقتله وأرسل رأسه إلى إسلامبول.

أما في المجر فقد رفض ملك المجر دفع الجزية فتجهز الجيش العثماني وسار إلى المجر، وفتح مدينة شايتس بالقرب من بلغراد، ثم فتح بلغراد في ٢٥ رمضان ٩٢٧هـ ١٥٢١م. وصلى الجمعة في كنيستها التي حولها إلى جامع، وعاد إلى إسلامبول حيث تلقى تهاني قيصر روسيا ودوقية البندقية ودلماسيا..

بعد ذلك وجَّه جهده لفتح رودس وكانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا. أي فرسان المعبد في القدس «الاسبتارية»، واغتنم الحرب بين ملك فرنسا وملك إسبانيا شارلكان وظهور البروتستانت بقيادة الراهب الألماني لوثر فأعدَّ عمارة بحرية وجيش بري، وحاصر الجزيرة وضرب سورها بالمدافع ثم لمّا انتهت ذخيرة المحاصرين اتفق على إخلائها فسافر فرسان القديس يوحنا إلى مالطة وقد تنازل لهم ملك إسبانيا شارلكان عنها وبقيت بأيديهم من ١٥٢٣م. حتى ١٧٩٨م. حيثما احتلها نابليون بونابرت في طريقه لغزو مصر. بعد ذلك انشغل السلطان بثورة واليه أحمد باشا والي مصر فأرسل من قضى على الثورة عام ١٥٢٤م...

حرب القرم:

في عام ١٥٢٢م حصلت ثورة في بلاد القرم، وذلك أن غازي كراي ابن محمد كراي ثار على أبيه وعمه وقتلهما.. ولكن السلطان عيَّن عمه سعادت كراي وقتل سعادت محمد، وأخيه ولمّا لم تستقر الأمور تدخلت الدولة العثمانية وجعلت القرم ولاية عثمانية.

وفي عام ١٥٢٤م سير السلطان جيشاً إلى بلدان الأفلاق «رومانيا» واحتل هذه الولاية بعد أن كانت تدفع الجزية وسيطر على عاصمتها فثار سكانها فعاد إلى السيطرة الأسمية بعد زيادة الجزية...

وثار عليه الانكشارية فوزَّع عليهم ألف دوكا وبعد ذلك انتقم منهم وقتل بعضهم. وفي عهده وصلت المخابرات بين ملك فرنسا والدولة العثمانية لعقد تحالف ضد شارلكان ملك ألمانيا وإسبانيا وهولاندا وجزء من إيطاليا مع جمهوريتا البندقية، وجنوه، وكذلك فلورنسا وكان قد احتل مدينة وهران بالجزائر وجزيرة مينورقة.

أرسل فرنسوا الأول جان فرنجباتي إلى استانبول فاستقبل باحتفال زائد وطلب السفير الفرنسي محاربة المجر المتحالفة مع شارلكان. وعقد معاهدة تحالف تنص على حصول فرنسا على امتيازات تجارية وحق حماية الكاثوليك في الشرق...

وفي ٢٥ نيسان ١٥٢٦م. ساق السلطان مائة ألف جندي مع ٣٠٠ مدفع و٨٠٠ سفينة في نهر الدانوب، وجرت معركة هائلة في وادي موهاكس انتصر فيها السلطان فاستلمها ودخلها في ٣ ذي الحجة ٩٣٢هـ الموافق ١٠ أيلول ١٥٢٦م دون التعرض للأهالي، وعين جان زابولي أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم. استاء ملك النمسا من انتصار العثمانيين فاحتل المجر وعزل زابولي. فأعد السلطان جيشاً من مائتين وخمسين ألف جندي وثلاثمئة مدفع وسار إلى مدينة بودابست حيث كان ملك النمسا محتلاً لها فهرب ملك النمسا، وسُلِمت حامية بودابست بعد تأمينها على حياتها ثم قصد مدينة ديانه عاصمة النمسا ولكن نفاذ ذخيرة المدفعية دفعته للعودة لإقبال فصل الشتاء...

في العام التالي سار إلى مدينة ديانه لفتحها فعرض عليه ارشيدوق النمسا الصلح ووجد بمدينة بلغراد سفيراً من قبل ملك فرنسا ووقع معه معاهدة تنص على المساندة ضد شارلكان ملك إسبانيا والدعم البحري الفرنسي للأسطول العثماني. . .

وسار السلطان بعد أن انضم إليهم خمسة عشر فارساً من فوزاق القرم وفتح في طريقه عدة قلاع وحصون، ومدينة جانز وتوجه نحو استريا ومنها إلى بلغراد دون أن يحاصر ديانه ثم إلى القسطنطينية التي زينت احتفالاً بعودته.

اغتنم شارلكان الفرصة وأرسل عمارة بحرية واحتل بعض حصون بلاد المورة ومدنها. لذلك أرسل ملك النمسا سفيراً يعرض الصلح الذي انعقد في ٢٨ ذو القعدة ٩٣٩هـ الموافق ٢٢ حزيران ١٥٣٣م.

في ذلك الوقت استغل حاكم مدينة بدليس الواقعة جنوب بحيرة وان شرق الأناضول، أقول استغل انشغال السلطان فتحالف مع شاه العجم وأعلن العصيان. فأرسل السلطان قائده إبراهيم باشا إلى حلب وفي بداية ١٥٣٤ قصد مدينة تبريز وبعد معارك صغيرة دخل مدينة تبريز وبنى بها قلعة وجعل في وسطها حامية. وفي أيلول وصل السلطان إلى تبريز وعين الأمير شيروان قائداً للحامية وقبل خضوع أمير جيلان الملك مظفَّر خان، ثم سار إلى مدينة سلطانية وفتحها وعاد إلى بغداد فقضى بها أشهر الخريف وزار قبر الإمام علي بن أبي طالب وقبر الحسين الشهيد وأرسل خطابات إلى ملوك أوربا يعلمها بانتصاراته. . .

وفي عام ١٥٣٦م تم الاتفاق بين المسيو لافوري والسلطان وصدر به خط شريف تنص:

١ ـ على السلم الأكيد في جميع الممالك، والولايات، والحصون والجزائر وحق التجار الفرنسيين، والعثمانيين الاتجار في كل البلاد الواقعة تحت السيطرة العثمانية أو الفرنسية.

٢ ـ يُعيِّن ملك فرنسا قنصلاً في القسطنطينية، وله حق النظر في الدعاوى التي تقام ضد الفرنسيين.

٣ ـ عدم استخدام التجار الفرنسيين الأسلحة، أو المدافع أو الذخائر.

٤ ـ إطلاق سراح الأسرى المسترقين العثمانيين، أو الفرنسيين ولا يجوز الاعتداء على أملاك أي من رعايا الدولتين، وإعادة الأموال المصادرة من القراصنة من رعايا الدولتين.

٤ ـ يكون للبابا وملك انكلترا، وأيكوسيا الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة إذا بلغوا الدولة العثمانية بتوقيعهم عليها، وطلب اعتمادها خلال ثمانية شهور..

٥ ـ تنشر المعاهدة في كل الموانىء العثمانية وموانىء الدول الأوربية الموقعة عليها أو ستوقع عليها فيما بعد.

فتح إقليمي الجزائر وتونس:

وذلك طريق القائد خير الدين بارباروس أي ذي اللحية الصهباء.

يعود أصل خير الدين من أروام جزيرة مدللي، وكان له أخ يدعى عروج يشتغلان في خدمة السلطان الحفصي في تونس. وكان عملهما أسر مراكب المسيحيين، وأخذ كافة ما بها من بضائع وبيع ركابها رقيقاً. وذات يوم أرسلا للسلطان سليم الأول مركباً إظهاراً لخضوعهما فقبلها السلطان وأرسل لهما خلصاً وعشر سفن يستعينوا بها على غزو مراكب الفرنج.. فقويت شوكتهما واحتلا مدينة شرشال في الجزائر من إسبانيا، وأرسلا إلى السلطان سليم رسولاً يخبراه بالنصر ويؤكدان ولاءهما.

أما أخاه عروج، فقد استولى على مدينة الجزائر وتلمسان وحررها من الإسبان فقام السلطان سليم بتعيينه حاكماً على الجزائر وبذا صارت الجزائر ولاية عثمانية. استمر خير الدين في غزو سواحل إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ولكن المعاهدة بين ملك فرنسا فرنسوا والسلطان جعل نفوذه يتجه إلى السواحل الإسبانية. وساعده البحارة الأندلسيون الهاربون من الاحتلال الإسباني بعد سقوط غرناطة.

وفي عام ١٥٣٣م استدعاه السلطان، وأمره بإنشاء المراكب لفتح إقليم تونس وكان السلطان في طريقه إلى بلاد العجم فهاجم مالطة وجنوب إيطاليا ثم قصد تونس في أوائل ١٥٣٥م وكان حاكمها السلطان حسن الحفصي يهادن الإسبان ويدفع لهم الجزية فاحتل تونس، ولكن شارلكان خرج مع جيش وعمارة قوية من

برشلونة ووصل تونس وفتحها في ١٤ حزيران ١٥٣٥م وأخذ ما في قلعتها من المدافع والمراكب، ونهب المدينة وهدم المساجد وحرق الكتب النفيسة، وأعاد حسن الحفصي إلى الحكم على أن يدفع اثني عشر ألف دوكا مصاريف الحرب وانسحب خير الدين إلى الجزائر...

إن وجود النمسا وهولندة وإيطاليا وإسبانيا تحت سلطة شارلكان حول فرنسا، جعل فرنسا تعود للتحالف مع الدولة العثمانية وساهمت البندقية في إثارة العالم المسيحي على فرنسا، فقام السلطان باستدعاء خير الدين الذي جاء ومعه ألف سفينة حربية فحاصر جزيرة كورفو ولكنه أنهى الحصار واتجه إلى كريد وخلال عودته في الشتاء صادف أسطولاً مؤلفاً من مئة وسبعين سفينة يقودها أندي رويا أمير البحر لشارلكان فحاربها وانتصر عليها وذلك عام ١٥٣٨م ثم قام بحملة برية بحرية على إيطاليا. فخاف شارلكان من الهزيمة ووقع هدنة مع فرنسا مما جعل الدولة العثمانية تنسحب دون احتلال إيطاليا.

استفاد الأسبان من الهدنة لذلك حاولوا احتلال المجر فأعد السلطان حملة كبيرة دخلت مدينة بود فأرسل له ملك إسبانيا والنمسا هدايا للسلطان ودفع مائة ألف فلورين جزية عن جميع بلاد المجر... ولكنه استغل الحرب في أوربا وهاجم الجزائر عام ١٥٤١م ولكن دفاع السكان رد جيوشه خائبة وقام خير الدين من الأسطول الفرنسي بمهاجمة صقلية ثم محاصرة مدينة ينس وفتحها عنوة في ٢١ جماد الأول ٩٥٠هـ الموافق لـ٢٢ آب ١٥٤٣م.

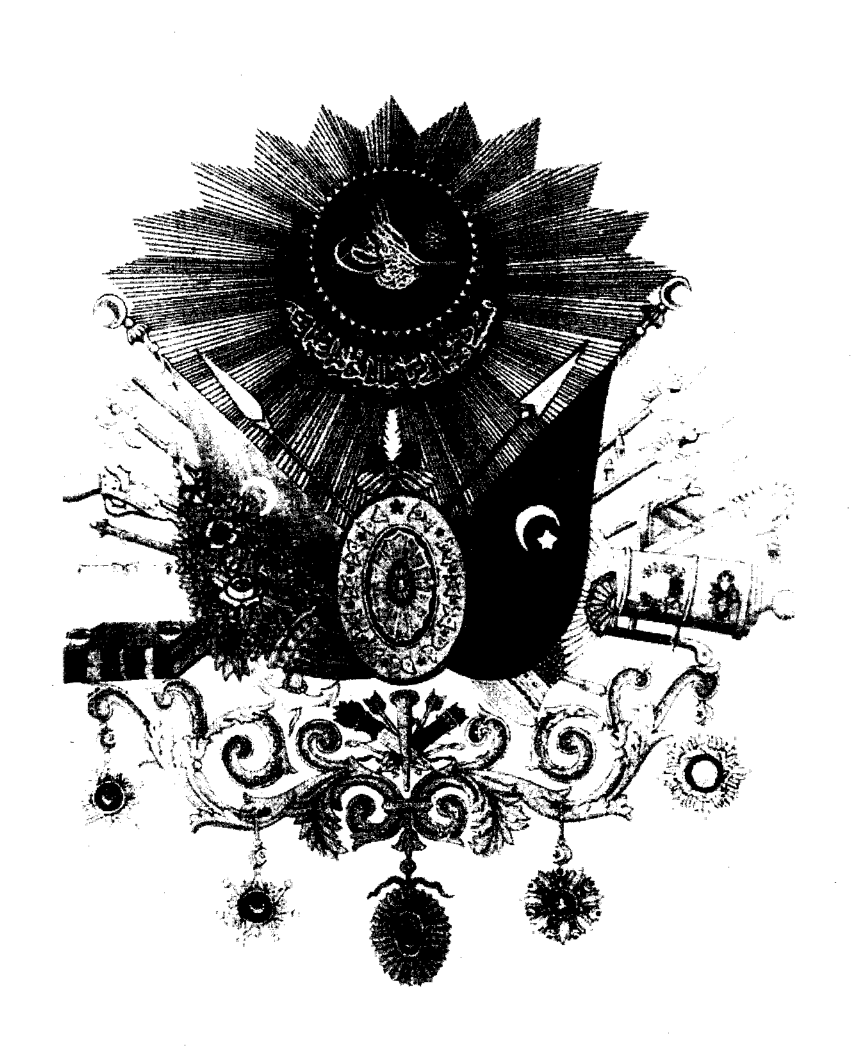
قضى خير الدين الشتاء في ميناء طولون بفرنسا وأعطى له ملك فرنسا ٨٠٠ ألف ريال فرنسي للصرف على جنوده وأسطوله وعاد في الربيع إلى القسطنطينية وتوفي عام ٩٥٣هـ ـ ١٥٤٦م ودفن في بكطاش على شاطىء البوسفور.

أما في الشرق فقد استنجد أمبراطور المغول باير، وأمير كوجارات ـ أحمد أباد اليوم ـ يطلب منه المساعدة ضد البرتغاليين الذين احتلوا أهم ثغور الهند فأرسل السلطان الأخشاب إلى سليمان باشا والي مصر لعمل عمارة بحرية (أسطول) في السويس على البحر الأحمر وفتح عدن وبلاد اليمن لكي لا تستولي عليها البرتغال وسلّح الأسطول بالمدافع الضخمة وسار بها مع عشرين ألف جندي وفتح مسقط

وحاصر هرمز. ثم سار على سواحل بحر العرب وفتح أغلب حصون البرتغال ولكنه أخفق أمام ثغر ديو الذي حاصره مدة من الزمن وعاد راجعاً مع الغنائم وفتح باقي اليمن وجعله ولاية عثمانية.

مرض السلطان بالنقرس وتوفي في ٢٠ صفر ٩٧٤هـ الموافق لـ ٥ أيلول ١٥٦٦ عن أربع وسبعين سنة وقد قضى مدة ثمان وأربعين سنة في الحروب بعد أن نظم السلطنة وقسم جيش الانكشارية إلى ثلاث فرق حسب سني الخدمة تاركاً جيشاً نظامياً عدده خمسون ألف جندي نظامي، وقوى مساندة تزيد عن ٢٥٠ ألف جندي ومدافع برية تقدر بـ ٣٠٠ مدفع وسفن حربية تقدر بـ ٣٠٠ سفينة مزودة بـ ٨٠٠ مدفع بحري.





الخليفة العثماني سليم خان الثاني



١١ـ الخليفة العثماني سليم خان الثاني بن سليمان

١٥٦٦ ـ ١٥٧٤

وصل سليم الثاني القسطنطينية في ٩ ربيع أول ٩٧٤هـ/١٥٦٦م ثم سار إلى سكدوار للاحتفال بإرجاع جثة السلطان سليمان والده، فقابله خارج المدينة سفراء فرنسا والبندقية القادمين لتهنئة والده ثم إلى صوفيا حيث أتى الوزير محمد باشا صقللي بجثمان والده، وأعلن وفاة والده بعد وفاته بخمسين يوماً. وكان يزعم أنه مريض فوزع الأعطيات على الجند. وتم بمساعي الوزير:

أولاً: معاهدة الصلح مع النمسا في شباط ١٥٦٨م ومن شروطها:

١ ـ الاعتراف بأملاك الدولة العثمانية في المجر.

٢ ـ دفع الجزية كما في السابق.

٣ ـ تبعيه ترانسلفانيا، والأفلاق، والبقدان للدولة العثمانية.

ثانياً: تجديد الهدنة مع ملك بولونيا وبموجبها:

الاعتراف بالتحالف بين ملك بولونيا وأمير الأفلاق والبقدان.

ثالثاً: تجديد التحالف مع فرنسا في عهد شارل التاسع ١٥٦٩م. كما في عهد فرانسوا الأول والسلطان سليمان.

وتجديد الامتيازات القنصلية.

وأضاف إليها رد الرقيق الفرنسي.

عدم تعدي القرصان على المراكب الفرنسية، ورد ما أخذ منها.

أن تلتزم السلطنة مساعدة المراكب الفرنسية التي ترتطم بالصخور على الشواطىء العثمانية ويحفظ ما بها من المال والمتاع.

أن تحصل فرنسا على الامتيازات الممنوحة للبنادقة.

ترشيح هنري دي فالوا أخ ملك فرنسا لعرش بولونيا وذلك ضد مصالح النمسا وروسيا. . . وبذلك صارت بولونيا تحت الحماية العثمانية.

وبموجب هذه الامتيازات أرسلت فرنسا بعثات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة وخاصة إلى بلاد الشام لتعليم أولادها على محبة فرنسا.

وفي سنة ٩٧٦هـ أرسل جيش عظيم إلى بلاد اليمن لقمع ثورة أهاليها بقيادة عثمان باشا ومساعده سنان باشا والي مصر، ففتح جميع القلاع.

في السنة التالية أرسلت المراكب الحربية العثمانية تحت إمرة بيالي باشا مع مائة ألف جندي يقودها لالا مصطفى باشا ففتحت مدينة ليماسول في أول أغسطس ووضع الحصار على مدينة فيماغوست واستمر الحصار من سنة ٩٧٦هـ إلى سنة ٩٧٩هـ وبذلك أصبحت الجزيرة تابعة للدولة العثمانية كما احتلت الدولة مدائن دلسينيو وأنتيباري على ساحل البحر الأدرياتيكي لذا تحالفت إسبانيا، والبندقية والبابوية وبنت أسطولاً كبيراً وهاجمت الأسطول العثماني في ليبانتو في أكتوبر ١٥٧١م وبعد معركة ثلاث ساعات تحطَّم الأسطول العثماني. ٣٠٠ سفينة ـ وأخذ الإسبان ١٣٠ سفينة عثمانية، وأغرقت ٩٤ سفينة وغنمت دول التحالف ٣٠٠ مدفع و٣٠ ألف أسير، وفي ذلك قال الوزير صقللي للحلفاء جملته الشهيرة: قطعنا أيديكم وحلقتم شعورنا.

أي: أخذنا كريت وقبرص وترانسلفانيا وأغرقتم مراكبنا وهي كالشعر يمكن بناء غيرها. . .

ومن المناسب أن نذكر أن دول جوان ابن امبراطور أسبانيا من عشيقته هو الذي هجّر سكان غرناطة العرب إلى الجزائر وصادر أموالهم. . .

لما وصل خبر الهزيمة إلى القسطنطينية هاج المسلمون وكادوا يقتلون المسيحيين لولا حزم الوزير صقللي، حيث عمل على بناء أسطول جديد في الشتاء حتى إذا أقبل صيف ١٥٧٢م كان قد بنى ٢٥٠ سفينة جديدة.

خافت البندقية على تجارتها فعقدت هدنة مع الدولة العثمانية مقابل غرامة قدرها ٣٠٠ ألف دوكا وتتنازل عن جزيرة قبرص.

أما إسبانيا فقد احتلت تونس سنة ١٥٧٢م بدون مقاومة لأن الجنود اشتركوا في معركة ليبانتو وأعاد الإسبان السلطان حسن الحفصي المحب لهم... ولكن الاحتلال لم يلبث إلا ثمانية أشهر عاد العثمانيون واسترجعوها ثانية بمعرفة سنان باشا الذي عاد من اليمن.

أما في بلاد البلقان فقد قام العثمانيين بالانتصار على الأمير العاصي (أبو ونيا) بعد معركة هائلة قتل فيها كثير من الأفلاق والعثمانيين وأسر (أبو ونيا) وصلب.

ومن المناسبة أن نذكر أن الأفلاق والبقدان هم الذين يفتخرون بإبداعهم التعذيب والقتل بواسطة الخازوق. وكانوا عند الثورة على العثمانيين يقومون بقتل المسلمين بواسطة الخازوق وهناك صور رسمها فنانيهم عن هذه العملية. ويجب أن نذكر أن هذه المناطق تسمى اليوم أوكرانيا ـ التي أرسلت قواتها لاحتلال العراق مع الجيش الأمريكي ـ...

توفي السلطان سليم الثاني في ٢٧ شعبان ٩٨٢هـ ١٢ أيلول ١٥٧٤م وعمره ٥٢ سنة قمرية ومدة حكمه ٨ سنين وخمسة أشهر وكان يقوم بأعمال السلطنة الوزير الصقللي من الوزراء الكبار...






الخليفة العثماني مراد الثالث



١٢ــ الخليفة العثماني مراد الثالث بن سليم الثاني
١٥٧٤ ــ ١٥٩٥

ولد في إسلامبول في ٥ جماد أول سنة ٩٥٣هـ ١٥٤٦م. .

وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بعدم شرب الخمر فثار عليه الإنكشارية واضطروه لإباحته بمقدار لا يؤدي إلى ذهول العقل وتكدير الراحة.

والأمر الثاني قتل إخوته الخمسة حتى لا ينازع على الملك.

أما الحدث الثالث فإن الأمير هنري دي فالوا ملك بولونيا ترك بولونيا وعاد إلى فرنسا فأوصى السلطان أشراف بولونيا بانتخاب باتوري أمير ترانسلفانيا ملكاً على بولونيا. . . وبذلك صارت بولونيا تحت الحماية العثمانية. . .، ووقعت هدنة لمدة ٨ سنوات مع النمسا اعتباراً من يناير ١٥٧٧م اعترفت فيها النمسا ببولونيا ضمن أقاليم الدولة العثمانية. ولما أغار التتار على بولونيا ساعدت الدولة العثمانية باتوري على صد التتار. . .

وأقام السلطان علاقات حسنة مع فرنسا، وحصلت إنكلترا على امتيازات تجارية تعادل امتيازات البندقية وفرنسا.

معركة القصر الكبير في المغرب:

وكان مكان المعركة جنوب مدينة طنجة وسبب المعركة أن البرتغال ساعدوا أحد أقرباء سلطان مراكش للثورة على السلطان فاستنجد السلطان المراكشي بالعثمانيين. فأوعزت الدولة لوالي طرابلس بإنجاد السلطان الشرعي فأسرع بجنوده والتقى الترك والبرتغال في مكان القصر الكبير وبعد معركة هائلة قتل رئيس الثائرين وهزم البرتغاليون وانسحبوا من المغرب وبذلك أصبح شمال أفريقيا تابعاً لنفوذ الدولة العثمانية.

الحرب مع العجم:

لما توفي الشاه طهاسب سنة ٩٨٤هـ مسموماً خلفه أخوه خرابنده. وبدأت الاضطرابات الداخلية في بلاد العجم، استغل الوزير الأعظم محمد باشا الصقلي الفرصة وأرسل الجيوش السلطانية بقيادة لالا مصطفى باشا فسار إلى بلاد الكرج (جورجيا الآن) وفتحها واحتل مدينة تفليس بعد أن انتصر على جنود الشاه بالقرب من جالديران في أزربيجان وعيّن أمراء الكرج نواباً للدولة....

ولما حاولت جيوش العجم بقيادة الأمير حمزة ميرزاً وهاجمت شيروان واحتلها، ولكنها لم تستطع استعادة تفليس لثبات حاميتها حتى أتى إليها المدد وفكّ الحصار عنها..

بعد ذلك قامت الدسائس بقتل الوزير محمد باشا الصقلي ومرت فترة على الدولة تميزت بالقتل لأكثر القواد والوزراء.

أما في الشرق فقام عثمان باشا حاكم أقليم شروان بفتح بلاد الداغستان على شاطيء بحر الخزر بعد معركة عظيمة انتصر فيها على العجم، وسار على طريق البر مجتازاً جبال (قاف) القوقاز... وعانى مشاق عظيمة وقطع سهول روسيا الجنوبية إلى بلاد القرم وكان سلطانها لم يرض مساعدة العثمانيين ضد العجم واستعان بفرسان القوزاق وحاصر عثمان باشا وجيوشه وكاد يقضي عليه لولا عصيان أخيه إسلام كراي. طمعاً بالإمارة عام ١٥٨٤م ورجع عثمان باشا إلى القسطنطينية وقوبل بالتكريم وعين صدراً أعظم بدلاً من سياوس المجري وذلك سنة ٩٩٢هـ الموافق ١٥٨٤م.

فسار في جيش عرمرم قاصداً أزربيجان، فاخترقها ثم قصد مدينة تبريز فدخلها بعد انتصاره على حمزة ميرزاً واستمرت الحرب مع العجم ست سنوات توفي خلالها الصدر الأعظم عثمان باشا وتم الصلح عام ١٥٨٥م على أن تتنازل الدولة الصفوية عن إقليم الكرج (جورجيا) وشيروان (على بحر الخزر) ولورستان (شرق العراق بالقرب من أصفهان واللور من البلوش العرب وكانوا ساعدوا الموالي عام ١٧٢٠م. على صد غارات شمّر على سورية...) وجزء من أزربيجان ومدينة تبريز

بعد هذه المعاهدة ساد الهدوء في الدولة العثمانية، ولكن الإنكشاريين ثاروا يريدون الحرب وتمردوا في الأستانة ومدينة بود في المجر... وفي القاهرة وتبريز.. وغيرها يريدون الحرب فقامت الحرب سجالاً في بلاد المجر وانهزم واليها لمساعدة النمسا في حربه وقتل حسن باشا والي الهرسك ولكن الصدر الأعظم سنان باشا الذي تولى الوزارة عام ١٥٩٥م سار بجيش كبير ودخل مدينة بخارست ولكن ميخائيل أمير الأفلاق الملقب بالشجاع دخل مدينة ترجو وقتل حاميتها ورئيسها لذا تقهقر العثمانيون إلى ما وراء نهر الدانوب.

في هذه الفترة مرض السلطان وتوفي عام ١٠٠٣هـ ١٥٩٥م. وكانت مدة ملكه ٢١ سنة وكان أديباً شاعراً فطناً لبيباً ميالاً لاقتناء الجواري وكانت من ضمن محظياته جارية من البندقية من عائلة (بافو) سبيت وبيعت إلى السلطان فاصطفاها له وتدخلت في أمور الحكم وساعدت بلادها البندقية... وهي والدة السلطان محمد الثالث.



الخليفة العثماني محمد الثالث

١٣ــ الخليفة العثماني محمد الثالث بن مراد الثالث
١٥٩٥ ــ ١٦٠٣

ولد عام ٩٧٢هـ الموافق ١٥٦٦م، تولى الحكم ١٦٠٣هـ/ ١٥٩٥م.

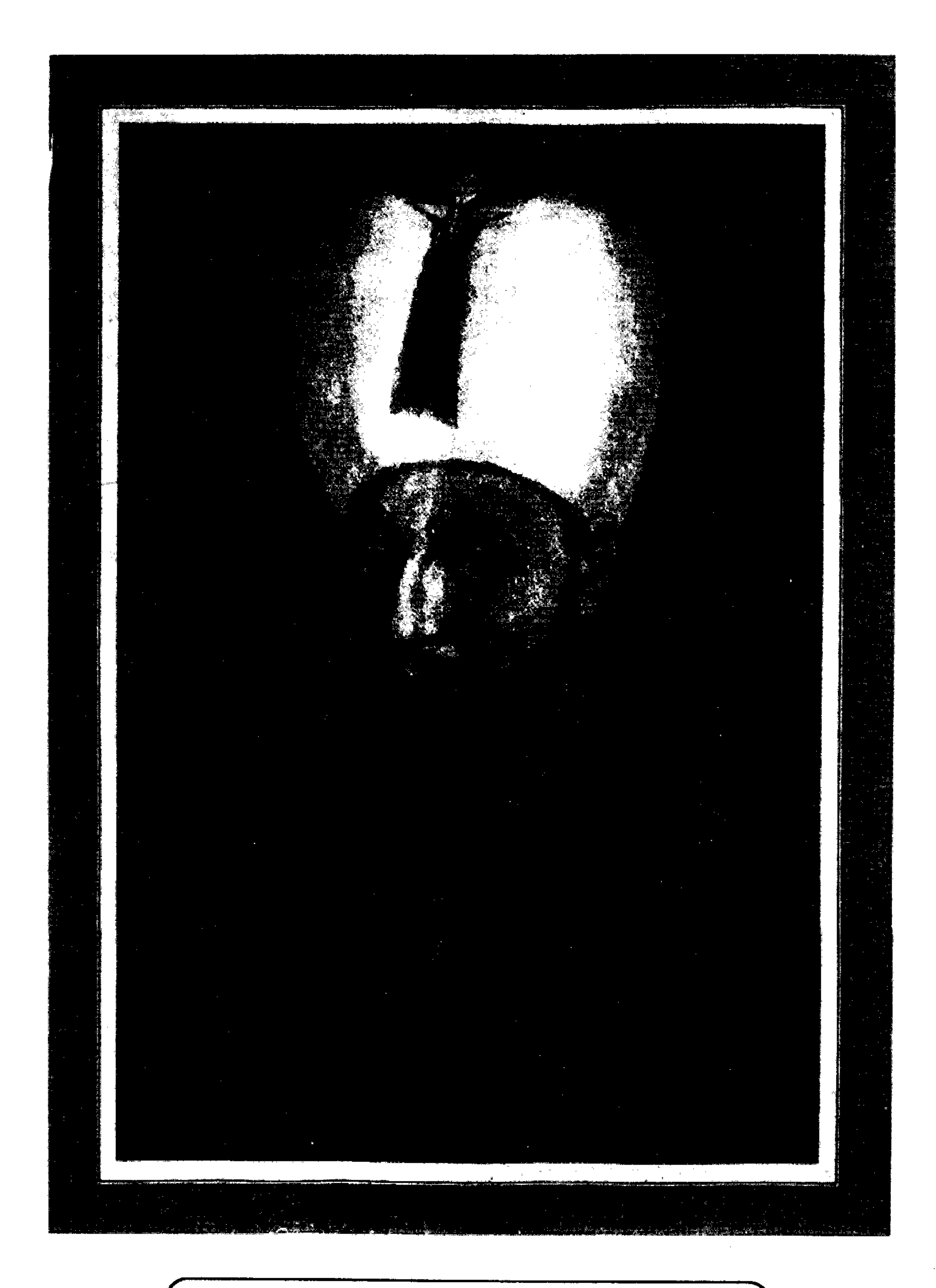
وهو ابن صفية بافوض البندقية. وتتميز سنوات حكمه بتركه قيادة الجيوش والعيش في السرايا، وترك أمور الدولة إلى وزرائه، ومنهم سنان باشا وجفالة باشا زادة الجنوي الأصل الذي قتل في محاربة العجم وحسن باشا وهؤلاء الوزراء باعوا المناصب الملكية والعسكرية وقللوا عيار العملة حتى ضج الناس وانهزمت الجيوش العثمانية في إقليم البغدان واحتلت ترانسلفانيا.

تحقق السلطان من أن سبب ذلك هو ترك قيادة الدولة والجيوش لرجال لا خبرة لهم لذلك عاد لممارسة مهماته فقاد جيشه وفتح قلعة آرلو عام ١٥٥٦م. وهزم جيوش المجر والنمسا بمعركة (كرزت) واستمرت الحرب سجالاً.

ولكن ثورة قامت في الأناضول وشارك فيها الجنود المرتزقة (باش بوزق) (علوفجي) بقيادة (قره يازيجي) تغلبت على والي القرمان وتحالف مع والي بغداد فأرسل له السلطان حسن باشا الصقلي مع جيش جرار انتصر عليه فهرب إلى سواحل البحر الأسود وعاد وانتصر على حسن صقللي وهزم ولاة ديار بكر وحلب ودمشق وحاصر مدينة كوتاهية.

قام السلطان محاولاً بالسياسة والتودد للقضاء على هذه الثورة... فأغدق عليه الهبات وعيَّنه والياً للبوسنة فأعلن إخلاصه للدولة عام ١٦٠٣م. وسافر مع جنوده واستعمل قوته لمحاربة المجر والنمسا حتى هلكت واستراحت الدولة منه.

هذه الثورة حرمت جيش الأستانة من عطاءات الأناضول.. فثارت قوات الخيالة «السباهية» ونهبت المساجد وما فيها من التحف واستعانت الدولة بالإنكشارية حتى قمعت الفتنة بعد سفك كثير من الدماء وتوفي السلطان في رجب ١٠١٢هـ الموافق لـ ١٦٠٣م وعمره ٣٧ سنة بعد أن حكم ٩ سنين.



الخليفة العثماني أحمد الأول

١٤ــ الخليفة العثماني أحمد الأول بن محمد الثالث

١٦٠٣ ــ ١٦١٧

ولد ١٢ جماد الآخر ٩٩٨هـ الموافق ١٥٩٠م، استلم الحكم ١٢ رجب ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م.

تولى الحكم وعمره ١٤ سنة. لم يأمر بقتل أخيه مصطفى كما جرت العادة لكنه تركه بين الخدم والجواري، وكانت الثورات كثيرة في الدولة مثل ثورة الكردي (جان بولاد) جنبلاط وفخر الدين المعني. وهجمات الشاه عباس الصفوي. وهجمات النمسا والمجر والأفلاق وغيرها.

ولكن العناية الإلهية جعلت له وزيراً جيداً اسمه مراد باشا الملقب (يقوبوجي)، وكان تجاوز الثمانين من عمره، حارب الثائرين وانتصر على فخر الدين المعني الذي هرب إلى إيطاليا. واستمال أحد زعماء الثورة وعيَّنه والياً على أنقرة وقتل أحمد بك الثائر في قونية وأجبر حانبولاد على تقديم الطاعة..

ثم قاد الجيش وانتصر على يوسف باشا في إقليم صاروخان. لذلك لقبه السلطان بسيف الدولة..

استغل الشاه عباس هذه الثورات وهاجم العراق واحتل بغداد، لذلك قام نصوح باشا بعد وفاة قوبوجي بمصالحة الشاه والتنازل له عن العراق والولايات الشرقية.

أما في الشرق فقد قامت النمسا باحتلال المجر وإساءة معاملة رؤسائها لإخلاصهم للدولة العثمانية، فقام أشراف المجر وطلبوا حماية الدولة العثمانية وانتخبوا يوسكاي ملكاً عليهم عام ١٦٠٥م فاعترفت به الدولة وأمدته بالجيوش لتحرير بلاده من النمسا فما كان من النمسا إلا أن اعترفت به وتنازلت له عن كافة الأقاليم المجرية الباقية تحت سيادتها شرط عودة ترانسلفانيا إلى ألمانيا، ولكن

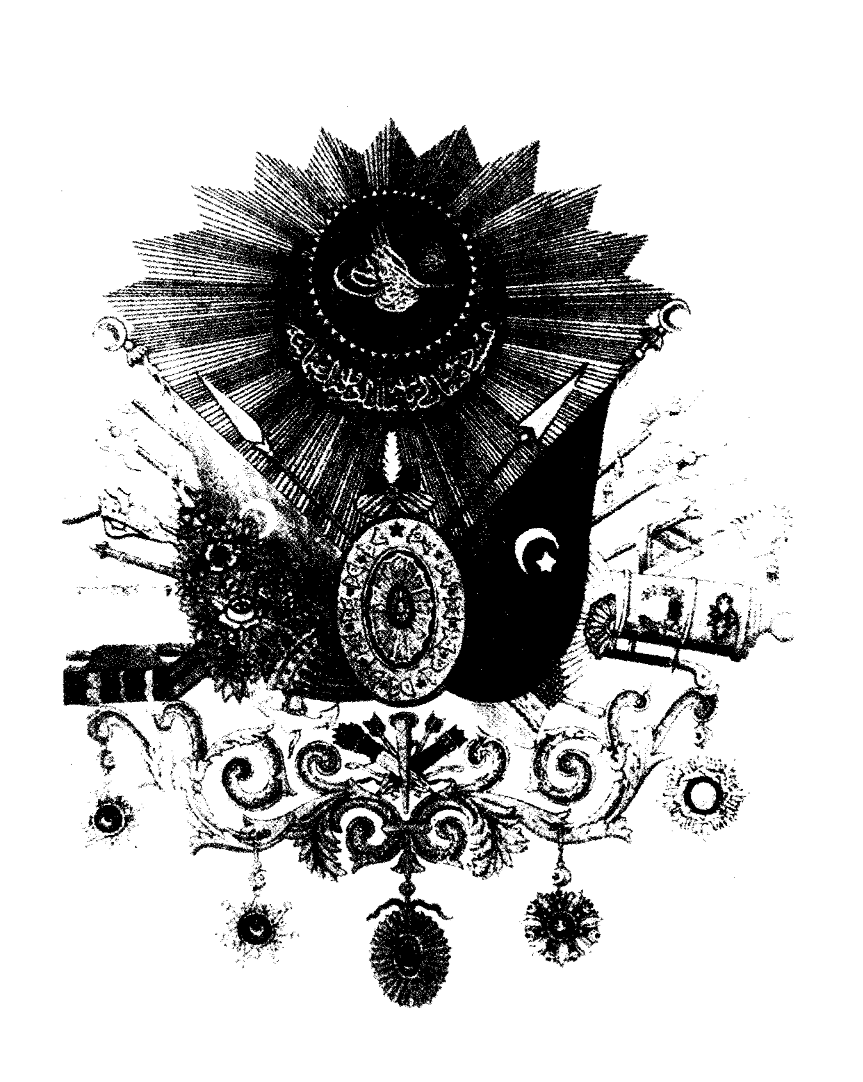
أهالي ترانسلفانيا رفضوا الانضمام إلى ألمانيا وفضلوا البقاء تحت حكم الدولة العثمانية فبعثت الدولة لهم سجسمون راجوتسكي، ثم جيرائيل باتوري، ثم بتلن جابور وتعهد هذا الأمير بمنع سكان الأفلاق والبغدان من إقتناء الأراضي في بلاده... وبذا أصبحت ترانسلفانيا حاجزاً بين المجر والأفلاق...

وفي أيام السلطان أحمد ازدادت العلاقات مع دول أوربا وجددت المعاهدة مع فرنسا وكذلك مع بولنيا وأهم ما تعهدت به بولونيا منع القوزاق من الإغارة على بلاد البغدان كما تعهدت الدولة العثمانية بمنع تتار القرم من التعدي على حدود بولونيا.

أما دولة فنلندا التي أدخلت إلى البلاد الإسلامية استعمال التبغ فمنع المفتي استعماله حتى ثار الجند واضطروه إلى إباحته...

توفي السلطان وعمره ٢٨ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة وأوصى بالملك بعده لأخيه.





الخليفة العثماني مصطفى الأول

١٥ـ الخليفة العثماني مصطفى الأول بن محمد الثالث ١٦١٧ ـ ١٦١٨ (المرة الأولى)

ولد عام ١٠٠١هـ وقضى عمره في جناح الحريم بقصر السلطان، ولما استلم الحكم في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦هـ لم يكن يعرف شيئاً عن الدولة وأمورها، وكان أكثر قادة الجيوش والوزراء من المماليك أو من الفرنج الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وكان بعضهم أداة لتنفيذ أغراض دولهم. وكان كاتم أسرار السفارة الفرنسية ساعد أحد أشراف بولونيا على الهرب من سجن الأستانة. فسجن السفير والمترجم وكاتم السر. فاغتنم أرباب الغايات، المفتي، وآغا السراي، وقواد الإنكشارية الفرصة وعزلوا السلطان في ١٠٢٧هـ ١٦١٨م وأقاموا مكانه عثمان الثاني.






الخليفة العثماني عثمان الثاني

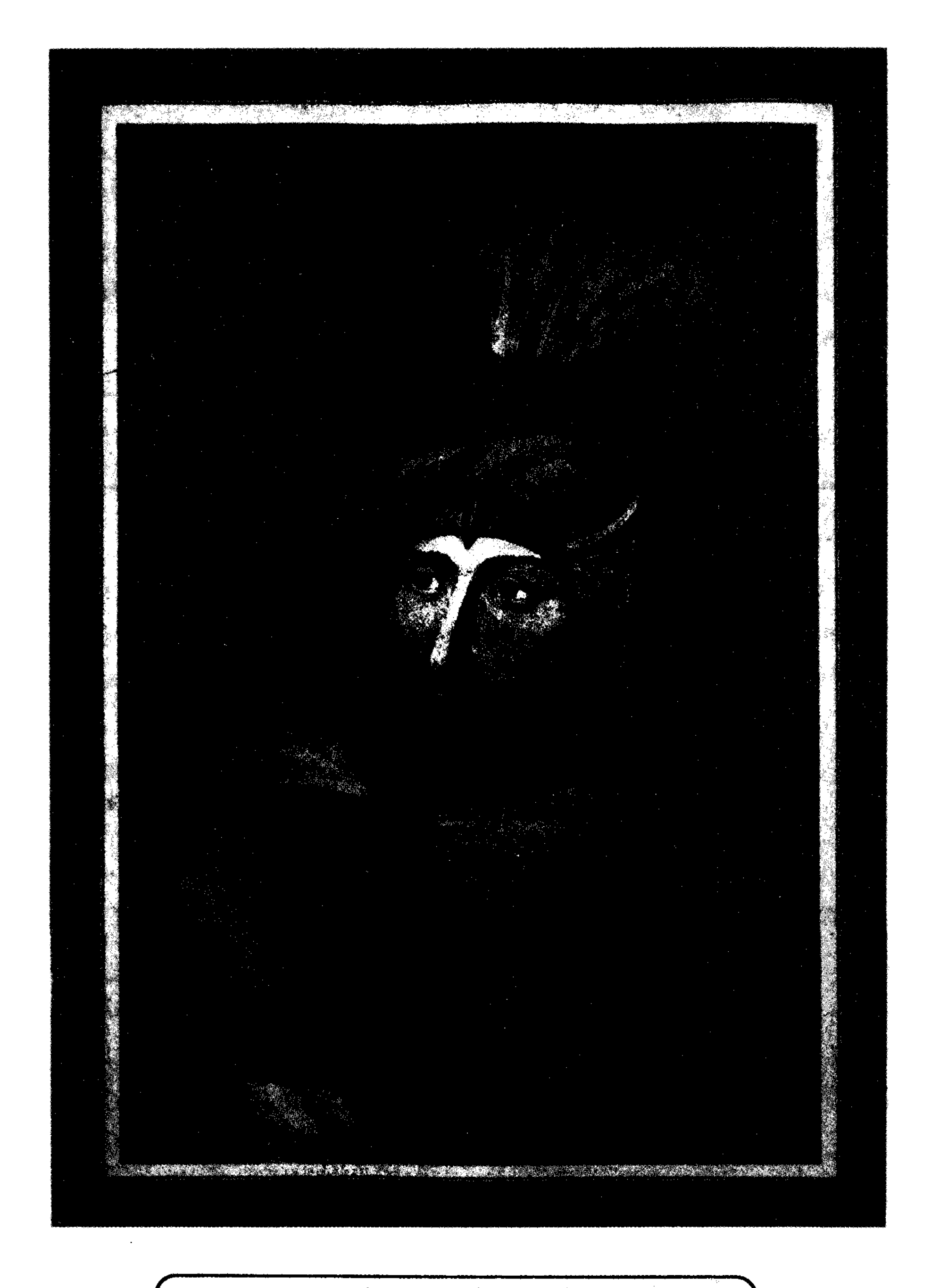
١٦ـ الخليفة العثماني عثمان الثاني بن أحمد الأول
١٦١٨ ـ ١٦٢٢

هو ابن السلطان أحمد استلم الحكم عام ١٦١٨م.

وأول أعماله إطلاق سراح قنصل فرنسا وكاتبه ومترجمه وأرسل مندوباً يعتذر لملك فرنسا لويس الثالث عشر وبذلك حل المشكلة مع فرنسا ثم أصدر أمراً بتقليل اختصاصات المفتي واقتصارها على الإفتاء وعزل بعض الموظفين. . .

وبعدها سيّر الجيوش العثمانية لمحاربة مملكة بولونيا، ولكن بعد هجمات قوية على شوك زم فشل في احتلالها وطالبت الإنكشارية في الكف عن الحرب والعودة، وطلب البولونيون الصلح لفقدهم قائدهم فتم في ٦ تشرين الثاني ١٦٢٠م.

حقد السلطان على الإنكشارية وأمر بحشد جيوش جديدة من الأناضول، لذلك تكاثف الإنكشارية وعزلوا السلطان وهاجموا السرايا وفتكوا بالحريم وأعادوا مصطفى إلى الحكم وأصبح الحكم ألعوبة في أيدي الإنكشارية ينصبون الصدر الأعظم ويعزلونه بواسطة المال والوظائف تباع جهاراً لذلك أعلن والي طرابلس العصيان وطرد الإنكشارية وكذلك والي أرضروم، وسار وفتح أنقرة ثم سار إلى بورسة وحاصرها ثلاثة أشهر ودخلها وقام الإنكشارية بالنهب والسلب والقتل ولكن لمّا تولّى الصدر الأعظم كمانكش أشار بعزل السلطان مصطفى وتولى السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م.



الخليفة العثماني مراد الرابع

١٧ــ الخليفة العثماني مراد الرابع بن أحمد الأول ١٦٢٣ ــ ١٦٤٠

ولد ٢٨ جماد الآخر ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م. وليّ الخلافة من قبل الإنكشارية الذين كثر ظلمهم للناس، وفِتَنهم وسوء أعمالهم، فانتهز الشاه عباس الفرصة ووسع أملاكه على حساب الدولة العثمانية، وكان رئيس الشرطة ببغداد بكير آغا، فثار على الوالي وقتله فأرسلت الدولة حافظ باشا لمحاربته ولكنه استعان بالشاه عباس ووعده بتسليم المدينة.

أرسل العثمانيون جيشاً احتل بغداد قبل وصول شاه العجم ولما وصل الشاه استطاع احتلال المدينة بخيانة بكير آغا ولكنه بعد الاحتلال قتله، وقد كان لهذه الأزمة أثرها في إسلامبول في تغيير الصدر الأعظم كمانكش وقتله وولي جركس باشا وبعده حافظ أحمد باشا الذي سار إلى مدينة بغداد ولم يتمكن من فتحها ولكنه عُزِلَ عام ١٠٣٤هـ ١٦٢٤م واستلم المنصب خليل باشا الذي حارب حافظ باشا ولكنه عُزِل أيضاً وعيِّن مكانه خرسو باشا الذي سار لاستعادة بغداد ولكنه عزل وقتل وعين مكانه بيرام محمد صدراً أعظم وامتنع الإنكشارية عن الحرب وعاد فخر الدين المعني إلى الشام فأمر والي دمشق بحربه فحاربه وأسره وأرسله إلى إسلامبول حيث قتل مع ابنه.

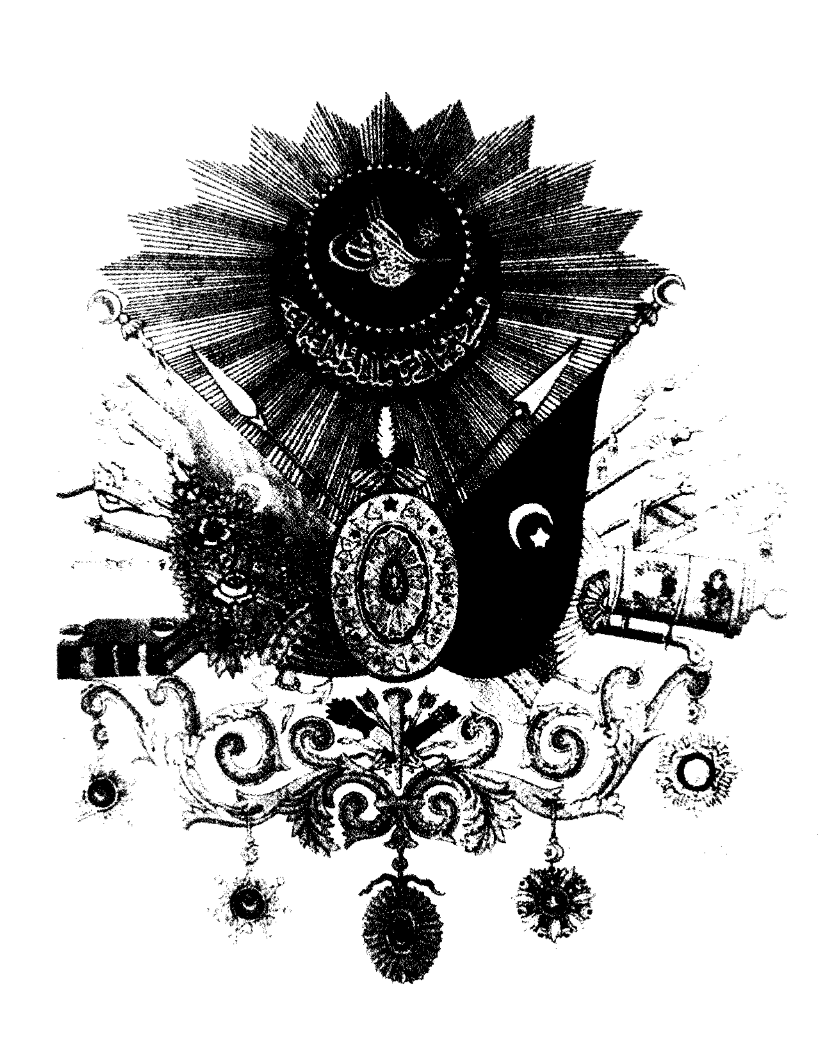
وسار السلطان بنفسه لحرب العجم وهاجمها من الشمال واحتل مدينة أريول. وأرسل إلى إسلامبول يخبرهم بالنصر وطلب قتل أخويه بايزيد وسليمان. ثم قصد تبريز وفتحها وعاد إلى الأستانة.

استغل الشاه عباس الفرصة واستعاد تبريز وأربوان وهزموا العثمانيين في معركة فاصلة في وادي مهربان عام ١٦٣٦م.

فلما وصل الخبر إلى السلطان جمع جيشاً وسار إلى بغداد وحاصرها سنة ٨ رجب ١٠٤٨هـ ثم ضرب سورها بالمدافع واحتلها بعد حرب شوارع مدة ثلاثة أيام...

فطلب شاه العجم الصلح على أن يترك مدينة بغداد ويتنازل السلطان عن مدينة أربوان وتوفي السلطان في ١٦ شوال ١٠٤٩هـ وكانت مدة حكمه ١٦ سنة و١١ شهر وتولى بعده أخوه إبراهيم.





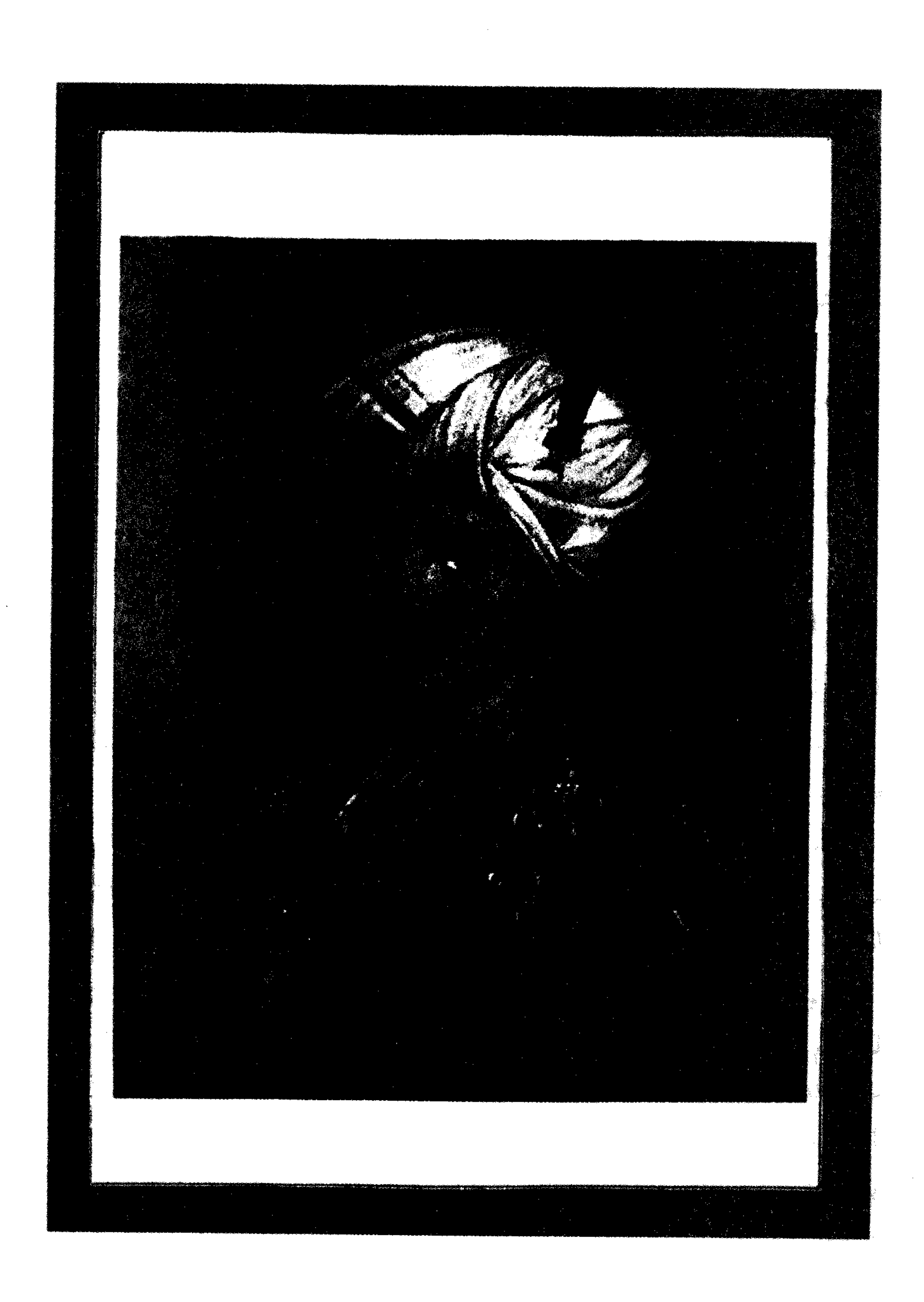
الخليفة العثماني إبراهيم الأول

١٨ـ الخليفة العثماني إبراهيم الأول بن أحمد الأول

١٦٤٠ ـ ١٦٤٨

ولد ١٢شوال ١٠٢٤هـ الموافق ٤ تشرين الثاني ١٦١٥م. استلم الحكم ١٦شوال ١٠٤٩هـ/ شباط ١٦٤٠م. وكان أول أعماله إرسال جيش من السباهية إلى القرم لمحاربة القوزاق الذين احتلوا مدينة أزوف، فحاربهم العثمانيون واستردوا المدينة ١٦٤٢م.

ثم التفت إلى محاربة البنادقة في جزيرة كريت. وسبب ذلك أن آغا الجواري (قزلار آغا) كان عنده جارية حسناء اختارها السلطان لتكون مرضعة لابنه محمد فخاف آغا الجواري عليها وقرر السفر إلى الحج فأذن له السلطان، وفي الطريق هاجم المركب فرسان مالطة وقتلوه وأخذوا الولد ظناً أنه ابن السلطان وربوا الولد على الديانة المسيحية واشتهر عند الفرنج باسم بدري أوتوماتو. بعد ذلك نزل الرهبان في كريت وأكرمهم البنادقة فاغتاظ السلطان وحبس قناصل البندقية وهولندة وانكلترا ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أقنعه وزيره أن هؤلاء الفرسان فرنسيين. لذلك أمر بتجهيز حملة بحرية لفتح جزيرة كريت وجهّز الأسطول بقيادة يوسف باشا وفتح مدينة كانية فانتقم البنادقة بحرق ثغور بتراس وكورون ومودون من بلاد موره لذا فكر السلطان بقتل المسيحيين الكاثوليك في دولته ولكن المفتي رفض ذلك وكانت حجة السلطان ما فعله المسيحيون في غرناطة بعد احتلالها وفتح أغلب الجزيرة وحاصر عاصمتها كنديا ولكن الجنود رفضوا إتمام الفتح وعصى الإنكشارية في الأستانة ولما أراد السلطان أن يفتك بهم في ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم اجتمع الجنود بمسجد (أورطه) وقرروا عزله وتولية ابنه محمد الرابع في رمضان ١٠٥١هـ الموافق لـ أول يناير ١٦٤٢م وتمت الثورة يوم ١٨ رجب ١٠٥٨هـ وبعد ذلك بعشرة أيام طلب الخيالة إعادة السلطان فساروا إلى السراي وقتلوه خنقاً.



الخليفة العثماني محمد الرابع

١٩ـ الخليفة العثماني محمد الرابع بن إبراهيم الأول ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧

استلم الحكم ١٨ رجب ١٠٥٨هـ الموافق لـ ٨ آب ١٦٤٨م. وكان عمره ثمان سنوات ضمن سيطرة الإنكشارية ونهبهم البلاد والعباد. وانتقل الفساد إلى الأسطول البحري المحاصر في كنديا في كريت فاضطر الأسطول للعودة للمشاركة في النهب والسلب.

وثار في آسيا الصغرى رجل اسمه قاطرجي وانضم إليه كورجي يني وهزما أحمد باشا والي الأناضول وسارا إلى إسلامبول ولكنهما اختلفا وافترقا وهزم الجند كورجي وأرسل رأسه إلى السلطان وتمكن قاطرجي من الحصول على العفو، وعين والياً على القرمان وتوالت الثورات طوراً من الإنكشارية وطوراً من السباهية.

وفي نفس الوقت قام أسطول البندقية بتحطيم الأسطول العثماني عند مدخل الدردنيل، واحتلت جزيرة لمتوس، وتنيدوس عند مدخل مضيق الدردنيل، ومنعت المراكب الحاملة للقمح والمأكولات من الوصول إلى إسلامبول. حيث ساءت حال الدولة والإنكشارية لا يحاربون والأسطول تحطم ولكن الوزير المصلح محمد باشا كوبرلي عامل الإنكشارية بقسوة وقتل كثير منهم وألزمهم السكينة وشنق بطريرك الأروام لثبوت تعاونه مع البنادقة واشتراكه في الدسائس والفتن الداخلية.

ثم بنى أسطولاً في البحر الأسود وأرسله لمحاربة البنادقة وساعده موت قائد أسطول البندقية (موشنجو) وانتصر على أسطول البندقية واسترد الجزر والثغور.

في هذه الأثناء جاءت وفود ملك السويد غوستاف يطلب معاهدة دفاعية هجومية ضد بولونيا. فامتنعت عن قبول هذا الوفاق ولكن أمير ترانسلفانيا اتحد مع السويد على قتال بولونيا.

ولما علمت الدولة العثمانية أن أمير ترانسلفانيا اتحد مع السويد على قتال بولونيا واتحد مع أمير الأفلاق والبغدان (رومانيا) عزلته، وعينت ميهن الرومي ولكن الدولة العثمانية لم تتمكن من التنفيذ واستطاع أمير الأفلاق هزيمة الدولة بالقرب من ليبالي في المجر فسار الوزير كوبرلي لقمعه وضم جنوده إلى جهود ميهن وتمكن من قهر هذا العاصي وطرده وعين اشانيوس بركسي على ترانسلفانيا بشرط أن يدفع خراجاً قدره أربعين ألف دوكا.

ولكن ميهن أظهر العصيان بعد عودة كوبرلي ونظم قتل المسلمين في ترانسلفانيا على الخازوق بمهرجانات مصورة، واستدعى الأمير القديم ووعده بإرجاعه إلى ولايته وأرسل إلى أمير الأفلاق والبغدان لمساعدته ولما رفض سار إليه وانتصروا عليه في مدينة ياسي.

رجع كوبرلي على جناح السرعة وعزل ميهن وانتصر على الحلفاء وعين غيكا على البغدان، والأفلاق. وفي السنة التالية قام أمير بود، وهي الجزء الجنوبي من بودابست باحتلال جروس وارد بن فاعتبرت النمسا ذلك إعلاناً للحرب. وكان الحلف الفرنسي العثماني قد ضعف للمشاكل الداخلية في فرنسا التي كانت تعمل لإضعاف النمسا. وزاد في الأمر أن فرنسا أمدت البندقية بالسلاح والمال خلال حرب كريت حيث أرسلت أربعة آلاف جندي وقد وقف كوبرلي أمام كل هذه المؤامرات وهو مريض ولمّا حضرته الوفاة أشار على السلطان بتعين ابنه أحمد عام ١٠٧٢م.

كان أحمد يسير على طريقة أبيه فلم يسمح لأحد من الجنود بأي أمر مخل بالنظام مهما كان يسيراً ومحاربة أعداء الدولة حتى يزيل من أفكار الدول تضعضع الدولة العثمانية. ولما عرض عليه الصلح مع النمسا والبندقية لم يقبل وقاد الجيوش وعبر نهر الدانوب وحاصر قلعة نوهزل عام ١٠٧٤م. ومع أنها أمنع حصون أوربا، فإنه فتحها بعد أمّن حاميتها وانتشر الجيش العثماني في سيليزيا وموارافيا حتى خيِّل إليه أن السلطان سليمان قد عاد من جديد، تدخل بابا روما وطلب من فرنسا مساعدة النمسا فأرسلت ستة آلاف جندي فرنسي بقيادة الكونت دوكوليني، ولكن الجيش العثماني قاوم واحتل مدينة سرنوار على نهر راب. وحاول العثمانيون عبور

النهر قصدهم الفرنسيون ثم عبروا النهر في محاولة أخرى وانتصروا على الجيش النمسوي ولكن الإنكشارية لم يستثمروا النصر لأن الجيش النمسوي كان أكثر عدد بفارق كبير وبعد عشرة أيام من المناوشات توصل المتحاربون للصلح وأبرمت معاهدة بين الدولتين تنص:

١ ـ إخلاء الجيش لأقليم ترانسلفانيا وتعين أبافي حاكماً تحت سيادة الدولة العثمانية.

٢ ـ أن يكون للباب العالي أربعة ولايات وللنمسا ثلاثة مع بقاء حصني نوفيجراد ونوهزل تابعة للدولة العلية.

أما فرنسا فإنها أرسلت أسطولها لتحطيم السفن الإسلامية واحتلال الجزائر وتونس فحرمها الصدر الأعظم من مرور بضائعها في مصر وسورية وألغى امتيازاتها. واستمرت الدولة بمحاربة القوات الفرنسية في جزيرة كريت حتى أتمت فتحها وتنازلت البندقية عن كريت ما عدا ثلاث قرى وهي (قرى بوزا) (وسودا) (وسبينا لونجا) وصدقت البندقية عليها.

ولذلك أرسلت فرنسا عمارة بحرية مع سفير يدعى ماركي دي نواتيل ولكن ذلك لم يرهب الدولة العثمانية وقالت إن المعاهدات السابقة لم تكن إلا منحاً سلطانية. ولما أراد الملك إعلان الحرب لم يوافقه وزيره كولبر وفضل الأساليب السياسية التي أدت إلى تجديد المعاهدة.. وعادت العلاقات إلى صفائها بين فرنسا والدولة العثمانية وانسحبت فرنسا من سواحل الجزائر وتونس...

أما في الشمال فقد خضع جميع الفوزاق إلى الدولة العثمانية وهم من سكان جنوب إمارة موسكو.

ولكن بولونيا استولت على ولاية أوكرانيا فاستنجد حاكمها بالعثمانيين فأنجده السلطان وسار بجيش جرار ووصل إلى حصن رامتيك واحتله عنوة بعد محاصرة لمدة عشرة أيام واحتل مدينة لمبرج فطلب أميرهم الصلح على أن يترك أقليم أوكرين للقوزاق وولاية بودوليا للعثمانيين ودفع جزية سنوية تقدر بمائتين وعشرين ألف بندقي ذهباً فقبل السلطان الشروط ووقَّع الصلح.

لم يقبل البولونيون هذا الاتفاق وأصروا على استمرار القتال وأرسل ملك بولونيا قائده سوبيسكي مع جيش جرار لمحاربة العثمانيين فاسترد مدينة لمبرج واستمرت الحرب عدة سنوات من ١٦٧٣م وحتى ١٦٧٦م، وفيها جدد سوبيسكي طلب الصلح بعد أن فقد معظم جيوشه. وكان هذا الصلح خاتمة أعمال كوبرلي الابن الذي توفي بعدها...

تقلَّد منصب الصدارة زوج أخت كوبرلي قره مصطفى، وصار يبيع الولايات والمناصب والمعاهدات والامتيازات المجحفة بالدولة، وكدَّر خواطر القوزاق وأبعدهم عن الدولة وهم خيرة المحاربين المسلمين جنوب روسيا، وعصى خان أقليم أوكرانيا عام ١٦٧٧م. واستنجد بروسيا فأمدته بالرجال وحارب الدولة العثمانية حتى عام ١٦٨١م. حيث تم توقيع معاهدة (رادزين) ـ وهي بلدة تقع جنوب واسو ـ وتنص المعاهدة على بقاء الحالة كما كانت عليه قبل الحرب.

وفي هذه السنة سار قره مصطفى إلى بلاد المجر لمحاربة النمسا التي كانت تقتل المسيحيين الذين يعتنقون البروتستانية دون ترك الحرية الدينية في المجتمع وحاصر عاصمة النمسا عام ١٦٨٣م. واستولى على كافة قلاعها وهدم أسوارها ولكن ملك بولونيا أتى لنجدتها وهاجم العثمانيين، فاضطر قره مصطفى للتراجع، وكان سوبيسكي يلاحقه ولما وصل خبر هذا الخذلان إلى السلطان أرسل أحد رجال حاشيته وقتل قره مصطفى وعين مكانه إبراهيم باشا وذلك عام ١٠٩٥هـ.

هنا تحالفت النمسا وبولونيا والبندقية وألبانيا ورهبنة مالطة ومملكة روسيا وسمي هذا التحالف بالمقدس وكان هدفه محو الدولة العثمانية المسلمة.

وبقيت الدولة العثمانية بمفردها أمام جميع الدول المسيحية وارتبكت العلاقات مع فرنسا بسبب المناوشات بين الأساطيل المغربية والفرنسية حتى أن الأميرال دوكين الفرنسي دمر مدينة ساقز في بحر إيجة بواسطة مدافع أسطوله، ثم عاد وهاجم الجزائر وأطلق مدافعه على المدينة ولم يتوقف حتى دفع أهلها مليونين ومائتي ألف قرش غرامة حربية... وإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين ثم عاد إلى ميناء طرابلس في ليبيا وفعل نفس الشيء. وهددت جيوش سوبيسكي بلاد الأفلاق

والبغداد وسفن البنادقة تهدد سواحل اليونان والنمسا تهاجم المجر. . لذلك عزل السلطان الصدر إبراهيم باشا وتعيِّين سليمان باشا.

كان أول أعمال سليمان باشا نجدة مدينة بود، وكان الدوق دولورين يحاصرها بتسعين ألف جندي ولكن مساعدته لم تجد شيئاً فقد سقطت المدينة وقتل حاكمها عبدي باشا وأربعة آلاف من جنوده.

وفي السنة التالية جمع سليمان باشا تسعين ألف جندي وهاجم جيوش التحالف ولكن الدائرة دارت عليه وانهزم وأخذ العدو جميع ما معه من السلاح والذخيرة والمدافع. . وثار السكان وساعد الجيش في الثورة لذلك قرر العلماء عزل السلطان محمد الرابع في ٢ محرم ١٠٩٩هـ بعد أن حكم أربعين سنة وخمسة أشهر وتولية أخاه سليمان وذلك في ٨ ربيع الآخر ١١٠٤هـ الموافق لـ ١٧ أيلول ١٦٩٢م.






الخليفة العثماني سليمان الثاني

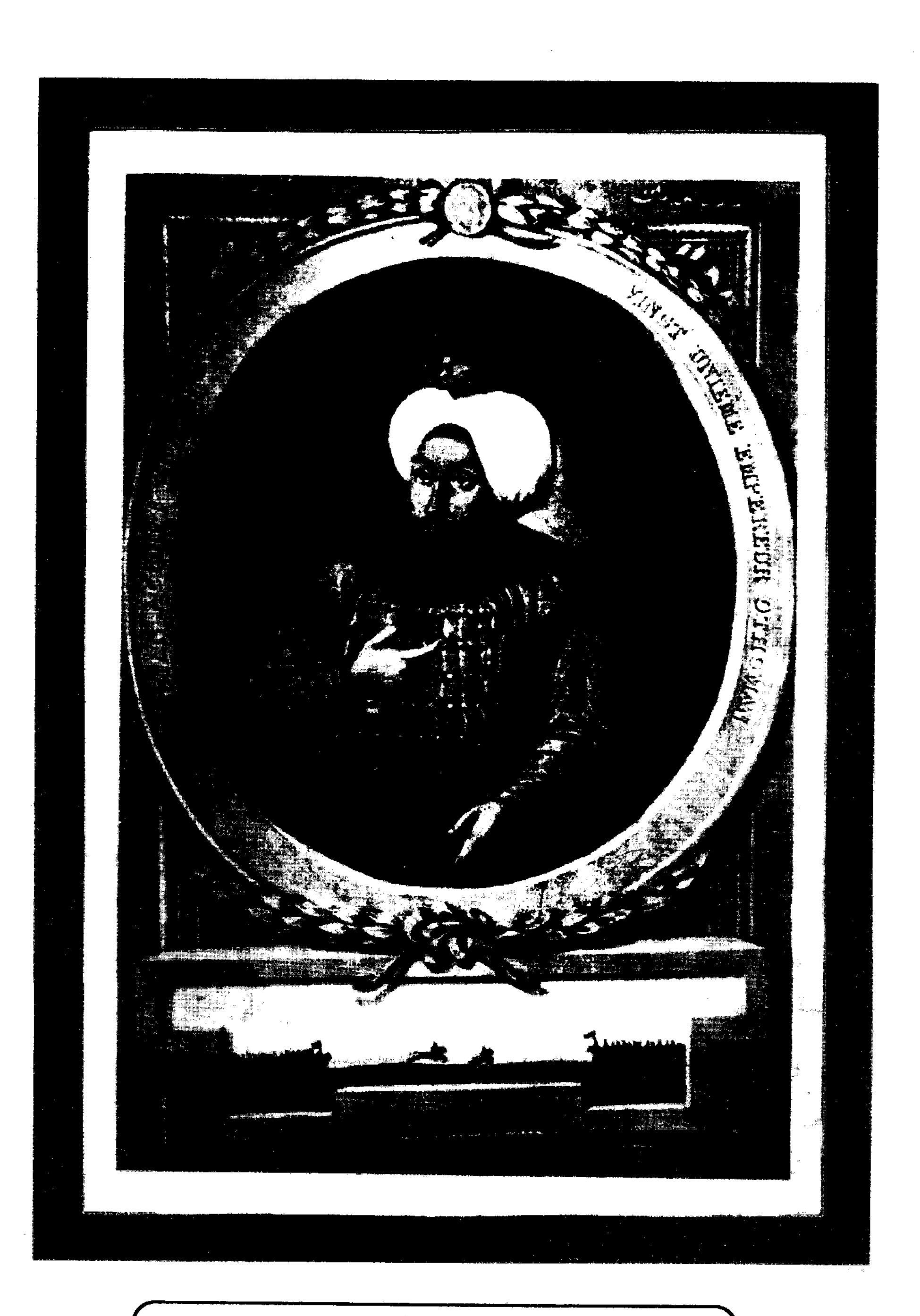
٢٠ـ الخليفة العثماني سليمان الثاني بن إبراهيم الأول
١٦٨٧ ـ ١٦٩١

ولد في محرم سنة ١٠٥٢هـ واستلم الحكم سنة ١٠٩٩هـ. وأغدق الأعطيات على الجند الثائرين ولم يعاقبهم على عصيانهم ولكن الجنود تمردوا ثانية وقتلوا الصدر الأعظم وسبو زوجاته وجواريه. فاغتنم النمساويون هذه الفرصة واحتلوا آرلودلبا واحتل موروزيني البندقي مدينة لبية من اليونان وسواحل دلماسيا وفي السنة التالية سقطت مدن سمندرية وقلومباز وبلغراد وكذلك مدائن نيش ودين. ولما رأى السلطان هذه المصائب عزل الصدر الأعظم وعيَّن مكانه مصطفى باشا كويرلي بن محمد باشا. فقام ببث روح النظام في الجند باللين والشدة أحياناً، وصرف لهم رواتبهم ومنعهم من التعدي على الأهالي وأباح للمسيحيين إعادة بناء كنائسهم وعاقب من تعرض لهم. وكانت النتيجة ثورة سكان مورة الأروام على البنادقة وطردهم من مورة ولمّا تم إعداد الجيش سار بنفسه لمحاربة الأعداء فاسترد مدائن نيش، وسمندرة، وبلغراد سنة ١٦٩٠م. وبذلك أعاد مصطفى باشا كويرلي بعض ما فقدته الدولة بسبب تمرّد الجيش وضعف الوزراء.

وحارب المتغلبين على الدولة بهمة عالية. فاسترد من الونديك جزيرة مورَا وما حولها. ومن اوستريا وألمانيا بلاد الصرب ومن روسيا وبلونيا بلاد تران، وجميع ضائعات الدولة.

ثم في سنة ١١٠٢هـ أعاد الأمن لمصر وقبرص. وأدب بعض عصاة العساكر. ثم قوى حدود هرسك وبلاد الأرانطة وملأها بالعساكر لقطع طمع الونديك من تلك الجهات. واستمر على تجديد الأعمال الصالحة حتى اندهشت الدول من سطوته وعلو همته.

وفي نفس السنة توفي الخليفة سليمان الثاني، ولم يكن له ذرية ودفن في أدرنة.



الخليفة العثماني أحمد الثاني



٢١ـ الخليفة العثماني أحمد الثاني بن إبراهيم الأول
١٦٩٤ ـ ١٦٩١



وكانت مبايعته في أدرنة. وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا الهمام في حرب مستمر مع دول الشمال، خصوصاً ألمانيا واستريا، حتى حصلت واقعة هائلة بعد جلوس السلطان أحمد المذكور بلغ فيها عساكر الدولة خيمة الإمبراطور. لكن بمهارة سر عسكر الأعداد حصلت مقاومة عنيفة وقع الصدر الأعظم مصطفى كويريللي شهيداً، رحمه الله رحمة واسعة، وعين بعده خليل باشا السردار، وقد مات بهذه الواقعة نحو نصف الجيش من الطرفين، وبموت الصدر الأعظم انهزم جيش الدولة، فحاصر الأعداء قلعة واردين. وحاصر عساكر بلونيا قلعة قامنجة.

سنة ١١٠٣هـ. ذهب جيش ألمانيا وأوستريا إلى الصرب. فقاومهم العثمانيون. وبعد طلب سفراء بخارى وإيران والإمبراطور الصلح، لم يقبل السلطان ذلك واستمرت الحرب.

وفي عهده حصلت فتنة في مكة المكرمة، بين الأشراف والسادات من جهة ومن جهة المزاحمة في إمارة مكة، فعزل الصدر الأعظم، وعين بدله الحاج علي باشا، وفي سنة ١١٠٤هـ قام الصدر الأعظم المعين من أدرنة، وقبل وصوله للجيش استولى الأعداء المتفقون على قلعة يانوة، وشرعة في محاصرة بلغراد. وفي سنة ١١٠٦هـ كلفت الدولة والي الشام بإيجاد الأمن بالحجاز بعد أن استفحل ظلم سعد بن سعيد أمير مكة من سلب ونهب لأموال الحجاج وقتلهم. وفي هذا العام جاء السفراء من انكلترا وهولندة لينصحوا الدولة بترك الحرب بدون استرداد شيء مما استولى عليه الأعداء من الدولة. فرفض السلطان ذلك وفي نفس العام توفي الخليفة أحمد الثاني في أدرنة. وشيعت جنازته إلى الأستانة ودفن بجوار جامع السليماني بجوار مدفن أبيه إبراهيم الأول.



الخليفة العثماني مصطفى الثاني



٢٢ــ الخليفة العثماني مصطفى الثاني بن محمد الرابع ١٦٩٥ ــ ١٧٠٣



استلم الحكم في ٢٣ جمادى الآخر ١١٠٦هـ الموافق لـ شباط ١٦٩٥م. وهو ابن محمد الرابع، وكان يتصف بالشجاعة وثبات الجأش وأعلن رغبته في قيادة الجيوش فسار إلى بلاد بولونيا ومع الفرسان القوزاق وحارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة أزوف التي حاصرها بطرس الأكبر عام ١٦٩٥م ثم أغار على بلاد المجر وفتح حصن لبا عنوة وهزم الجنرال فتراني في موقعة لوجوس (غرب رومانيا وقتل من عساكره ستة آلاف جندي وأخذ لوجوس أسيراً وفي السنة التالية انتصر على جيش ساكسونيا في موقعة أولاش).

ولكنه هزم أمام القائد النمسوي الذي هاجمه أثناء عبور نهر نيس وقتل عدداً كبيراً من الجنود في أيلول ١٦٩٧م، وقتل الصدر الأعظم ودخل بلاد البوسنة.

أما السلطان فانسحب إلى بلاد المجر بما تبقى من قواته. وعيَّن عموجة كوبرلي صدراً أعظم.

استقل بطرس الأكبر هذه الهزيمة واحتل مدينة أزوف.

قام الصدر كوبرلي باشا بإيقاف القائد النمسوي أوجين وألزمه التقهقر وإخلاء بلاد البوسنة واسترد الأميرال مزومورتو جزيرة ساقز بعد أن انتصر على أسطول البندقية. وهنا تدخل لويس الرابع عشر ملك فرنسا وبعد مفاوضات عسيرة وقعت معاهدة (كارلوفيتس) في ٢٤ رجب ١١١٠هـ الموافق ١٦٩٩م.

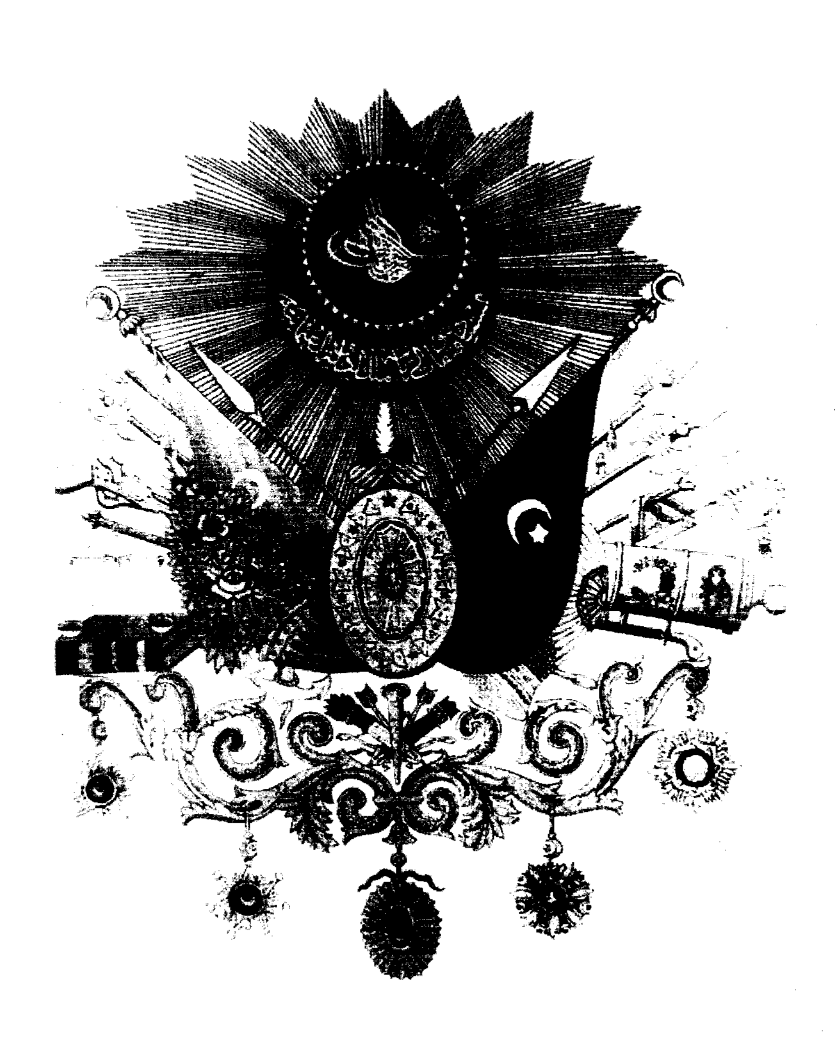
وتنازلت الدولة عن بلاد المجر بأجمعها، وأقليم ترانسلفانيا للنمسا وتنازلت عن مدينة آزوف لروسيا.

وردَّت لمملكة بولونيا مدينة كامبيك، وأقليم بودوليا وأوكرانيا وتنازلت للبندقية عن أقليم دلماسيا على البحر الأدرياتيكي ومدينة بحيثا في جزيرة المورة.

واتفقت مع النمسا على هدنة مدتها ٢٥ سنة دون أن تدفع أي جزية أو هدية وبذا بدأت المسألة الشرقية وهدفها تقسيم الدولة العثمانية.

وبعد هذه الهزائم طلبوا من السلطان عزل الوزير وعيَّن رامي محمد باشا، وشرع في إبطال المفاسد فثار الإنكشارية وطلبوا من السلطان عزله فامتنع وأرسل فرقة لقمعهم ولكن الفرقة انضمت للثائرين وعزلوا السلطان في ٢ ربيع الآخر ١١١٥هـ الموافق ١٧٠٣م ومدة حكمه ٨ سنوات و٨ شهور.





الخليفة العثماني أحمد الثالث

٢٣ــ الخليفة العثماني أحمد الثالث بن محمد الرابع ١٧٠٣ ــ ١٧٣٠

ولد في ٣ رمضان ١٠٨٣هـ الموافق لـ ١٦٧٣م. هو ابن السلطان محمد الرابع تولى الحكم في ٢/٨/١٧٠٣م ووزع أموالاً طائلة على الإنكشارية، وسلم لهم المفتي لقتله ثم لمّا استقرت الأمور قتل عدداً كبيراً منهم وفي ١١١٥هـ عزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد الذي انتخبه الإنكشارية. ولكن بقيت الدسائس هي سمة البلاط العثماني.

كان السلطان أحمد معاصراً لبطرس الأكبر الذي وسع الدولة الروسية على حساب جيرانها وحارب شارل الثاني عشر ملك السويد وبعد ذلك جاء دور الدولة العثمانية وكان الوزير بلطجي محمد، فأعد جيشاً من مائتي ألف مقاتل وحاصر بطرس الأكبر. وكان لبطرس الأكبر خليلة تسمى كاترينا فائقة الجمال استمالت بلطجي باشا ففك الحصار مقابل إعطائه ما معها من الجواهر، فخان الدولة ورفع الحصار مقابل معاهدة تخلّى بموجبها عن بلدة آزوف على البحر الأسود وعدم التدخّل بشؤون القوزاق.

وبعد محمد بلطجي استلم الوزارة يوسف باشا فأمضى مع الروس هدنة مدتها ٢٥ سنة، ولكن لم تمض المدة حتى قام بطرس الأكبر بمحاولة الحرب مرة ثانية فتدخلت انكلترا وهولندة وأجبرتا روسيا على التنازل عما لها في ساحل البحر الأسود وإبطال ما كانت تدفعه لأمراء القرم بصفة جزية وفي عام ١٧١٣م. تولى علي باشا الوزارة فأعلن الحرب على البندقية لاستعادة بلاد المورة واسترد مدن في جزيرة كريت ولم يبق لها إلا جزيرة كورفو فاستنجدت البندقية بالنمسا التي انتصرت على الدولة العثمانية في موقعة بتروآردن عام ١٧١٦م وقتل الصدر الأعظم وحاصر جيش النمسا مدينة بلغراد واحتل ولاية تموار ولما حاول الصدر الأعظم الجديد

نجدتها غُلب على أمره، وبدأت اتصالات من أجل الصلح على الشروط التالية في ٢١ حزيران ١٧١٨م.

١ ـ تأخذ النمسا ولاية تموار.

٢ ـ تأخذ النمسا مدينة بلغراد وجزء من بلاد الصرب.

٣ ـ تأخذ النمسا قسم من ولاية الأفلاق.

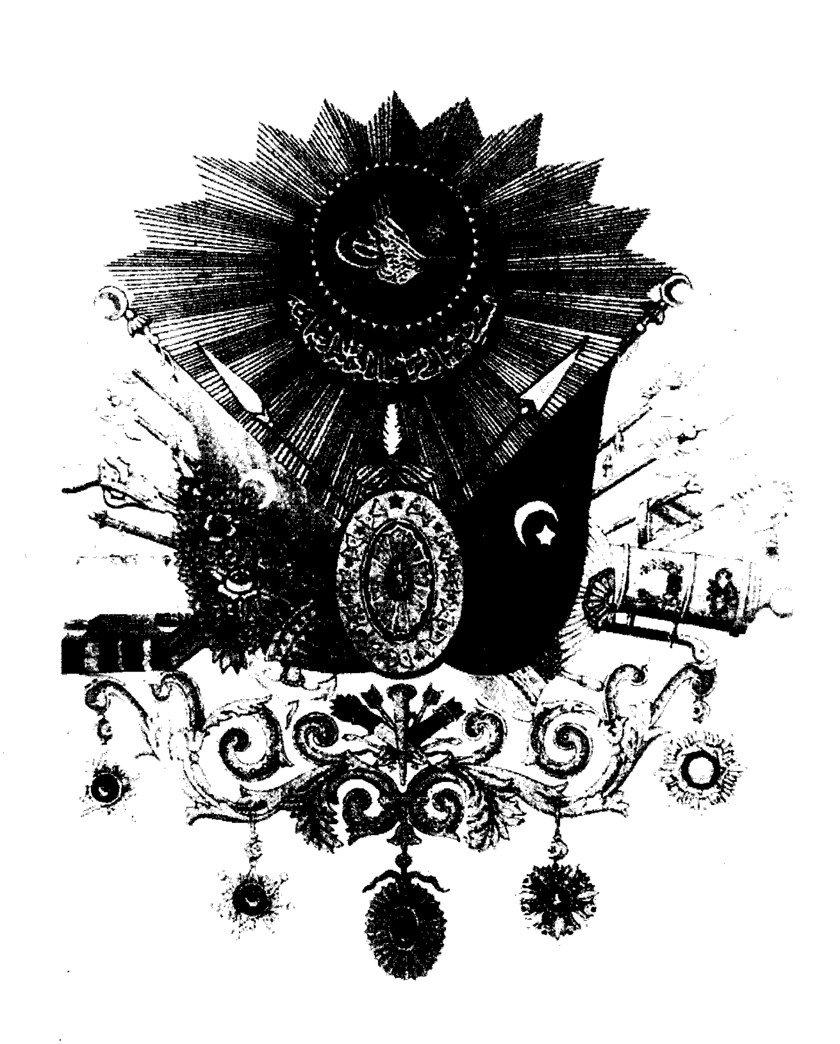
٤ ـ تحتل البندقية ساحل دلماسيا.

٥ ـ تعهد روسيا والباب العالي بمنع زيادة نفوذ ملك بولونيا على الأشراف في بلاده وعدم تمكينه من جعل منصبه وراثياً في عائلته.

بعد ذلك الخسران الكبير في أراضي الدولة العثمانية اتجه الصدر الأعظم نحو الشرق عام ١١٣٠هـ مغتنماً حصول ثلاثة انقلابات ببلاد العجم فأسرع الصدر الأعظم باحتلال أرمينيا واجتاز جبال القوقاز واحتل أقليم داغستان مع كافة سواحل بحر الخزر لذلك تدخلت روسيا لإيقاف القتال بواسطة سفير فرنسا (دوبو) على أن تبقي كل من الدولتين ما تحت يدها من البلاد.

أما الفرس فلم يقبلوا هذا التقسيم وحاولوا محاربة العثمانيين فاحتل العثمانيون همدان وأريون وتبريز. . . .

ولما مات الشاه أشرف وتولى الحكم الشاه طهاسب الذي طلب من الدولة العثمانية أن ترد إليه ما أخذته من بلاد. . ولكن الجند العثماني ثار على السلطان ورفض الحرب وقتل الصدر الأعظم والمفتي ثم قام الثوار بعزل السلطان في ٢٨ أيلول ١٧٣٠م الموافق ١١٤٣هـ.





الخليفة العثماني محمود الأول



٢٤ـ الخليفة العثماني محمود الأول بن مصطفى الثاني
١٧٣٠ ـ ١٧٥٤

هو ابن السلطان مصطفى الثاني. تولى الحكم بعد السلطان أحمد الثالث، وكان الأمر للثائر يترونا خليل الذي يتصرف بأموال الدولة ووظائفها مما أثار الإنكشارية فتآمروا عليه وقتلوه، ولم يستطع أعوانه الأخذ بالثأر فعادت السكينة إلى الدولة.

بعد ذلك قام الجنود الإنكشارية مع السلطان بمحاربة الفرس، وتغلبت الجيوش العثمانية على الشاه فطلب الصلح في رجب ١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م. على أن تترك مملكة العجم للدولة العثمانية كل ما تحتها ما عدا تبريز وأردهان، وهمدان، وباقي أقليم لورستان، ولكن القائد نادر خان سار بجيوشه إلى أصفهان وعزل الشاه طهاسب وولّى مكانه ابنه القاصر عباس وقاد جيشه وانتصر على الدولة العثمانية واحتل بغداد فأسرع الوزير طوبال الأعرج إلى محاربته ولكنه قتل، وبعد مخابرات اتفق على الصلح ونودي بنادرخان شاهاً على العجم وكان الصلح على:

١ ـ أن ترد الدولة العثمانية إلى العجم كل ما أخذته منها.

٢ ـ أن تكون الحدود كما كانت زمن السلطان مراد الرابع.

الحرب الروسية:

كانت سياسة روسيا في إضعاف الإمارة البولونية مقدمة لاحتلالها أو اقتسامها مع جيرانها.. لذلك لما انتخب الأهالي ستانسلاس ملكاً على بولونيا بعد موت أوغست الثاني أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا ولكن فرنسا أشهرت الحرب على النمسا دفاعاً عن حق البولونيين في انتخاب ملكٍ لهم..

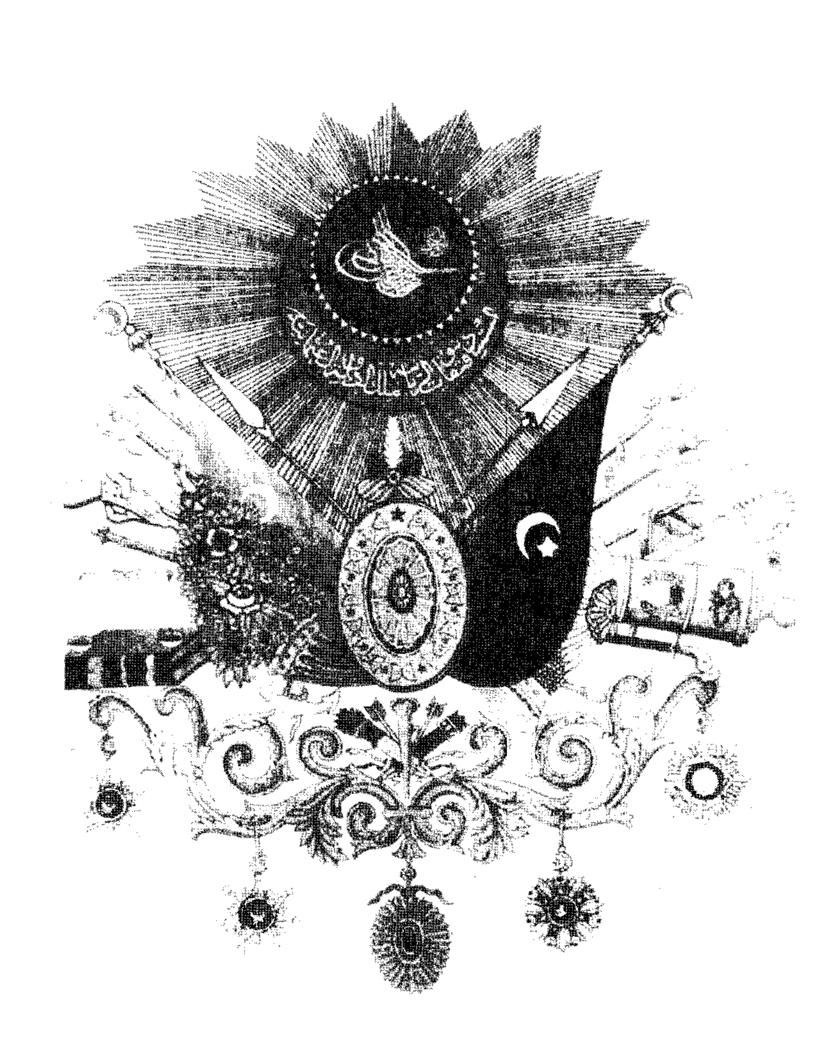
ولكن روسيا هاجمت بولونيا وتغلبت على الملك ستانسلاس ثم نقضت المعاهدة مع الدولة العثمانية وأعلنت عليها الحرب.

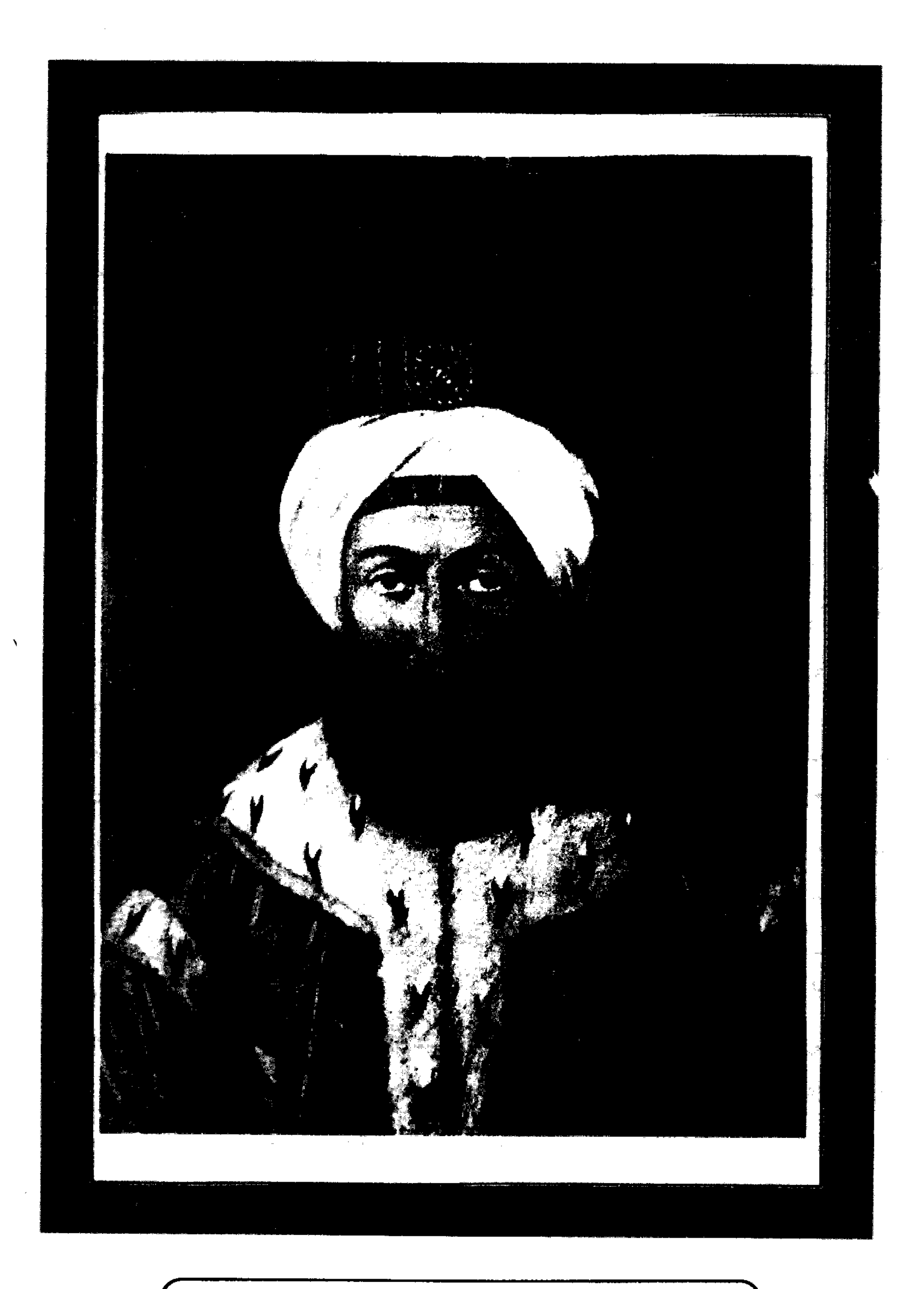
أسرعت الدولة العثمانية بالإتفاق مع نادر شاه للتفرغ لروسيا، وتسلّم الوزارة محمد باشا الذي جمع الجنود لإيقاف تقدم روسيا وكانت قد احتلت أقليم البغدان ودخلت مدينة باسي. كما انتصرت الجيوش العثمانية على دولة النمسا في بلاد البوسنة وتقهقر الجيش النمسوي إلى ما وراء نهر الدانوب عام ١٧٣٧م مما أجبر النمسا على طلب الصلح وكان الجيش العثماني قد انتصر على النمسويين في حزيران عام ١٧٣٩م مما دعا روسيا إلى الموافقة على الصلح على أن تتنازل النمسا عن مدينة بلغراد وما أعطي لها من بلاد الصرب والأفلاق بموجب معاهدة بساروفيتز وتقوم روسيا بهدم قلاع أزوف وتتعهد بعدم بناء سفن حربية في البحر الأسود وأن تكون تجارها على سفن أجنبية بعد ذلك تنبهت الدولة إلى ضرورة التحالف مع السويد ضد روسيا... فأبرمت مع السويد معاهدة دفاعية هجومية عام ١٧٤٠م.

وكذلك وسعت الامتيازات الفرنسية في الدولة العثمانية مكافأة لفرنسا على التوسط في هذا التحالف.

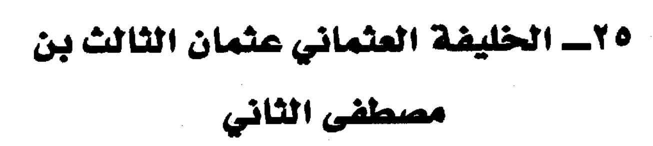
بعد هذا ساد الهدوء الدولة العثمانية حتى وفاة السلطان في ٢٧ صفر ١١٦٨هـ الموافق لـ ١٧٥٤م مأسوفاً عليه من رعايا الدولة لأنه كان سلطاناً عادلاً حكيماً....



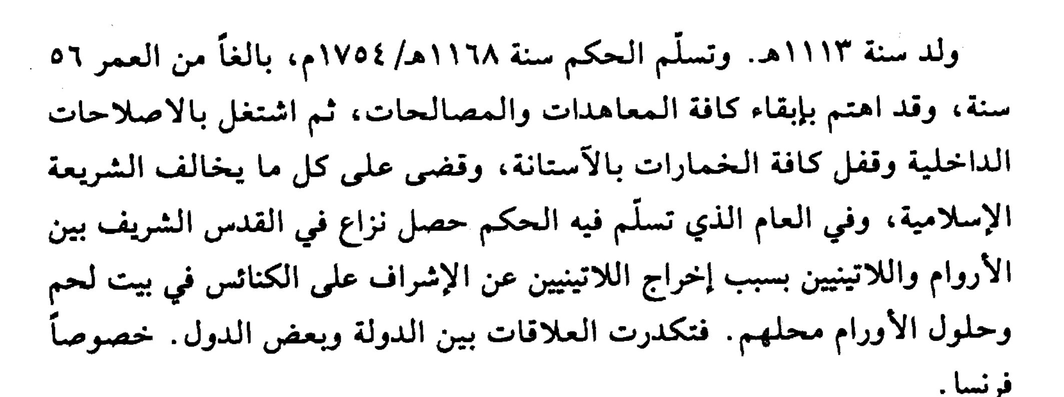


الخليفة العثماني عثمان الثالث



٢٥ــ الخليفة العثماني عثمان الثالث بن مصطفى الثاني

١٧٥٤ ــ ١٧٥٧



ولد سنة ١١١٣هـ. وتسلّم الحكم سنة ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م، بالغاً من العمر ٥٦ سنة، وقد اهتم بإبقاء كافة المعاهدات والمصالحات، ثم اشتغل بالاصلاحات الداخلية وقفل كافة الخمارات بالآستانة، وقضى على كل ما يخالف الشريعة الإسلامية، وفي العام الذي تسلّم فيه الحكم حصل نزاع في القدس الشريف بين الأروام واللاتينيين بسبب إخراج اللاتينيين عن الإشراف على الكنائس في بيت لحم وحلول الأورام محلهم. فتكدرت العلاقات بين الدولة وبعض الدول. خصوصاً فرنسا.

وفي سنة ١١٦٩هـ عيَّن علي باشا ابن الحكيم للصدارة. فغير وعزل أغلب أصحاب المناصب، ثم حصل بالاستانة حريق هائل. عزل على أثره الصدر الأعظم.

وقد تبدَّلت الصدارة ثلاث مرات في مدة وجيزة. ليرجع الصدر الأعظم المذكور إلى الصدارة ثانية. ثم حصل حريق آخر استمر ٣٦ ساعة حتى احترق الباب العالي وثلثا المدينة، فاضطر الخليفة لقتل الصدر الأعظم المذكور بعد سماع الكثير من الشكاوى ضده وعين بدله محمد سعيد أفندي.

كما استولى أمراء الأكراد في موش ويطليس وملاس وخوشاف، على قلاعها فساقت الدولة والي أرضروم، فأدبهم وانقصر عليهم.

في سنة ١١٧١هـ عصمت عربان الشام وقطعت الطريق على الحجاج. ثم أعقب ذلك وفاة والدة الخليفة، ثم عزم الخليفة على عزل راغب باشا الصدر لكن الأجل المحتوم سبقه. فرحمه الله رحمة واسعة.



الخليفة العثماني مصطفى الثالث



٢٦ــ الخليفة العثماني مصطفى الثالث بن أحمد الثالث

١٧٥٧ ــ ١٧٧٤



اول اعماله:

قام بالإصلاحات بواسطة وزيره راغب باشا فعمل:

١ ـ عهد بإدارة الأوقاف إلى أحد الأغوات بدلاً من الهيئات الدينية.

٢ ـ أسس المستشفيات والمخابر الصحية لعدم انتقال الأوبئة التي كانت كثيراً ما تصيب سكان السلطنة وتقضي على السكان كما حدث في منطقة القرى الميتة في سورية وفي دمشق وحلب وأنطاكية.

٣ ـ أنشأ مكتبة عامة للتقدم العلمي.

٤ ـ عمل على ضمان المواصلات وتعبيد الطرق لمكافحة المجاعات في الدولة بعد موت هذا الوزير نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا وذلك بسبب وفاة ملك بولونيا وسعي كاترين الثانية أمبراطورة روسيا لتعيين عشيقها ستانسلاس يونياتوسكي ملكاً على بولونيا خلافاً لما تعهدت به للدولة العثمانية.

فأوعزت الدولة العثمانية إلى كريم كراي خان القرم وأغار بخيله على إقليم سربيا الذي عمرته روسيا لمنع وصول المساعدة من خان القرم إلى بولونيا وعاد بكثير من الأسرى ولكنه توفي قبل أن تنتهي الحرب.

وقام الوزير نشانجي بجيوشه للدفاع عن مدينة (شوكزيم) فلم ينجح فقام السلطان بقتله وتعيين السر عسكر مولداني علي باشا ولكنه لم يكن متفقهاً بأمور الحرب فانهزم على شواطىء نهر دينستر بين أوكرانيا ومولدافيا، هزم وأبيد جيشه وأخذ الروس مدافعه وذخائره واحتل الروس الأفلاق والبغدان سنة ١٧٦٩م/ ١١٨٣هـ.

كما قامت المراكب الروسية من بحر البلطيق بالطواف حول أوربا ووصلت إلى بلاد المورة واستولت على مدينة كورون. ولكن العثمانيين تصدوا للأسطول الروسي بالقرب من جزيرة ساقز ودمرتها ما عدا مركبتين لحقت بالأسطول العثماني فظن العثمانيون أنها جاءت للاستسلام ولكنها فجأة رمت النيران على الأسطول العثماني وأحرقته بسبب البارود الموجود في السفن.

بعد ذلك تقدمت السفينتان للهجوم على استانبول لأن جيشها قد دمر في المعركة السابقة على شواطىء الدنيستر، ولكن السلطان تمكن من تحصين مضيق الدردنيل بالمدافع وبناء القلاع على جانبيه وحوّل عدة مراكب تجارية إلى حربية بإضافة المدافع إليها وأسس مدرسة لتخريج مهندسين ماهرين في رمي المدفعية وصناعتها ومدرسة أركان حرب لتعليم القواد الفنون العسكرية الحديثة وأخرى لتربية ضباط البحرية.

حاصر الأسطول الروسي مدينة حنوس، ولكن القبطان حسن بك مع بعض السفن هاجم سفن الروس ورفع الحصار عن المدينة. ومن جهة أخرى هزم الجيش الروسي بصمود مدينة طرابزون وهكذا عادت الثقة إلى الجيش العثماني بانتصاره براً وبحراً إلا في بلاد القرم التي احتلها الروس وأعلن انفصالها عن الدولة العثمانية تحت حماية روسيا وأقام شاهين كراي ملكاً عليها تحت رعاية كاترين أمبراطورة روسيا.

ولذلك أعلنت الهدنة في ٩ ربيع الأول ١١٨٦هـ الموافق ١٠ حزيران ١٧٧٢م بناءاً على توسط النمسا الذي وقع في مدينة فوكشان الرومانية وينص:

١ ـ مد أجل الهدنة من سنة.

٢ ـ استقلال تتار القرم.

٣ ـ حرية الملاحة لروسيا في البحر الأسود.

ولكن حرية الملاحة في البحر الأسود تشكل تهديداً مباشراً لاستانبول لذلك رفض العثمانيون التوقيع فمددت الهدنة سبعة أشهر واجتمع الجميع في بخارست ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م. وفيه طلبت روسيا:

١ ـ تنازل الدولة العثمانية عن حصن كريش في أوكرانيا.

٢ ـ حرية الملاحة الروسية في البحر الأسود وبحر أيجة.

٣ ـ تسليم ما تبقى من حصون القرم.

٤ ـ إعطاء ولاية الأفلاق إلى جريجوار وكان أسيراً في روسيا ولورثته شرط دفع جزية معينة.

٥ ـ التنازل عن مدينة فلبورن لروسيا وهدم حصون أوكزاكوف.

٦ ـ أن يحمل قيصر روسيا لقب (ملك الملوك) في المعاهدات.

٧ ـ لروسيا حق حماية الأرثوذوكس في الدولة العثمانية.

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه الشروط واستؤنفت الحرب واستطاع العثمانيون هزيمة الروس في سيلستريا وأمام مدينة روستوف وقتل من الروس ثمانية آلاف جندي فتراجع الروس، وخلال تراجعهم قتلوا سكان مدينة توبولخين ولكن الجيش العثماني لحق بهم فهربوا من مدينة توبونجي تاركين قدور اللحم على النار في البلدة.

تجاه هذه الهزيمة عملت روسيا على إثارة زعيم المماليك في مصر الذي اتفق مع قائد البحرية الروسية في المتوسط فأمده بالضباط والمدافع وبذلك استولى على مدن غزة، والقدس ونابلس، ويافا ودمشق وكان يسير الأسطول الروسي على الساحل للمساعدة ولكن قائده محمد أبو الذهب ثار عليه فعاد إلى مصر ولكن الأسطول الروسي ضرب عكا وبيروت وخرّب نحو ثلاثمئة مسكن لكن علي بك عاد إلى مصر ومعه أربعمائة جندي روسي فقابله أبو الذهب في الصالحية قرب القاهرة وانتصر عليه وأسره مع أربعة من الجنود الروس وقطع رأس علي بك وسلم إلى الوالي العثماني خليل باشا الذي أرسلهم إلى استانبول.

بعدها توفي مصطفى الثالث في ٨ ذو القعدة ١١٨٧هـ الموافق لـ ٢١ كانون الثاني ١٧٧٤م.

ومن المناسب أن نذكر أن زلزالاً شديداً أصاب جامع محمد الفاتح فتم إصلاحه.



الخليفة العثماني عبد الحميد الأول



٢٧ـ الخليفة العثماني عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث

١٧٧٤ ـ ١٧٨٩



تولى في ٩ ذو القعدة ١١٨٧هـ الموافق لـ يناير ١٧٧٤م. وكان الخليفة محجوزاً في السراية وتوجه في اليوم الثالث من توليته إلى جامع أبي أيوب الأنصاري لتقلد سيف السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة، ولكنه لم يوزع الأعطيات لنفاذ مالية الدولة بالحروب مع روسيا التي كانت تريد الانتقام لهزائمها في عهد السلطان مصطفى الثالث، فأعدت ثلاثة جيوش بقيادة رومانزوف وكرامسكي وسواروف واجتازوا نهر الدانوب وهزموا العثمانيين بالقرب من قوز ليجق. في رومانيا وقصد معسكر محسن زاد الصدر الأعظم الذي أدرك خطأه في تقسيم قواه فطلب الهدنة وإرسال مندوبين لعقد الصلح. ولكن الروس أصروا على الشروط التي رفضتها الدولة في اجتماع بوخارست وبعد مناقشات طويلة قبل محسن زادة الشروط الثمان والعشرين التي أهمها حرية الملاحة في البحر الأسود، والبحر المتوسط واستقلال تتار القرم وبسارابيا وقوبان مع حفظ سيادة الدولة العثمانية في الشؤون الدينية مقابل حماية الأرثوذوكس في الدولة العثمانية، وتسليم كافة الأقاليم التي احتلتها روسيا إلى خان القرم ما عدا قلعتي كريش ويكمي قلعة.

رد ما أخذ من أملاك الدولة بالأفلاق والبغدان والكرج ومنكربل وجزائر بحر الروم ما عدا قبرطه الصغيرة والكبيرة شرق البحر الأسود وآزوف وقلبرون.

وأضيف بنداً سرياً أن تدفع الدولة العثمانية خمسة عشر ألف كيس بصفة غرامة حربية على ثلاثة أقساط متساوية.

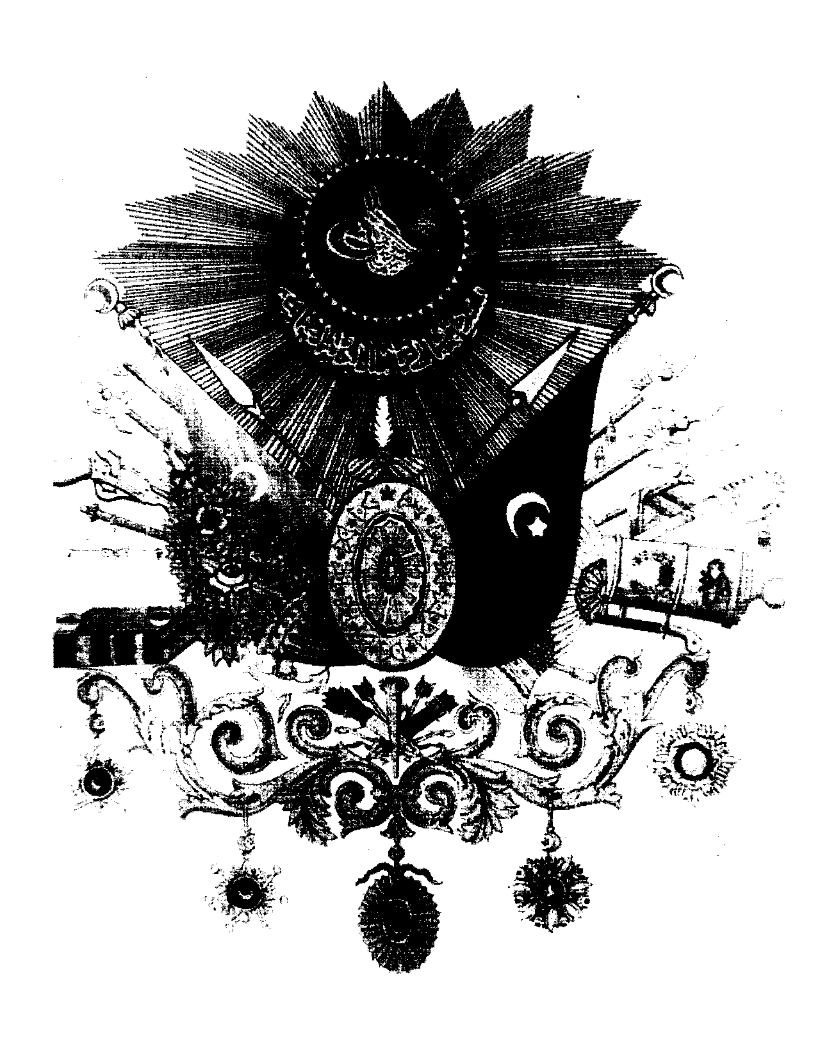
ولكن روسيا لم تطبق المعاهدة واحتلت بلاد القرم.

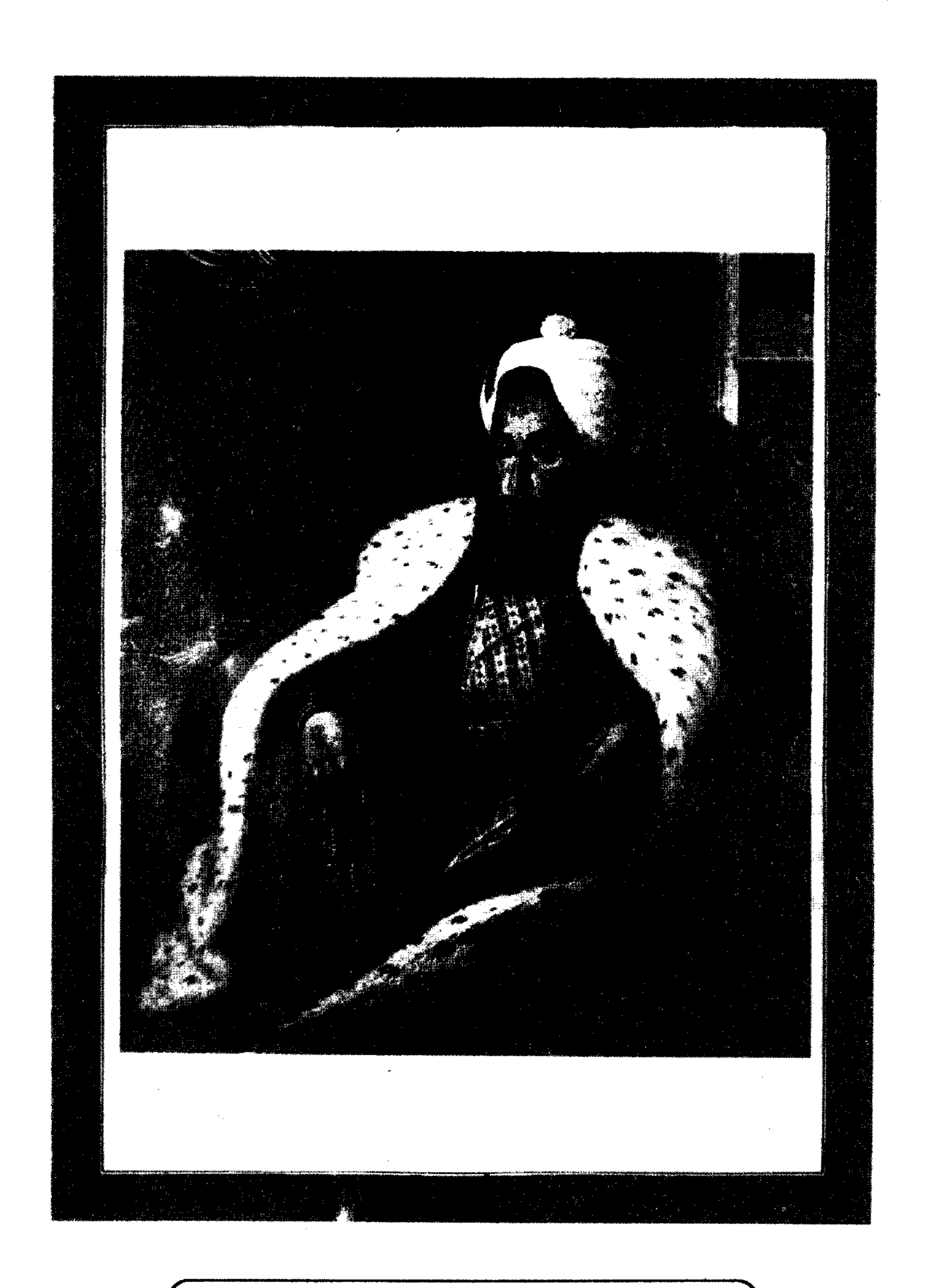
وبدأت بعمل الاتفاقات مع النمسا وغيرها لإنشاء دولة مستقلة في صربيا والأفلاق والبغدان تحت حمايتهم، وطارت الشعارات في روسيا مثل (الصريعة إلى بزنطة).

لذلك أرسلت طلباً إلى روسيا طلبت تسليم حاكم الأفلاق اللاجىء إليها والتنازل عن حماية بلاد الكرج، وأن يكون لها الحق في تفتيش المراكب الروسية التي تمر من مضيق البوسفور فرفضت روسيا هذه الطلبات فأعلن الباب العالي الحرب.

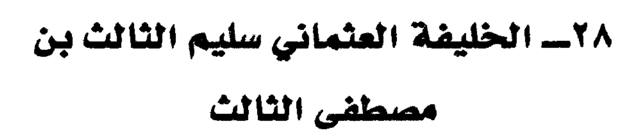
ولكن الجنرال بوتمكين سار نحو أوزي وحاصرها ودخلها عنوة واغتنمت الدولة النمساوية الفرصة وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية وحاولت الاستيلاء على مدينة بلغراد فعادت بالخيبة، حيث اقتفى أثرها الجيش العثماني وانتصر عليها وتوفي السلطان عبد الحميد في ١٢ رجب ١٢٠٣هـ الموافق لـ ١٧٨٩م ومدة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور.





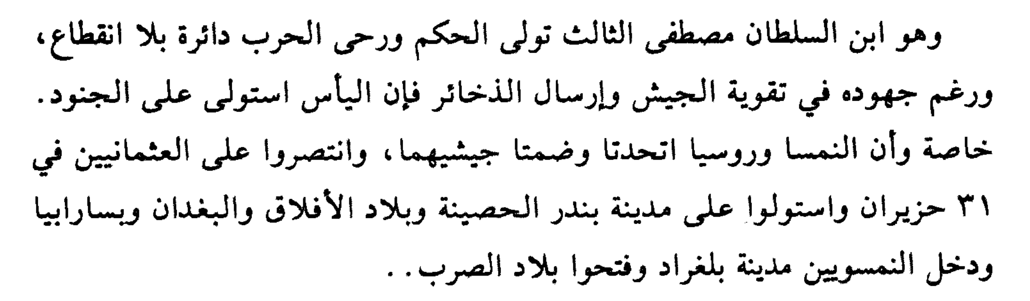


الخليفة العثماني سليم الثالث



٢٨ـ الخليفة العثماني سليم الثالث بن مصطفى الثالث

١٧٨٩ ـ ١٨٠٧



وهو ابن السلطان مصطفى الثالث تولى الحكم ورحى الحرب دائرة بلا انقطاع، ورغم جهوده في تقوية الجيش وإرسال الذخائر فإن اليأس استولى على الجنود. خاصة وأن النمسا وروسيا اتحدتا وضمتا جيشيهما، وانتصروا على العثمانيين في ٣١ حزيران واستولوا على مدينة بندر الحصينة وبلاد الأفلاق والبغدان وبسارابيا ودخل النمسويين مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصرب..

ولكن من حسن حظ الدولة العثمانية موت الإمبراطور يوسف الثاني في ٢٠ شباط، وخلفه ليوبولد الثاني، وقامت الثورة الفرنسية وتوسطت الدول المعادية للثورة الفرنسية فوقَّعت الدولة معاهدة (ستووا) وتنص:

١ ـ الصلح بين الدولة النمسوية، والدولة العثمانية صلحاً أبدياً براً وبحراً.

٢ ـ العفو عن كل من اشترك في الحرب من رعايا أحد الطرفين وخاصة الجبل الأسود وصربيا والأفلاق والبغدان.

٣ ـ العودة لمعاهدة بلغراد ١٧٣٩.

٤ ـ تعهد الدولة العثمانية بحماية المراكب الألمانية من التعديات في المغرب.

٥ ـ رد جميع الأقاليم والأراضي التي احتلتها النمسا خلال الحرب مع المدافع العثمانية التي كانت بها.

٦ ـ لا يتم تسليم أقليم ربا إلا بعد الصلح مع روسيا.

٧ ـ إعادة ما استرق من الأقاليم النمساوية إلى النمسا.

٨ ـ تعطى الأوامر المشددة إلى حكام وولاة الدولتين بإعادة السلم والسكينة إلى المقاطعات الواقعة على الحدود.

٩ ـ عدم الممانعة للتجار في اجتياز الحدود والتبادل التجاري بين الدولتين وكذلك السفر في الأنهر ذهاباً وإياباً.

١٠ ـ يتمتع الكاثوليك بالحرية في الدولة العثمانية ويسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم وممارسة عباداتهم.

إلا أن روسيا لم تتبع النمسا في الصلح واستمرت في الحرب واحتلت مدينة إسماعيل وقتلت سكانها ومثّلَت بالنساء والأطفال، فهاج الشعب في استانبول فأصدر السلطان أمره بقتل قائد حاميتها حسن باشا.

ثم توسطت أنكلترا والنمسا وهولندة بين الدولة الروسية حتى تمَّ الصلح في ١٥ جماد أول ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م بموجب معاهدة (ياسي).

١ ـ أن تملك روسيا بلاد القرم نهائياً وبلاد القوبان الشركس وبسارابيا والأقاليم بين نهري (بوج والدينسيير).

٢ ـ تنازل الدولة العثمانية عن بلدة أوزي.

إصلاحات السلطان الداخلية:

أولاً ـ مطاردة قرصان البحر لتسهيل التجارة على شواطىء الدولة العثمانية.

ثانياً ـ إصلاح الثغور وبناء القلاع الحصينة.

ثالثاً ـ جلب مهندسين من السويد وأنكلترا لإنشاء مراكب حربية حديثة.

رابعاً ـ استحضرَ مهندسين مهرة لصب المدافع في معامل الطوبجية وأصلح مدرسة البحرية.

خامساً ـ ترجم المؤلفات الفرنسية في المدفعية والفنون الحربية والرياضيات.

سادساً ـ تدريب فرق جديدة في الجيش على النمط الأوربي.

في هذه الأثناء ثار عثمان باشا بازوند، وانضمَّ إليه كثير من زعماء الصرب فاضطرَّ الصدر الأعظم حسن كوشك إلى السفر إلى صربيا لقتاله ولكنه خاف الدسائس فمنحه ولاية (ودين) الصربية طوال حياته. . .

ومن الحوادث الهامة في زمن السلطان سليم الثالث الحملة الفرنسية على مصر في عام (١٢١٣هـ ـ ١٧٩١م) حيث أعلنت حكومة الثورة الفرنسية الحرب على الدولة العثمانية وأرسلت جيشاً من ٣٦ ألف مقاتل وعشرة آلاف مجري وأسطول مؤلف من ٣٠ سفينة و١٢٢ عالماً لدراسة الأقليم المصري.

احتل الجيش خلال سيره جزيرة مالطة وجعلها قاعدة له. . ثم وصل الإسكندرية واحتلها وسار عن طريق الصحراء قاصداً القاهرة.

وبجانب الأهرامات في إمبابة جرت المعركة مع المماليك في ٧ صفر وبذل المماليك جهدهم ولكنهم تقهقروا أمام المدافع الفرنسية فدخل بونابرت القاهرة وأعلن أنه مسلم وحليف الباب العالي وعدو الإنكليز وأن هدفه محاربة المماليك. . ثم احتل الصعيد ووصل القصير على البحر الأحمر.

ولكن نلسن قائد البحرية الإنكليزية وجد أسطوله في أبي قير ودمره وبذلك أصبح نابليون سجين مصر. . .

وعرضت إنكلترا مساعدتها على إخراج الفرنسيين من مصر. . ولكن الدولة العثمانية أرسلت حملة برية إلى مصر انهزمت عند الفرما وفرت الجنود.

أرسلت روسيا والنمسا وأنكلترا أساطيلها لمساعدة الدولة العثمانية فأراد نابليون احتلال سوريا وقاد حملته إلى فلسطين ورغم أنه تغلب على الجيش العثماني في معركة جبل طابور فإنه توقف أمام أسوار عكا وكانت الأساطيل تمدها بالذخيرة والمؤن من جهة البحر، ورغم تهدم سورها بالمدافع الفرنسية فإنه فشل في احتلال المدينة ودافع عنها السكان بشدة أدت إلى خروجه من المدينة بعد أن وصلت جيوشه إلى وسطها. .

نقلت البحرية الإنكليزية والروسية جيشاً عثمانياً نزل في أبي قير بمصر فحاربه نابليون وأسر قائده وهرب بقية الجنود إلى مراكب البحر. . .

ولكن سوء الأحوال في فرنسا، وموت كثير من الجنود الذين بقي منهم ١٥ ألف جندي من أصل ٣٦ أو أربعين ألفاً حسب بعض المصادر كل ذلك جعل نابليون يعود إلى فرنسا تاركاً الحملة ميئوساً منها تحت قيادة الجنرال كليبر الذي قتله شاب من سوريا اسمه سليمان الحلبي. .

ثارت القاهرة ثلاث مرات على الجيش الفرنسي وفي كلِّ مرة كان الفرنسيون يحرقون القاهرة ويرمونها بالمدافع واستعانوا بالمماليك لجباية الريف المصري لصالحهم.

بعد موت كليبر استلم الجنرال مينو وأدرك صعوبة وجوده في مصر فاعتنق الإسلام وتزوج سيدة مصرية وتسمى باسم عبد الله.

أنزل الحلفاء جيش عثماني ومعه ضباط روس وأنكليز في أبي قير للمرة الثانية فسار إليهم مينو ولكنه هزم وعاد إلى الأسكندرية فخرّب الإنكليز سد أبي قير المانع لمياه البحر الأبيض المتوسط فغرقت حقول الدلتا ثم ساروا إلى القاهرة عن طريق الصالحية من الشرق فاتفق على إخلاء القاهرة ووقعت اتفاقية العريش التي تنص على خروج الجيش الفرنسي بأسلحته وغنائمه حتى لا تقع في يد العثمانيين وسار إلى ثغر رشيد أما مينو فقد حارب الإنكليز وانتصر عليهم ولكن قُتِل الكثير من الجنود من الطرفين، ووقع اتفاقية تنص على عودة الجنود الفرنسيين إلى فرنسا على مراكب إنكليزية. . .

وبقي جنود إنكليز في مصر واحتلت روسيا بعض الموانئ في بلاد اليونان لذلك جرت المفاوضات بين الدولة العثمانية وفرنسا، ووقع الصلح الذي يعيد لفرنسا امتيازاتها قبل الحملة الفرنسية ووقع المعاهدة نابليون بونابرت كما وقعت معاهدة مع الجزائر سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م. ومعاهدة مع تونس واتفق أن ترجع مصر إلى الدولة العثمانية وكانت حملة إنكليزية قد حاولت احتلال مصر بعد خروج نابليون ولكن الأهالي قاوموها مقاومة عنيفة اضطرت معها إلى الانسحاب.

إصلاحات السلطان الداخلية:

تأسيس الجيش الجديد على الطرق الحديثة، وذلك بإصدار أمر بفصل المدفعية عن الإنكشارية وكذلك البحرية... وبإنشاء أورطتين، سواري وآلابين مشاة مقرهم في الأستانة وهكذا لم تمض ثلاث سنوات إلا وقد تم تنظيم ثمانية آلابات كاملة العدد والعدة.

الحرب مع إنكلترا:

بعد خروج الفرنسيين من مصر أرسل نابليون إلى مصر الجنرال سبستياني لإعادة العلاقات مع الدولة العثمانية. وفي إثناء إقامة الجنرال في استانبول سعى عزل أميري الأفلاق والبغدان المنحازين إلى روسيا وتعيين أمراء مخلصين للدولة العثمانية، فخافت روسيا من ازدياد نفوذ فرنسا في الدولة العثمانية وأرسلت جيوشها واحتلت هاتين الإمارتين ونشب القتال واتحدت انكلترا مع روسيا لتأييد طلباتها وأرسل الإنكليز أسطولهم إلى مدخهل الدردنيل كما أرسلت بلاغاً إلى السلطان تطلب فيه تحالف الدولة العليا وانكلترا، وتسليم الأساطيل العثمانية وقلاع الدردنيل إلى انكلترا، والتنازل عن ولايتي الأفلاق والبغدان إلى روسيا، وطرد الجنرال (سبستياني) من الأستانة وإعلان الحرب على فرنسا، وإلا تكن أنكلترا مضطرة لاجتياز الدردنيل وإطلاق مدافعها على الأستانة. فلم تقبل الدولة هذه المطالب بل أخذت في تحصين البوغاز وإقامة القلاع على ضفتيه. لكن لم يكن الوقت كافياً لتحصينه بكيفية تجعل المرور منه غير ممكن وفي ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٢١هـ (٢٠ فبراير سنة ١٨٠٧م) قرن الإنكليز القول بالفعل واجتاز الأميرال اللورد (دوك وورث) بوغاز الدردنيل بدون أن يحصل لمراكبه ضرر يذكر من مقذوفات القلاع، ووصل إلى فرضة (جاليبولي) ودمر كافة السفن الحربية العثمانية الراسية بها ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ لائحته التي سبق ذكرها.

وبورود الخبر إلى الدولة بذلك، وقع الرعب في قلوب سكان الأستانة خشية من وصول السفن الإنكليزية إلى البوسفور، وهناك تكون الطامة الكبرى لوجود أغلب السرايات الملوكية ودواوين الحكومة على ضفتيه. ووقع الوزراء في حيص

بيص، فأقرّوا بعد مداولات طويلة أن يذعنوا لطلب انكلترا وأرسلوا إلى الجنرال سبستياني يدعونه للخروج من الأستانة خوفاً من تفاقم الخطب، فقابل الفرنساوي الرسول العثماني محاطاً بجميع مستخدمي السفارة والضباط الفرنساويين المستخدمين بجيوش الدولة وبحريتها وأجابه قائلاً إني لا أخرج من الأستانة إلا مكرهاً، ثم طلب أن يقابل السلطان مقابلة خصوصية فأجيب طلبه. ولما قابله أظهر له استعداد فرنسا لمساعدة الدولة وأن الامبراطور نابليون قد أصدر أوامره إلى جيوشه المعسكرة بسواحل الأدرياتيك للسفر إلى الأستانة لمساعدة الدولة على مقاومة انكلترا ورفض طلباتها، فاقتنع جلالته بعدم جواز الانصياع لطلبات الإنكليز وأنها لو رأت من الدولة العثمانية مقاومة أذعنت هي لسحب مطالبها خوفاً على تجارتها من البوار لو صدرت الأوامر بعدم قبولها في الممالك المحروسة.

فأخذ في تحصين العاصمة وبناء القلاع حولها وتسليحها بالمدافع الضخمة. وشكّل الفرنسيون النازلون بالأستانة فرقة من مائتي مقاتل أغلبهم من المدفعية وكذلك الأسبانيون لمضادّة سفيرهم المركيز دالمنييرا لسياسة انكلترا في الشرق. واهتم كل من في الأستانة بهذا العمل الوطني حتى الشيوخ والأطفال والنساء وبذل الإنكشارية من الاهتمام أكثر مما كان يؤمل منهم وكان السلطان بنفسه يناظر الأشغال ويحث المشتغلين بها على مواصلة الليل بالنهار لإتمام القلاع لصدّ هجمات الأعداء. فلم يمض بضعة أيام حتى صارت المدينة في مأمن من كل طارىء ووقفت عدة سفن في مدخل البوسفور لمنع كل مهاجم، مع استمرار الأشغال في بوغاز الدردنيل فلما رأى الأميرال الإنكليزي استحالة دخوله البوسفور وقرب انتهاء تحصينات الدردنيل خشي من حصر مراكبه بين البوغازين وقفل راجعاً إلى البحر الأبيض في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٢١هـ (أول مارس سنة ١٨٠٧م) فنجا منه بمراكبه بعد أن قتل من رجاله ستمائة وغرق من سفنه اثنتان من مقذوفات قلاع الدردنيل واجتمع بمراكب الروسيا عند مدخل البوغاز.

ثم أراد الأميرال الإنكليزي أن يأتي عملاً يمحو ما لحقه من العار بسبب فشله في هذه المأمورية فقصد ثغر الإسكندرية ومعه خمسة آلاف جندي بري تحت قيادة الجنرال فريذر فاحتلها في ١٠ محرم سنة ١٢٢٢هـ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٧م)، ثم

سير فرقة إلى ثغر رشيد لاحتلاله فانهزمت وعادت بخفي حنين. ثم أعاد الكرة عليها في شهر أبريل وحاصر المدينة في ٨ صفر (١٧ أبريل) لكن لم يقو على فتحها لإرسال محمد باشا المدد إليها. وأخيراً رحلوا عن الديار المصرية ونزلوا في مراكبهم في ١٠ رجب سنة ١٢٢٢هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٠٧م) لعدم إمكانهم التفرّغ لفتحها مع اشتغالهم بالحروب في أوروبا ولوجود والي مصر محمد علي باشا.

محمد علي في مصر:

ولد محمد علي في مدينة قوة ١١٨٢هـ الموافق ١٧٦٩م وتوفي والده صغيراً ولما كبر أخذ يشتغل ببيع السجائر. لم لحميَّته الدينية تطوع في الجيش العثماني لرد الفرنسيين عن مصر وحضر معركة أبي قير وعينه الوالي قائداً لفرقة من الأرناؤوط تبلغ أربعة آلاف جندي. وحاول محمد علي استمالة قلوب الجنود ولما لم يدفع لهم خسرو باشا رواتبهم ثار الجنود فطردهم من القاهرة. وبقي خسرو بالقلعة فقام علماء الأزهر بتعيين طاهر باشا والياً مؤقتاً. ولكن الإنكشارية ثاروا عليه وقتلوه فاستعان محمد علي بالمماليك وحارب معهم الإنكشارية وقتلهم لاعتدائهم على الأهالي وبذلك كسب محبة الشعب ثم سار مع البرديسي إلى دمياط لمحاربة خسرو باشا وأسره وعاد به إلى القلعة بالقاهرة. ولما عاد محمد الألفي من إنكلترا وكان ذهب إليها ليطلب المساعدة على الاستقلال بمصر ولكنه خاف من محمد علي وسافر إلى الصعيد. . . أما البرديسي فحاصره في قصره وضرب القصر بالمدافع وأخرجه من مصر ثم أخرج خسرو باشا من القلعة إلى رشيد ومن هناك أرسله إلى الباب العالي. ولم يلبث الأهالي أن كتبوا إلى السلطان بتولية محمد علي فأصدر السلطان فرماناً بذلك وصل إلى مصر في ١٠ ربيع الثاني ١٢٢٠هـ الموافق ٨ تموز ١٨٠٥م.

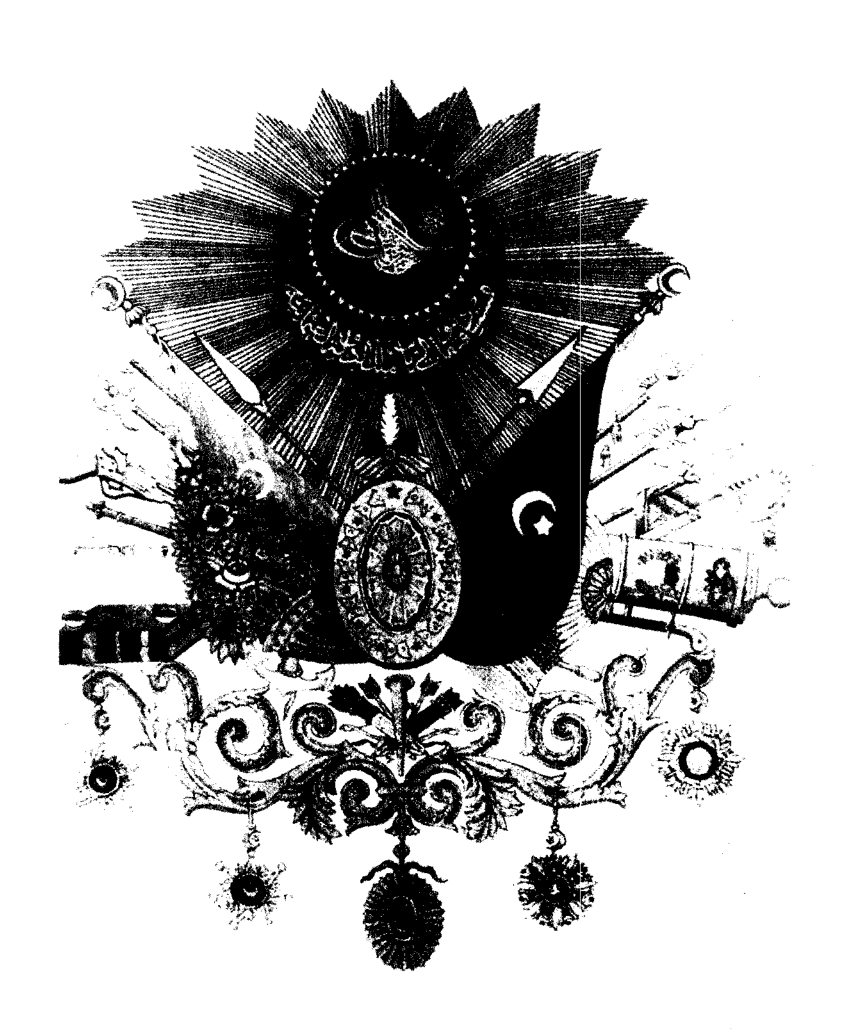
ثم سعى الإنكليز لدى الباب العالي وطلبوا عزله أو نقله إلى ولاية لتوسمهم فيه المعارضة لمشروعاتهم المجحفة باستقلال مصر فصغى الباب العالي إلى وساوسهم وأمر بنقله إلى ولاية سلانيك فلم يقبل علماء مصر ولا قوّاد الجيوش بذلك وكتبوا إلى الدولة يلتمسون منها إبقاءه في ولاية مصر، فقبل السلطان وأرسل إليه فرماناً بتثبيته وصل إليه في ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١هـ (٦ نوفمبر سنة ١٨٠٦م)، وفي ٧

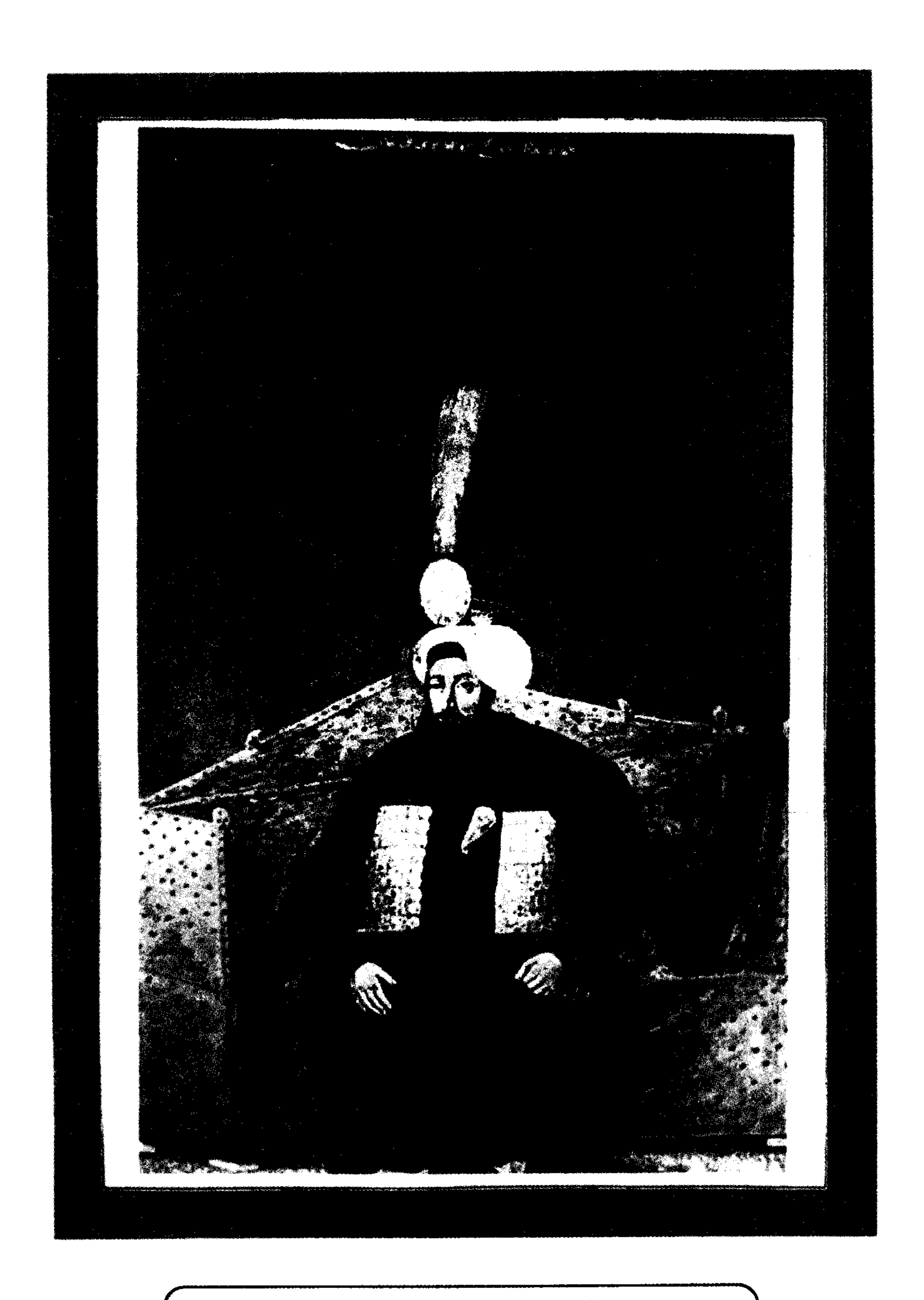
رمضان (١٨ نوفمبر سنة ١٨٠٦م) توفي محمد بيك الألفي وفي شوّال (٣١ دسمبر سنة ١٨٠٦) توفي عثمان بيك البرديسي وبذلك صفا الجوّ لمحمد علي باشا ولم يبق له إلا المماليك فأجهز عليهم في موقعة القلعة ٥ صفر ١٢٢٦ هـ الموافق ١٨١١م.

عزل السلطان سليم الثالث:

في هذه الأثناء كانت رحى الحرب دائرة بين العثمانيين والروس فدخل والي بوسنة بجيوشه إلى بلاد الصرب لمنع الثائرين من اللحاق بالجيش الروسي وسار الصدر الأعظم وفرقتان من الإنكشارية وجيوش آسيا المنتظمة إلى مدينة (شومله)، وكان مصطفى باشا البيرقدار حاكم مدينة (روستجوق) يستعدّ للإغارة على بلاد الأفلاق بخمسة عشر ألف جندي قام هو بتنظيمهم وتدريبهم وخصص نفراً ليس بقليل من النظام الجديد للبقاء في قلاع الدردنيل والبوسفور لدفع الطوارىء البحرية. وفي غضون ذلك توفي المفتي الذي كان معضداً للسلطان على إدخال الإصلاحات العسكرية وتولى مكانه قاضي عسكر الروملي بعد هذا ثار الجنود غير النظاميين وانتخبوا لهم رئيساً اسمه قباقجي أوغلي ودخلوا الأستانة وقتلوا جميع المؤيدين للنظام العسكري الجديد ولما وصل الأمر إلى السلطان أمر بإلغاء النظام الجديد وصرف العسكر النظامية ولكن الثائرون بمساعدة المفتي عزلوا السلطان في ٢١ ربيع الآخر ١٢٢٢هـ الموافق ٢٨ حزيران ١٨٠٧م وتوفي في السنة التالية وعمره ٤٨ سنة.





الخليفة العثماني مصطفى الرابع

٢٩ـ الخليفة العثماني مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول

١٨٠٧ ـ ١٨٠٨

كلف السلطان مصطفى بتبليغ السلطان سليم خبر عزله فقبل سليم ذلك خوفاً من القتل وتفرق الجنود الثائرين. وقام السلطان بتعين قباقجي أوغلي حاكماً لقلاع البوسفور.

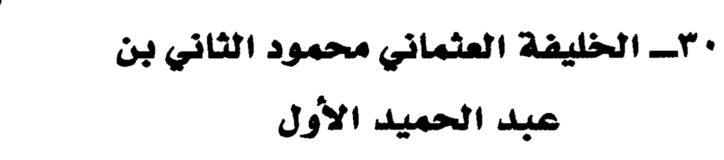
لما وصل خبر الثورة إلى الجيوش التي تحارب روسيا على نهر الدانوب قتلوا الصدرِ الأعظم فوقع الفشل بالجيوش ولولا اشتغال نابليون بالحرب مع روسيا مما دعى إلى تقهقر الجنود الروس عن ولاية البغدان وكان من شروط نابليون توقف روسيا عن مهاجمة الدولة العثمانية وإخلاء ولايتي الأفلاق والبغدان. وإذا لم توافق الدولة العثمانية على ذلك خلال خمسة وثلاثين يوماً تتقاسم روسيا وفرنسا والنمسا أملاك الدولة العثمانية في أوربا.

أرسل نابليون الجنرال كاليمينو إلى الجيوش العثمانية والروسية المتحاربة فقبل الطرفان ما قرر ووقعا هدنة. ولكن روسيا لم تخل مقاطعتي الأفلاق والبغدان.

أما في استانبول فقد قام قباقجي بالتصرف بالوزراء ووقع الخلاف بين الثائرين فقام القائد جلبي مصطفى بالاتفاق مع مصطفى باشا البيرقدار حاكم روستوف وأرسلوا جنودهم إلى الأستانة وقتل قباقجي في قصره ولما حاصروا السراي وطلبوا إعادة السلطان سليم الثالث قتله مصطفى الرابع وألقى جثته للثائرين فنادى الثائرون بعزل السلطان مصطفى وقتل في السراي بعد أن حكم سنة وشهر واحد. . . وأقيم بعده محمود الثاني.

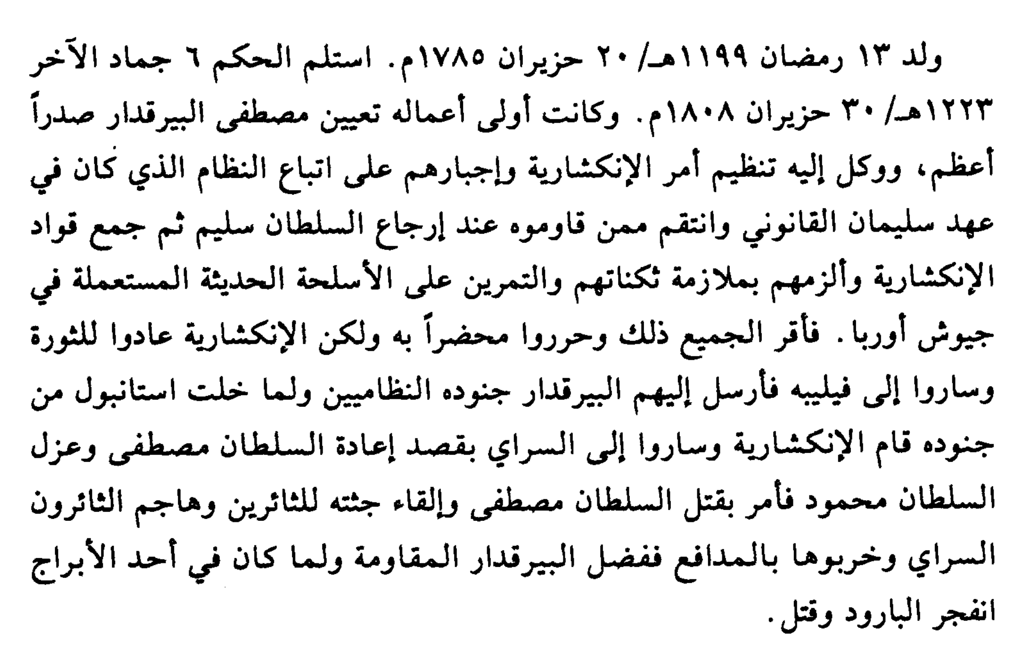


الخليفة العثماني محمود الثاني



٣٠ــ الخليفة العثماني محمود الثاني بن عبد الحميد الأول

١٨٠٨ ــ ١٨٣٩



ولد ١٣ رمضان ١١٩٩هـ/ ٢٠ حزيران ١٧٨٥م. استلم الحكم ٦ جماد الآخر ١٢٢٣هـ/ ٣٠ حزيران ١٨٠٨م. وكانت أولى أعماله تعيين مصطفى البيرقدار صدراً أعظم، ووكل إليه تنظيم أمر الإنكشارية وإجبارهم على اتباع النظام الذي كان في عهد سليمان القانوني وانتقم ممن قاوموه عند إرجاع السلطان سليم ثم جمع قواد الإنكشارية وألزمهم بملازمة ثكناتهم والتمرين على الأسلحة الحديثة المستعملة في جيوش أوربا. فأقر الجميع ذلك وحرروا محضراً به ولكن الإنكشارية عادوا للثورة وساروا إلى فيليبه فأرسل إليهم البيرقدار جنوده النظاميين ولما خلت استانبول من جنوده قام الإنكشارية وساروا إلى السراي بقصد إعادة السلطان مصطفى وعزل السلطان محمود فأمر بقتل السلطان مصطفى وإلقاء جثته للثائرين وهاجم الثائرون السراي وخربوها بالمدافع ففضل البيرقدار المقاومة ولما كان في أحد الأبراج انفجر البارود وقتل.

في هذه الأثناء كان أميرال البحر رامز باشا قد أحضر ثلاثة سفن وأوقفها في ممر البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الأنكشارية ونزل إلى البرّ لمساعدة البيرقدار وأتى عبد الرحمن باشا مع ثلاثة آلاف جندي لمساعدته. ولكنه كان قد مات.

استمر رامز باشا وعبد الرحمن باشا في مقاتلة الإنكشارية واستمر القتال ثلاثة أيام.

حاول الثائرون إحراق المدينة ولما كانت أكثر بيوت المدينة من الخشب علا اللهيب فيها وكاد الحريق يلتهمها فاضطر السلطان محمود إلى الإذعان إلى طلبات الإنكشارية لإنقاذ المدينة. واستمر الإنكشارية في ثكناتهم. . .

بعد ذلك وجه السلطان اهتمامه للقضاء على الإنكشارية والتفرغ لعقد الصلح مع الإنكليز بعد خروجهم من مصر. وافتتح اتصالات مع روسيا دون فائدة واستؤنفت الحرب مع روسيا وانهزم الصدر الأعظم ضيا يوسف واستولى الروس على مدائن إسماعيل وسلسترية وروستوق ونيكوبلي وبازارجق. فعزل الصدر الأعظم وتولى مكانه أحمد باشا وسار إلى محاربة الروس بستين ألف مقاتل ١٨١١م وانتصر عليهم وأخلوا مدينة روستجق مكرهين بعد أن هدموا قلاعها... فتبعهم بجيوشه، ورغم انتصار الروس في مواقع تكتيكية، لكن سوء العلاقات مع نابليون جعل الروس ينسحبون إلى خلف نهر الدانوب وجرت المفاوضات التي انتهت بمعاهدة بوخارست وأهم شروطها بقاء ولايتي الأفلاق والبغدان تحت سيادة الدولة العثمانية ورجوع الصرب إلى حوزة الدولة واحتفظت روسيا بأقليم بسارابيا وأحد مصبات نهر الدانوب اعتبرت فرنسا هذه المعاهدة خيانة لأنها ساعدت روسيا على صد غارات نابليون وإلزامه بالتراجع بعد حرق موسكو مما أدى إلى هلال أكثر جيوشه.

ثار الصرب على هذه المعاهدة فأرسلت الدولة العثمانية الجيوش لإخضاع الثورة فهرب زعمائها إلى النمسا ما عدا ميلوش الذي أظهر الخضوع ولكنه أعلن العصيان وانضم إليه الكثير من الصرب وبعد قتال مدة سنتين قبل ميلوش الرجوع إلى سلطان الدولة العثمانية على أن يحكم صربيا مجلساً منتخباً من الأهالي مؤلفاً من ١٥ عضو وتكتفي الدولة بالمراقبة واحتلال الحصون والقلاع... وعيَّنت مرعشلي باشا والياً على الصرب وعيَّن ميلوش رئيساً للمجلس الوطني أما قره جورج القائد الصربي الثائر الآخر الذي هرب إلى روسيا وعندما أرسلته روسيا لإثارة اليونان أرسل إليه من قتله وأرسل رأسه إلى الأستانة دلالة على إخلاصه للدولة العثمانية.

الحركة الوهابية:

تجاه ضعف الدولة العثمانية وتطاول الدول عليها وخاصة سيطرة الغرب عليها قام عبد الوهاب من رجال الدرعية بحركة دينية واستغل ألمعيته وتفقهه بأمور الدين

فحاول تنقيته من البدع والخرافات مع التوحيد المطلق والطهارة وتعمير مساجد الله وتفضيل حياة الجماعة في العبادة. . .

ولما احتل نابليون مصر حاول التعاون مع آل سعود ليعبر الجزيرة العربية من الشمال إلى الخليج لمحاربة إنكلترا، ولكن السعوديون رفضوا ذلك مما أدى إلى دفع السلطان العثماني إلى تكليف محمد علي للقضاء عليهم وذلك عند تحالف السلطان مع فرنسا ضد روسيا. أرسل محمد علي فرقته الإنكشارية لمحاربة الوهابيين في جزيرة العرب بقيادة ابنه طوسون ولخوفه من المماليك أعد حفلة لتوديع ابنه في القلعة وقام بذبح المماليك في هذه الحفلة. وهكذا استطاع محمد علي التخلص من المماليك والإنكشارية وتأسيس جيش حديث في ينبع انهزم الإنكشارية أمام المؤمنين من العرب فسار محمد علي بنفسه واحتل مكة وعيّن شريفاً لمكة موافق له وحج وأرسل حملة مع ابنه طوسون احتلت الدرعية بعد موت سعود الكبير في ١٩ ربيع الثاني ١٢٢٩هـ الموافق لـ ١٨١٤م.

ولكن طوسون لم ينجح في إقناع آل سعود بالاستسلام وذهاب قادتهم إلى استانبول لتقديم الولاء، فقد رفض السعوديون الخضوع لغير الله لذلك أرسل محمد علي حملة ثالثة بقيادة ابنه إبراهيم باشا.

سار إبراهيم باشا عن طريق قنا ـ القصير ـ جدة. فاحتل الرس وعنيزة ولما وصل إلى الدرعية لم يتمكن من محاصرتها لاتساعها وكثرة بساتينها. . . لذلك أشار عليه الجنرال الفرنسي فسيير بحصار كل جانب وحصن على جدة ولما احتلوا ثلاثة حصون. حضر عبد الله بن مسعود الكبير إلى إبراهيم باشا وعرض تسليم المدينة دون التعرض للأهالي وفضل التضحية بنفسه على أن تتعرض المدينة للأستباحة وسافر إلى الأستانة ووافق على تسليم مجوهرات الغرفة النبوية خاصة الكوكب الدري الذي زنته من الماس ١٤٣ قيراط من الماس.

عاد عبد الله بن سعود الكبير إلى المدينة ثم القاهرة وسافر بحراسة الجنود المصرية إلى استانبول حيث قتله السلطان العثماني.

وعاد إبراهيم باشا إلى مصر. بعد أن سلم حكم الأحساء إلى شيخ السدارة في الدرعية.

عصيان علي باشا في البانيا:

كان علي باشا ثائراً على الدولة العثمانية واستغل إنشغالها في صربيا وحربها مع روسيا والنمسا فامتنع عن دفع الخراج إلى الدولة العثمانية وإرسال محاربين للخدمة العسكرية، وأخيراً أرسل أحد أعوانه لقتل معارضيه في الأستانة وراسل زعماء اليونان للثورة فأرسلت الدولة جيوشاً بقيادة خورشيد باشا ولما رأى أن لا مناص من التسليم اجتمع بخورشيد باشا الذي أبرز له القانون (فرمان) السلطاني بقتله وجزّ رأسه وأرسل إلى استانبول.

ثورة اليونان:

انتشرت الأفكار القومية في أوربا بعد الثورة الفرنسية وانتقل إلى الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية (الصرب ـ المجر ـ البلغار ـ اليونان ـ الرومان) وكانت الدولة العثمانية كلما فتحت أقليماً اكتفت من أهله بالخراج غير متعرضة لديانته ولغته أو عوائده...

وكانت بلاد اليونان الأرثوذكسية من هذه البلاد التي كانت تفضل حكم الدولة العثمانية على حكم البنادقة الكاثوليك. ولكن النمسا وروسيا جمعت بعض اليونان وألفت منهم جمعيات سياسية قومية دينية لإيجاد المشاكل في الدولة العثمانية وأثناء محاربة الدولة لعلي باشا في ألبانيا أعلن اليونان العصيان فسار خورشيد إليهم ولكنهم تغلبوا عليه في موقعة ترومبيلي فآثر الموت على الهزيمة كما تمكن البحارة اليونان من حرق الأسطول العثماني واستشهاد ثلاثة آلاف بحري عثماني... وقاموا بعدها باحتلال جزر بحر إيجة وسبي النساء إضافة لأعمال السلب والنهب والحرق. واستمرت هذه الأعمال سنتين من ١٨٢٢م إلى ١٨٢٤م.

استنجد السلطان بواليه بمصر محمد علي باشا الذي أرسل الأسطول المصري مع جيش بقيادة ابنه إبراهيم باشا... وتعيين محمد علي والياً على جزيرة كريت وأقليم موره مع سبعة عشر ألف جندي مصري ومعهم الكولونيل سيف الفرنسي.

سافر إبراهيم مع جيشه إلى رودس ومنها إلى كريت ثم إلى مورة واستطاع النزول في المورة.

ساعدت أوربا بالمال والرجال والسلاح اليونان وتطوع كثير من المشاهير في هذه الثورة ومنهم الشاعر الإنكليزي بايرون وكذلك إنتشار قصائد فيكتور هوغو المثيرة والشاعر دلافين.

فتح إبراهيم باشا فأمدَّ مدينة كورون بالرجال والسلاح والطعام.. واحتل مدينة ناورين وكلامانا وتريبولتا ثم مدينة آثنا بالرغم من دفاع اللورد كوشران الإنكليزي القائد البحري الإنكليزي عنها. ولكن القوات المصرية والعثمانية احتلت المورة وأكثر بلاد اليونان وبعد تحقيق هذا النصر عرضت الدول الوساطة على الدولة العثمانية فلم تقبل، فقامت إنكلترا وروسيا وفرنسا في ١١ ذو الحجة ١٢٤٢هـ/٦ تموز ١٨٢٧م على إلزام العثمانيين بمنح اليونان الاستقلال الإداري على أن يدفع اليونان الجزية. ولما لم يوافق السلطان طلبت الدول من إبراهيم باشا التوقف عن القتال. فقال إنه يوافق على إيقاف القتال لمدة عشرين يوم على أن يأتيه أمر من السلطان هنا أغلقت الدول ميناء نافارين لمنع الأساطيل المصرية والعثمانية من الخروج وهنا تكامل وصول الأساطيل الأوربية وحدثت معركة نفارين مفاجئة تحطمَّ نتيجتها الأسطولين المصري والعثماني.

اغتاظ السلطان من هذا العمل وطالب بتعويضه عن الخسائر وأعلن أن هذا العدوان يستهدف الدين لا السياسة، وطلب من السكان الدفاع عن الدين والملّة وهنا طلب محمد علي من ابنه الرجوع إلى مصر فعاد إلى مصر على سفن إنكليزية واجتمعت الدول في لندن وأقرت استقلال اليونان تحت حماية هذه الدول على أن يدفع جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف قرش ولم يقبل السلطان هذا الأمر وعمل على محاربة روسيا العدو الأول للدولة العثمانية...

تقدمت روسيا في أقليم البغدان واحتلت عاصمته (ياس) ثم تقدمت إلى بخارست كما تقدمت من ساحل نهر الدانوب إلى الجنوب ووصلت إلى مدينة أدرنة واحتلتها. ولم يبق لها إلا احتلال العاصمة استانبول. وهنا تدخلت الدول لمنع روسيا من الوصول إلى المياه الدافعة وأمضت الدولة العثمانية معاهدة أدرنة. وفيها:

١ ـ إقامة الصلح الأبدي والمحبة وحسن الموافقة بين روسيا والدولة العثمانية.

٢ ـ إعادة إمارة البغدان والأفلاق ومقاطعة (قرجة أدوه) والبلغار ودويريجة مع مدائن سيلسترا وحرصو ـ ماجين ـ إيزا ـ كنجة تولتنا ـ بابا طاغ ـ بازارجق ـ وارنه ـ برافوده ـ وجميع بلاد البلقان ومدائن سلمينا ـ تشا مولي ـ إيدا ـ كرنبات ـ كهيولي ـ بورحاس سيزيبولي ـ قرق ـ قلدس ـ أدرنة ـ لوله ـ بورجاس.

٣ ـ تحديد الحدود في القوفاز.

٤ ـ يتمتع رعايا الدولة الروسية بحرية التجارة في سائر أنحاء الدولة العثمانية. مع حرية الملاحة في البحر الأسود.

٥ ـ إخلاء سبيل أسرى الحرب من كل من الدولتين.

احتلال فرنسا للجزائر:

كان الصراع الفرنسي الإنكليزي حول الطرق التجارية والتجارة مع الدولة العثمانية. لذلك سيطرت إنكلترا على البحر الأبيض المتوسط باحتلال جبل طارق وجزيرة مالطة في الوسط ورتبت علاقاتها مع الدولة العثمانية ومدت نفوذها إلى بلاد اليونان وكانت تفكر بقناة بين نهر الفرات والبحر المتوسط وأرسلت بعثة لدراسة الموضوع لذلك فكرت باحتلال الجزائر فاستغلت انشغال الدولة العثمانية بحروب اليونان ضد روسيا.

استغلت فرنسا وقوع خلاف بين الداي وبعض التجار الفرنسيين خروج قنصل فرنسا بدوفال عن حد الأدب سبباً لاحتلال الجزائر.

وأرسلت جيشاً من ٢٨ ألف مقاتل وعمارة بحرية من مائة سفينة مع سبعة وعشرين ألف جندي بحري.

وفي ٢٠ ذي الحجة ١٢٤٥هـ تموز ١٨٣٠م نزلت عساكر فرنسا بالقرب من الجزائر ونشب قتال شديد تغلب به الفرنسيون، واحتلوا القلعة أمام المدينة، ودخلت جيوشهم المدينة بعد الاتفاق مع الباي حسين على الخروج من المدينة وأن يأخذ أمواله وأمتعته.

ولكن الأهالي استمروا في المقاومة واستمرت الحروب مع الأهالي بزعامة الأمير السيد عبد القادر الجزائري وقد بويع بالإمارة من الأهالي حتى عام ١٨٤٧م. واستمر بقاء فرنسا في الجزائر حتى عام ١٩٦٤م.

حرب الشام الأولى بين محمد علي باشا والدولة العثمانية:

قام والي مصر بعد القضاء على الإنكشارية بتأسيس جيش حديث نظامي وأسطول وورش صناعية لتأمين ما يحتاجه الجيش من الملبوس والطربوش والمدافع والبنادق وأنشأ سفن جديدة بعد معركة نافارين وتدمير أسطوله مع الأسطول العثماني في بلاد اليونان.

واهتم بالزراعة وأنشأ ترعة المحمودية والقناطر الخيرية وأجبر الفلاحين على زراعة أراضيهم. . . وفرض الضرائب عليهم لتأسيس جيش حديث ولكن كثير من الفلاحين هربوا إلى بلاد الشام.

لذلك أمر محمد علي بإعداد حملة لاحتلال البلاد وذلك بعد رفض السلطان تعويضه عما أنفقه في حروب اليونان وتدمير أسطوله. . . وسارت حملة بحرية برية إلى العريش ووصلت إلى عكا بعد احتلال غزة ويافا والقدس ونابلس.

كما علم السلطان بسقوط هذه المدن. وأوعز إلى عثمان باشا والي حلب لمحاربته. فسار إبراهيم باشا إلى دمشق التي كانت ثائرة على واليها ودخلها ثم اتجه إلى حمص وانتصر على الجيش العثماني وعاد إلى عكا ودخلها عنوة وأخذ عبد الله باشا واليها أسيراً إلى مصر.

احتد السلطان محمود وجمع ستين ألف مقاتل بقيادة حسين باشا وأرسل مقدمة جيشه إلى حلب ولكن إبراهيم باشا لم يمهله واستولى على حلب لذلك خاف حسين باشا وتمترس في بيلان وهو مضيق في جبال الأمانوس فهزمه إبراهيم باشا وفرّق شمل جيوشه في ربيع أول ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م. فجمع السلطان جيشاً آخر وعين رشيد باشا قائداً له لصد هجمات إبراهيم باشا عن استانبول وكان إبراهيم قد احتل أقليم أضنة حتى قونية حيث التقى برشيد باشا وانتصر عليه وأخذه أسيراً في ٢٧ رجب ١٢٤٨هـ الموافق ٢٠ كانون أول ١٨٣٢م.

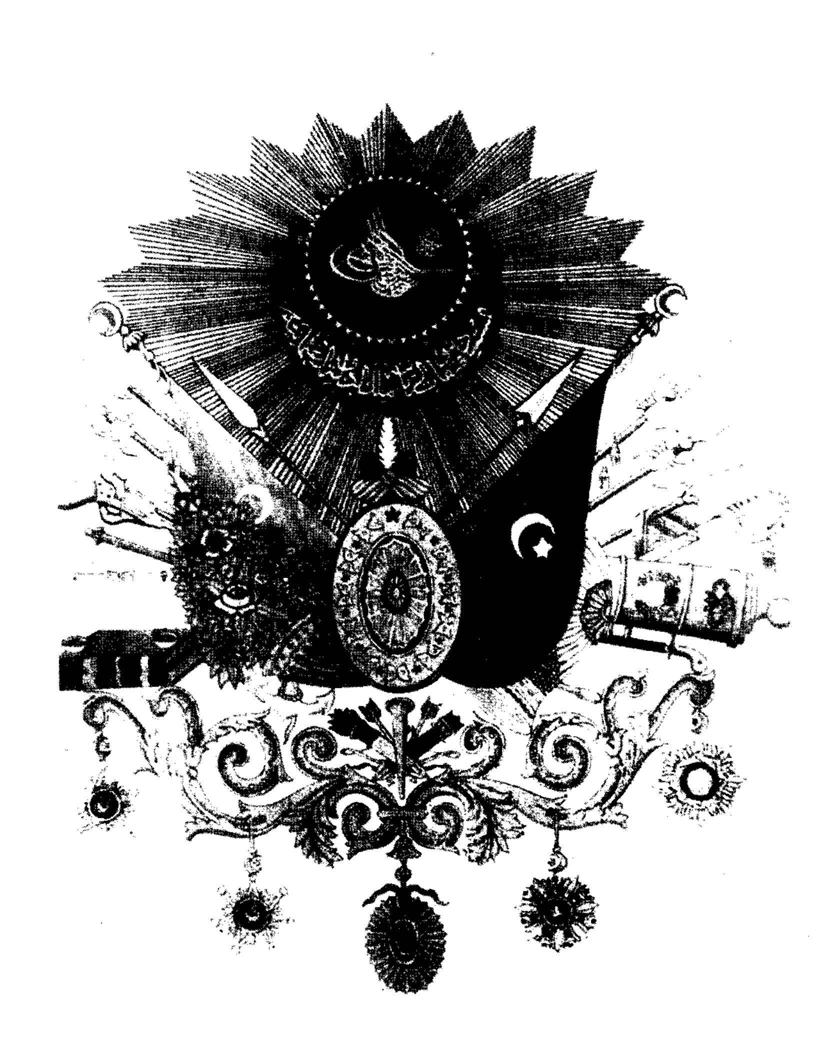
اهتمت روسيا بالموضوع وخافت من تجدد الدولة العثمانية وأرسلت إلى السلطان وأنزلت على شاطىء الأناضول خمسة عشر ألف جندي روسي. فاضطربت فرنسا وأنكلترا وألحت على السلطان بالاتفاق مع محمد علي. فوقعت معاهدة كوتاهية مقابل إخلاء المصريين أرض الأناضول وتعطي لمحمد علي ولاية مصر مدة حياته ويكون والياً على ولايات الشام الأربع وهي دمشق وحلب وعكا وطرابلس.

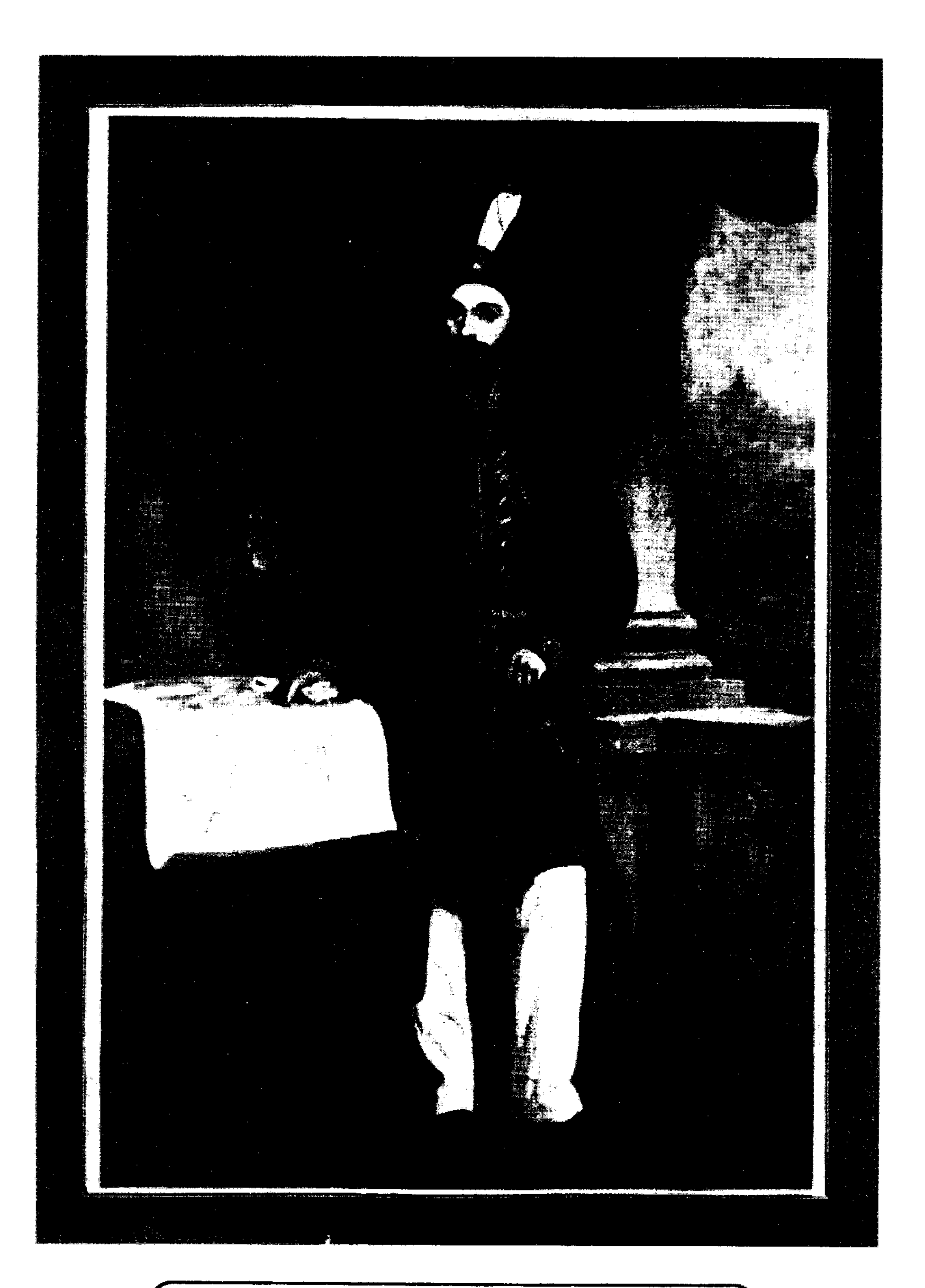
ويعين إبراهيم باشا والياً على أضنة وصدرت إرادة سنية بذلك في ٥ مارس ١٨٣٣م.

استغلت روسيا وجود عساكرها في الأناضول ووقعت معاهدة دفاعية هجومية مع السلطنة تعهدت بموجبها روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون.

بدأ السلطان بإثارة أهل الشام وإمدادهم بالسلاح والمال لإضعاف الحكم المصري في سورية. فطلب محمد علي أن تكون مصر له ولأولاده وولايات سورية لأولاده طول حياته وطلبت فرنسا إجابة طلباته ولكن السلطان طلب أن تكون جبال طوروس بأيدي السلطان. ولما طالت المفاوضات أرسل السلطان حملة بقيادة رشيد باشا والي سيواس في أرمينية الذي عبر الفرات ولاقى إبراهيم باشا في نصيبين ٢٤ تموز ١٨٣٩م فتقهقر الجيش العثماني تاركاً ١٦٦ مدفع مع ذخائرها وعشرين ألف بندقية ولكن خبر هذه الهزيمة لم يصل إلى السلطان الذي توفي... في ١٩ ربيع الثاني ١٢٥٥هـ الموافق ٢ تموز ١٨٣٩م. وتولى بعده ابنه عبد المجيد.

كانت مدة خلافة السلطان محمود (٣١) سنة وعشرة شهور ومات عن أربع وخمسين سنة.





الخليفة العثماني عبد المجيد الأول



٣١ــ الخليفة العثماني عبد المجيد الأول بن محمود الثاني
١٨٣٩ ــ ١٨٦١



تولى الخلافة وعمره سبعة عشر سنة وكان الحكم في غاية الاضطراب بسبب انتصار الجيوش المصرية بنصيبين واحتلالها ملاطية وقيصرية وعين تاب، ومما زاد الأمر أن أحمد باشا قائد الأسطول العثماني خرج بجميع مراكبه إلى الأسكندرية وانضاف إلى الأسطول المصري وأصبح محمد علي يملك أقوى أسطول في البحر المتوسط، ويملك داراً لبناء السفن في الإسكندرية وتأتيه الأخشاب لذلك من لبنان وعنده خبراء فرنسيين لصناعة المدافع وغيرها. . .

خافت الدول من زحف إبراهيم باشا على استانبول وقد فقدت الدولة العثمانية جيوشها فتحتل روسيا الدولة العثمانية. . . فأرسلوا كتاباً إلى السلطان بأن لا يقر أمراً بشأن محمد علي إلا بمعرفتهم وأنهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمد علي.

واجتمع مندوبي الدول في استانبول وبين دعم فرنسا لمحمد علي لإعطائه ولاية مصر وراثية وولايات الشام الأربع. . . وإصرار روسيا على حماية الدولة العثمانية وخوف إنكلترا من وصول روسيا للمياه الدافئة. . .

وعارضت الدول طلب مترنيخ عقد مؤتمر في لندن.

اجتمع مؤتمر لندن وتجاوز دعم فرنسا لمحمد علي وأرسل مقرارته لمحمد علي فيها:

١ ـ يلزم محمد علي بإرجاء ما فتحه من بلاد الشام ويبق له ولاية جنوب الشام دون عكا. . .

٢ ـ أن تكون لإنكلترا والنمسا محاصرة موانيء الشام وتوزيع الأسلحة على السكان للثورة على محمد علي.

٣ ـ أن يكون لروسيا وانكلترا حق الدخول في البوسفور لحماية استانبول لو تقدم محمد علي باتجاهها. . .

أرسلت الدول أساطيلها إلى سواحل المتوسط وخاصة سواحل الأناضول وبلاد الشام وحاولت ضرب الأسطول المصري التركي الذي احتمى في ميناء الإسكندرية. ولما استقال رئيس حكومة فرنسا الداعمة لمحمد علي وسحبت فرنسا أسطولها قامت إنكلترا بتوزيع السلاح وضرب مرافىء الشام بأسطولها. . . وحرقت مدينة بيروت ودمرتها وأنزلت قواتها شمال بيروت.

لم ير محمد علي بداً من الإذعان فأرسل أوامره إلى ابنه بالإنسحاب من بلاد الشام وتمكن سليمان باشا من إعادة ١٥٠ مدفعاً بخيولها إلى مصر وكثير من خيول الخيالة التي هلك قسم منها بسبب العطش وشدة التعب.

لما شاهد الأميرال نابير الإنكليزي انسحاب محمد علي من بلاد الشام عرض على محمد علي إعطاء مصر له ولورثته لو تنازل عن الشام، ورد الأسطول التركي إلى تركيا فقبل هذه الشروط وصدر فرمان هامايوني في ٢١ ذي القعدة ١٢٥٦هـ/ ١٤ يناير ١٨٤١م.

وتحدد عدد الجيش المصري بـ ١٨ ألف جندي وأن تضرب النقود في مصر باسم السلطان وأن تدفع مصر سنوياً ثمانين ألف كيس وتطبق القوانين الخاصة بالجمارك العثمانية على مصر. . .

لبنان والمسألة المارونية:

بمجرد إخلاء مصر للبنان عاد لبنان إلى العداوة الدينية القديمة. . وقامت فرنسا بإعطاء السلاح للكاثوليك وإنكلترا لطائفة الدروز وحاولت إنكلترا الضغط على الكاثوليك لاعتناق البروتستانتية حتى تفرض حمايتها عليهم ولكنها فشلت، عند ذلك حرضت الدروز عليهم فهاجموا دير القمر وقاموا بالنهب والسلب وسبي الحرائر ١٨٤١م/ ١٢٥٧هـ وأعادوا الكرَّة عام (١٨٤٥م) دون أن يؤذوا البروتستانت فتدخل الباب العالي لمنع هذه الفتن واتفق مع الدول أن يكون لوالي جبل لبنان نائبين نائب ماروني وآخر درزي يتولى كل منهم في شؤون أبناء جنسه ١٨٤٥ عند

ذلك ضم السلطان مسيحيي شمال جبال لبنان إلى طرابلس فاحتج الموارنة ولم يقبل الدروز لذلك أعادت الدولة العثمانية الأمير بشير إلى حكم جبل لبنان واتفق على أن يكون لكل قائم مقام مجلس يشاركه الحكم مؤلف من خمسة قضاة وخمسة مستشارين ٢ دروز ٢ مارونبين ٢ مسلمين ٢ من المدينيين و٢ أرثوذوكس يكون اختصاصها توزيع الضرائب والنظر في القضايا الحقوقية وإذا حصل اختلاف يرفع الأمر إلى الوالي وبهذا انتهت مسألة لبنان.

الإصلاحات الداخلية. وأهمها:

١ ـ تنظيم الجندية وفرضها على المحافظات والولايات) حسب النفوس وإجراء إحصاء سكاني مع المساواة في الوظائف بين الطوائف.

٢ ـ محاربة الرشوة.

٣ ـ سيادة القانون، ومنع التسلط، أو الإعدام والتسميم جهاراً أو خفية.

٤ ـ تحديد نفقات العساكر والأساطيل وكل لوازمهم بموجب قوانين.

٥ ـ تبليغ ذلك لسفراء الدول المتحابة الموجودين بالأستانة.

حرب القرم:

كانت روسيا تعتبر نفسها حامية للأرثوذوكس وفرنسا للكاثوليك وأنكلترا للبروتستانت والدروز، وطلبت فرنسا بعهد نابليون الثالث إعادة النظر في امتيازها للدفاع عن الكاثوليك وأولوية الكاثوليك في بعض الكنائس فعارضت روسيا. واتفقت مع إنكلترا على إضعاف نفوذ فرنسا في الشرق ولكنها رفضت لأن ذلك سيوصل روسيا إلى القدس ويهدد طريق الهند.

قامت روسيا بإرسال بعثة إلى استانبول برئاسة الأمير متشيكوف ومعه ضباط من كافة الأسلحة البرية والبحرية. وعرضت روسيا على فرنسا إعطائها تونس، فخافت فرنسا وأرسلت أسطولها إلى سلامين في اليونان. أنذرت روسيا الدولة العثمانية بقبول طلباتها، ولذا شعر الإنكليز بسوء نية روسيا وانضافت إلى فرنسا وأرسلت أسطولها من مالطة لينضاف إلى الأسطول الفرنسي.

هددت روسيا باحتلال ولايتي الأفلاق والبغدان. ولما لم يجب السلطان. تقدمت جيوشها فخافت الدول من هذا الأمر وأن تصبح الدولة العثمانية تحت سيطرة روسيا ووعدت السلطان بالمساعدة عند ذلك عبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب. ولكن عمر باشا عبر نهر الدانوب وانتصر على الجيوش الروسية سنة ١٨٥٣م وأدهش العالم بانتصاراته ولكنه عاد إلى حصونه بسبب موسم الثلج.

أما في القوقاز فقام الجيش العثماني بقيادة عبده باشا، واحتل قلعة سان تقولا وانتصر على الجيش الروسي. لذلك طلب امبراطور روسيا من النمسا المساعدة خوفاً من تدخل انكلترا وفرنسا في ٢٨ صفر ١٢٧٠هـ الموافق ٣٠ تشرين ثاني ١٨٥٣م. قامت البحرية الروسية بمفاجأة الأسطول العثماني في ميناء سينوب على البحر الأسود ودمرته رغم تعهدها بعدم القيام بأي أمر عدواني لذلك دخل الأسطولان الإنكليزي والفرنسي إلى البحر الأسود. وأرسل نابليون الثالث رسالة إلى قيصر روسيا شرح له ويبين له ما قامت به روسيا من الغدر والخيانة وطلب منه خروج القوات الروسية من الأفلاق والبغدان إلى ما كانت عليه قبل الحرب مقابل خروج الأساطيل الفرنسية والإنكليزية من البحر الأسود، وعقد مؤتمر دولي لبحث القضية. ولكن روسيا رفضت فكانت الحرب.

أرسلت فرنسا خمسين ألف جندي وإنكلترا خمسة وعشرين بشرط أن تنسحب هذه القوات بعد خمسة أسابيع من عقد الصلح مع روسيا واتفقت فرنسا وانكلترا على حفظ أملاك الدولة العثمانية وعدم ضم أي جزء منها لروسيا، وأن لا يتم الصلح بين الدولة العثمانية وروسيا إلا بعد موافقة الحكومتان الفرنسية والإنكليزية.

قامت الأساطيل الفرنسية والإنكليزية بمحاولة إجلاء الرعايا الإنكليز عن ميناء أودسا فأطلقت القلاع الروسية النار على سفن الإنكليز لذلك أطلقت سفن انكلترا وفرنسا النار على المدينة وقلاعها وهدمتها والتهمت الحرائق في المدينة، ثم ذهبت إلى ميناء سباستبول ودمرته وخربت الأسطول الروسي وكل الثغور الروسية فأعلن الأمبراطور الروسي تيقولا الحرب وأصدر أوامره بمحاصرة مدينة سلستريا بستين ألف مقاتل، ولم يكن بداخلها إلا خمسة عشر ألف مقاتل أكثرهم من مصر وبلاد

الشام ورغم مقتل موسى باشا في الدفاع عن المدينة، ولما علمت الدول المتحالفة بهذه المقاومة سارعت لفك الحصار عن المدينة وكانت القوات الروسية قد تحملت خسائر كبيرة فهربت باتجاه روسيا وقامت القوات النمسوية بحماية إنسحابها كي لا تلحق بها القوات العثمانية وذلك لأن فرنسا وانكلترا اتفقت مع النمسا أن تحتل الأفلاق والبغدان إذا أخلتها روسيا.

وبمقتضى هذا الاتفاق انسحبت الجيوش الروسية من الأفلاق والبغدان واحتلتها النمسا.

وفي تموز ١٨٥٤م قرر الحلفاء نقل ميدان القتال إلى روسيا وأجمعوا على إرسال العساكر إلى جزيرة القرم ومحاصرة سباستيبول.. وأرسل ستين ألف جندي من الفرنسيين والإنكليز والأتراك وعلى نهر ألما حصلت أول موقعة انهزم فيها الروس وفي محرم هجم الحلفاء على سباستيول ولكنهم لم يتمكنوا منها وخرج وراءهم الجنرال الروسي لبراندي ولكنه هزم وعاد إلى سباستيبول وفي تشرين ثاني بعد اشتداد البرد خرج الروس من قلاعهم وهاجموا الجيش الإنكليزي ورغم أن عدد الجنود الإنكليز لا يتجاوز العشر فقد ثبتوا حتى جاءت الجيوش الفرنسية والعثمانية وفي شباط ١٨٥٥م استغل الروس فصل الشتاء وهاجموا القوات المصرية فردهم عمر باشا القائد العثماني على أعقابهم وقتل منهم عدداً كبيراً وقتل في المعركة القائد المصري سليم باشا المسمى أبو طربوش وحصل هذا الانتصار دون تدخل فرنسا وإنكلترا أو النمسا ومرض الأمبراطور الروسي من أثر هذه الهزيمة وتوفي بعد ثلاثة أيام من تبلغه نبأ الهزيمة.

وفي يناير ١٨٥٥م دخلت دولة بيمونت الحرب ضد روسيا وأرسلت ثمانية عشر ألف جندي وفي ٩ أيلول سقطت مدينة سباستبول بعد أن دمرها الروس قبل انسحابهم.

وهنا هددت النمسا والنروج والسويد بأن روسيا إذا لم تخضع لمقررات الدول فإنها ستدخل الحرب ضدها... مما دعى روسيا إلى الموافقة على عقد مؤتمر في باريس ١٨٥٦م الذي كانت مقرراته:

١ ـ الصلح بين فرنسا وانكلترا وسردينيا والدولة العثمانية وبين روسيا.

٢ ـ إخلاء المدن التي فتحت زمن الحرب.

٣ ـ التعهد بإعادة مدينة فارص وقلعتها التي استولت عليها روسيا خلال الحرب.

٤ ـ تعهد إمبراطور فرنسا برد سباستبول إلى روسيا وكذلك كل الأراضي في البحر الأسود.

٥ ـ العفو عن كل الأشخاص المحاربين وكذلك أسرى الحرب وإعادتهم إلى أوطانهم.

٦ ـ احترام استقلال الدولة العثمانية.

٧ ـ المساواة بين المسلمين وباقي الأديان في الدولة العثمانية.

٨ ـ حياد البحر الأسود وحرية التجارة فيه وعدم وجود أساطيل حربية فيه ما عدا سفن قليلة للأمن تكون لروسيا والدولة العثمانية.

٩ ـ حرية الملاحة في نهر الدانوب وإزالة القلاع عن جانبيه.

١٠ ـ الأراضي التي تخلت عنها روسيا في الأفلاق تكون تحت سيادة الباب العالي وتكون إدارة مدينة في الأفلاق والبغدان.

١١ ـ تبقى الصرب تحت سلطة الدولة العثمانية تحت كفالة جميع الدول.

١٢ ـ أملاك روسيا والدولة العثمانية في آسيا تبقى كما كانت قبل الحرب.

١٣ ـ التجارة بين الدول تبقى كما كانت قبل الحرب.

إطلاق المدافع على مدينة جدة:

ثار السكان في الحجاز على المسيحيين وطلبوا خروج المسيحيين من جدة، وهاجموا دورهم مما دعى الدولة العثمانية لإرسال فؤاد باشا إلى جدة وأتى نامق باشا إلى جدة وحكم على المجرمين بالإعدام. وطلب موافقة الباب العالي ولما رفض ضرب الأسطول الإنكليزي مدينة جدة حتى أعدم المجرمين.

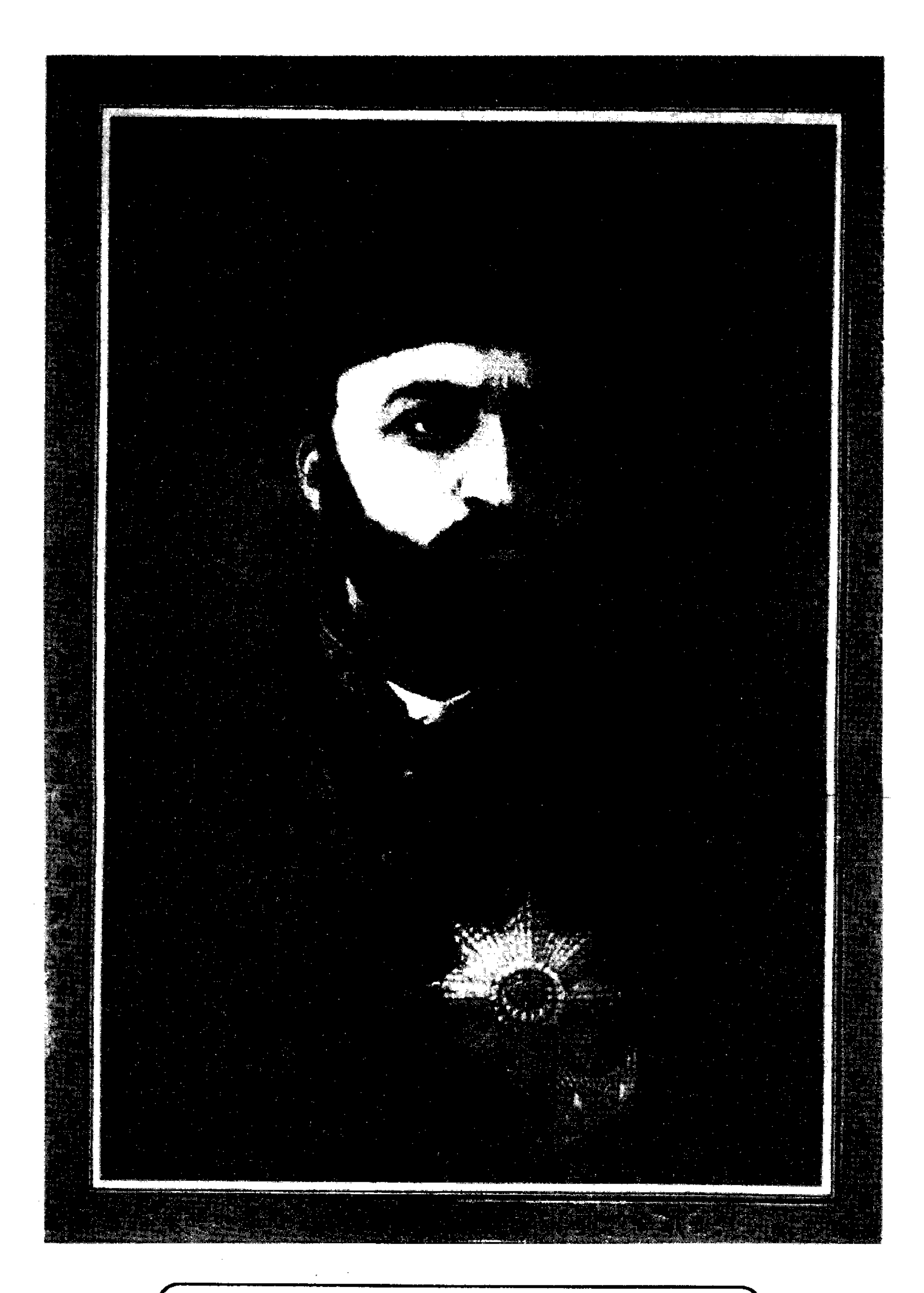
احتلال فرنسا للبنان:

استتب الأمن والهدوء في أوربا بعد حرب القرم ومؤتمر باريس. لذلك اتجهت الدولة نحو البلاد الإسلامية ففي عام ١٨٥٩م تعدى الموارنة على الدروز بتأييد من فرنسا وقام الدروز بالثأر وامتد النزاع إلى جميع بلاد الشام، دمشق، واللاذقية، وطرابلس، وصيدا، وزحلة، ودير القمر، وقام الأمير عبد القادر الجزائري وكثير من العائلات بحماية المسيحيين بدمشق واتهم الأوربيون كل من أحمد باشا والي دمشق بمساعدة الدروز، كما قام الصدر الأعظم فؤاد باشا بالإسراع إلى دمشق ومعه خمسة آلاف جندي وشنق كثيراً ممن كانت لهم يد في الحوادث من دروز ومسلمين سنّة ومسيحيين أو من مستخدمي الحكومة.

قامت فرنسا بإرسال ستة آلاف جندي إلى لبنان باسم حماية المسيحيين فوجدت الأمن مستقر. وقد بقيت الجيوش الفرنسية سنة في جبل لبنان وعادت إلى بلادها موهمة المسيحيين أنها حاميتهم. وقد حضرت إلى بيروت لجنة أوربية وقررت دفع خمس وسبعين مليون قرش لمن حرقت دورهم دفعتها الدولة العثمانية.

وتوفي السلطان عبد المجيد في ١٧ ذي الحجة ١٢٧٧هـ الموافق لـ ٦ حزيران ١٨٦١م وكانت مدة حكمه ٢٢ سنة ونصف وبويع أخوه بالخلافة.



الخليفة العثماني عبد العزيز

٣٢ـ الخليفة العثماني عبد العزيز بن محمود الثاني
١٨٦١ ـ ١٨٧٦

ولد ١٤ شعبان ١٢٤٥هـ الموافق لـ ٨ شباط ١٨٣٠م. استلم الحكم ١٨ ذي الحجة ١٢٧٧هـ/٧ حزيران ١٨٦١م. وسار الخليفة إلى جامع أبي أيوب الأنصاري ثم سار إلى قبر السلطان محمد الفاتح ثم قبر والده محمود الثاني.

أقر السلطان كافة المسؤولين في مناصبهم ما عدا ناظر الجهادية (وزير الدفاع) رضا باشا فإنه أبدل بنامق باشا وأهم أعماله:

الجبل الأسود: كان يتمتع باستقلال ذاتي باعتبار مسالكه صعبة لذلك صعب على الدولة احتلاله. وعندما استلم حكمه الأمير دانيال فصل السلطة السياسية عن الدينية التي كانت تتقرب من روسيا، وحاول التقرب من النمسا فأرسلت الدولة العثمانية القائد الشهير عمر باشا عام ١٨٥٣م فتوسطت النمسا وروسيا فأوقف القتال قبل أن يحتل كامل الجبل الأسود ولما عادت تلك المناطق إلى الثورة عام ١٨٦٠م عاد عمر باشا. فسحق ثورة الهرسك ثم تحوَّل إلى الجبل الأسود وهاجمه من ثلاثة إتجاهات اضطرته إلى التسليم في ربيع الأول ١٨٦٢م.

بلاد الصرب: كانت بموجب معاهدة باريس مستقلة تحت السيادة العثمانية مع حق وضع حامية في ست قلاع على أن لا يخرج المسلمون من هذه القلاع. ومع الزمن انتقل قسم من المسلمين وسكنوا مع المسيحيين ولكن حوادث التوتر بين المسلمين والمسيحيين زادت فسلط الباشا المدافع على مدينة بلغراد.

استنجدت بلغراد بأنكلترا فطلبت منها إجابة طلبات العثمانيين ولكن بناءاً على إلحاح فرنسا والنمسا انسحب العثمانيون من قلعتين وبقيت لهم أربع قلاع.

وهذه القلاع بلغراد ـ سمندرية ـ فتح إسلام ـ شباتس.

وترك المسلمون منازلهم وانتقلوا إلى القلاع وهذا شاهد على التعصب العرقي عند الصرب.

الأفلاق والبغدان (رومانيا):

انتخبت الولايتان الأمير كوزا الذي اعترفت به معاهدة باريس كما صدر مرسوم بتوحيد الإمارتين وأن يكون لهما مجلساً نيابياً واحداً ووزارة واحدة. وكانت أموال الأوقاف المسيحية التي تعادل سدس البلاد تذهب إلى بطرك استانبول ومنه تموَّل الكنائس في فلسطين والطور فألغى الأوقاف وجعلها للدولة سنة ١٨٦٣م وأسس مجلساً دينياً (سينود) وجعل تعيين الكهنة من سلطة الدولة.

قضية قناة السويس:

إن أهمية وصل البحر الأبيض المتوسط مع البحر الأحمر تعود إلى عهد الفرعون المصري نخاو قال هيردون إن طول القناة بين البحرين مسيرة أربعة أيام وعرضه كاف لمسيرة سفينتين في آن واحد وهو يتفرع عن نهر النيل عند مدينة بيلوزه حيث يتجه شرقاً إلى البحر الأحمر، كان يُظن قَبْلاً أن البحر الأحمر أعلى من البحر الأبيض المتوسط ولكن المهندس لبنان باشا المصري أبطل هذا القول.

وبمساع من فرنسا وخديوي مصر وفريد بناند دولسبس وقع السلطان عبد العزيز فرماناً في تشرين الثاني ١٨٥٤ بعد انتهاء حرب القرم وتوثيق السياسة الفرنسية مع السلطان ومنها:

١ ـ تكون القناة ملك للشركة لمدة ٩٩ عاماً من بدء الملاحة فيها.

٢ ـ إنشاء قناة بين النيل والبحر المالح.

٣ ـ تتنازل مصر عن الأراضي غير الصالحة للزراعة على جانبي القناة.

٤ ـ تقدم مصر العمالة مقابل قرش واحد للعامل كل يوم.

٥ ـ لم تباع أسهم الشركة لذلك اشترتها الحكومة المصرية بـ ثلاثة ملايين وخمسمائة وخمسين ألف جنيه ثم ساقت العمال قهراً للعمل بها..

بدء العمل قبل موافقة الدولة العثمانية. وأرسلت الدولة العثمانية عندما علمت ببدء العمل في عام ١٨٦٣م كتاباً محتواه:

١ - إن امتلاك الشركة لأراضي على ضفتي القناة يعني امتيازاً وامتلاك دولة أجنبية أراضي في مصر تسمح لها بالتدخل.

٢ - المستعمرات الزراعية يمكن جلب عمال لها من الخارج تؤدي إلى التدخل في مصر.

٣ - لا يجب استعمال العمال المصريين قهراً وكان عددهم ستين ألفاً يعملون بطريق السخرة.

وأمهلت الدولة العثمانية الشركة شهراً للجواب وإلا يسقط حقها.

طلبت الشركة تحكيم نابليون الثالث فحكم بمايلي:

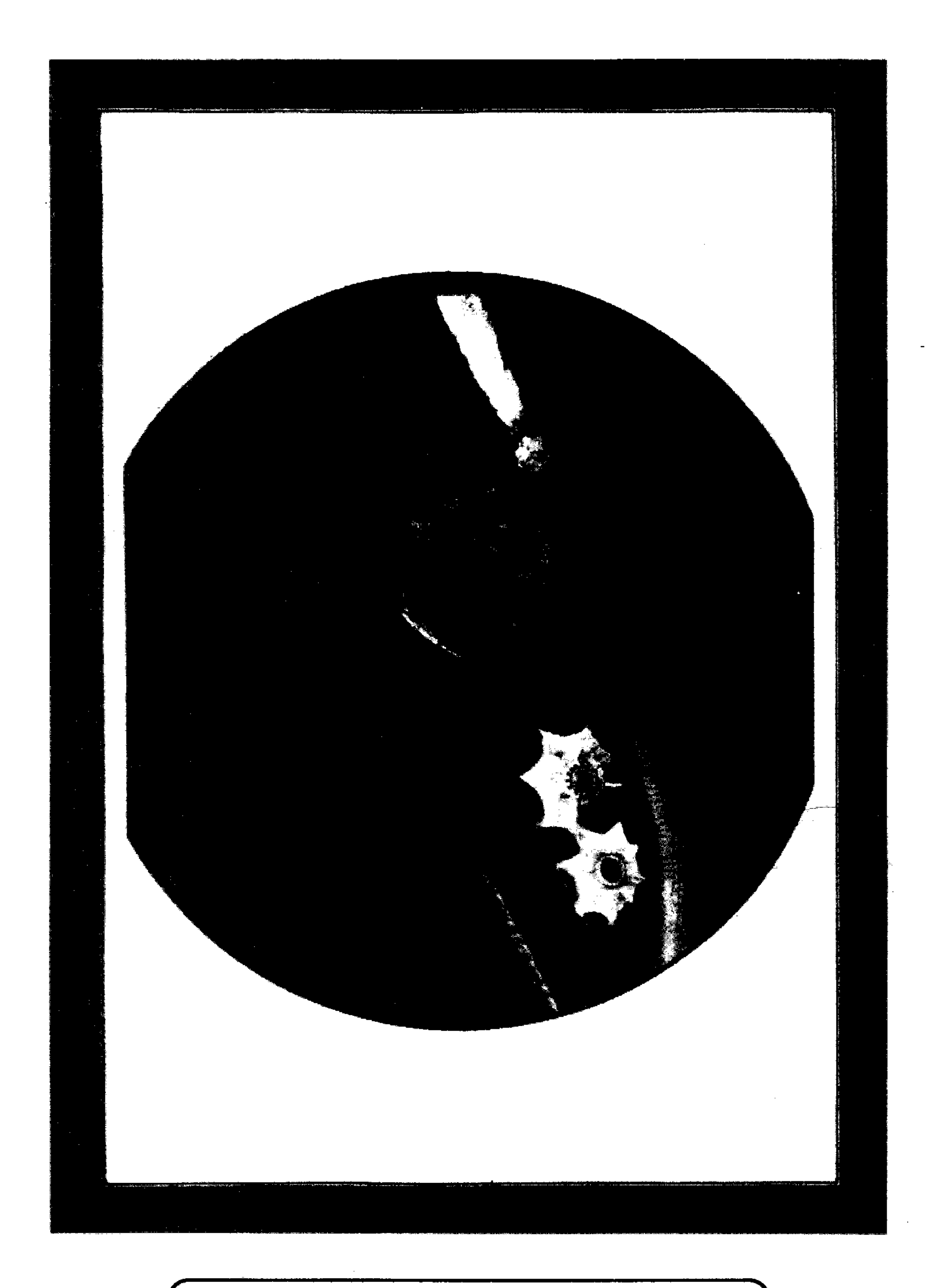
١ - تدفع الحكومة المصرية ثمانية وثلاثين مليون فرنك مقابل شرط تقديم العمال.

٢ - تدفع مصر ثلاثين مليون فرنك مقابل ترك الأراضي.

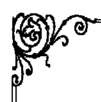
٣ - تدفع مصر ستة عشر مليون فرنك مقابل التخلي عن ترعة المياه الحلوة وتلزم الحكومة بحفرها وجعلها صالحة للملاحة وعلى الشركة تطهيرها مقابل / ٣٠٠/ ألف فرنك سنوياً وقد قبلت مصر مجبرة على تطبيق هذه الشروط وحفرت القناة وجرى افتتاحها وكلفت احتفالات الافتتاح أكثر من ثلاثة، ملايين من الجنيهات.

عزل السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد:

قام السلطان عبد العزيز بزيارة باريس وحضور معرض باريس وهناك حضر في بعض المسارح والمراقص كما سافر لمصر. وأتى بمطبعة لأستانبول وأصدر مجلة الأحكام العدلية، ولكن العلماء اعتبروا ذلك تبذيراً ومنعوا طباعة القرآن الكريم في المطبعة لذا أفتوا بعزله بادعاء أنه مختل الشعور وليس له إلمام بالأمور وتبذيره لأموال الدولة وإخلاله بالأمور الدينية والدنيوية، وبقاؤه مضراً بالمصلحة العامة اجتمع المتآمرون في المدرسة الحربية وقام سليمان باشا رئيس المدرسة ومعه مائة من التلاميذ بحصار السراي وتوجه إلى السلطان الجديد وحصلت المبايعة للسلطان الجديد يوم الإثنين ٦ جماد الأول ١٢٩٣هـ الموافق لـ ٣٠ أيار ١٨٧٦م.



الخليفة العثماني مراد الخامس



٣٣ـ الخليفة العثماني مراد الخامس بن عبد المجيد الأول

١٨٧٦ ـ ١٨٧٦

هو ابن السلطان عبد المجيد ولد ٢٥ رجب ١٢٥٦هـ الموافق ٢٢ أيلول ١٨٤٠م استلم الخلافة في ٦ جماد الأول ١٢٩٣هـ ٣٠ مارس ١٨٧٦م كان متعلماً مهذباً محباً للمساواة، وكان يتقن الفرنسية. فتمكن بذلك من الاطلاع على مبادئ ثورة ١٢٠٥هـ. والتعلق بها. وكان يكتب الشعر، هذا وقد كان ميالاً للخمر ولحياة اللهو والمجون.

عزل من الخلافة يوم ١٧ شعبان ١٢٩٣هـ الموافق لـ ٧ أيلول ١٨٧٦م وسبب عزله كان السلطان مراد بسبب ما حدث لسلفه، وخلعه وكيف أنه فوجىء بعدم إخلاص وزرائه وعسكره وكيف أنه أصبح أسير هؤلاء الوزراء وقام الوزراء بادعاء جنونه وخلعوه وعينوا السلطان عبد الحميد الثاني.

وفي فترة حكمه القصيرة كانت الدولة العثمانية تواجه الخطر الروسي عاش مراد الخامس بعد عزله في قصر جراهان حتى وافته المنية سنة ١٣١٢٠هـ عن عمر يناهز أربعة وستين عاماً.






الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني

٣٤ــ الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول

١٨٧٦ ــ ١٩٠٩

تولى ١٨ شعبان ١٣٩٣هـ ٧ أيلول ١٨٧٦م حيث تقلَّد سيف عثمان الأول في جامع أبي أيوب الأنصاري، وزار خلال عودته والده السلطان عبد المجيد، ثم زار ضريح السلطان محمد الفاتح ثم أصدر خطاً هما يونيا مؤرخاً (٢١ شعبان ١٢٩٣هـ/ ١٠ أيلول ١٨٧٦م).

وفي هذا الخط إعلان الحرية والشورى وانتخابات نيابية والوحدة العثمانية أمام العدو، وعهد بالوزارة إلى الإصلاحي مدحت باشا وأصدر القانون الأساسي للدولة وأطلق المدافع من جميع القلاع لحصول الشعب على الحرية والمساواة بين جميع الأديان وحرية التعليم وإيجاد مجالس بلدية في كل مدينة ومجلس للتعليم ومجلس للقضاء في كل مدينة وحرية المطبوعات.

خاف السلطان من تآمر مدحت باشا عليه لاتصاله مع سفراء الدول فعزله بعد شهرين، وجعله والياً على دمشق، حيث بنى السوق الطويل الذي يمتد من باب الجابية إلى باب شرقي وسمي سوق مدحت باشا معللاً ذلك بظهور أمارات الاختلال بالأمن العام وأعلن الأحكام العرفية.. وعهد بالوزارة إلى محمد أدهم باشا كما غيّر أغلب الوظائف المهمة...

وبعد ذلك في ٤ ربيع أول ١٢٩٤هـ الموافق ٦ آذار ١٨٧٧م افتتح البرلمان العثماني المنتخب من كل أنحاء الدولة العثمانية.

الحرب مع روسيا:

في أول عام ١٨٧٥م. قامت الجماهير في الهرسك بتحريض من الجبل الأسود والصرب للاستقلال وساعدت النمسا في الثورة لأنها تطمع بالبوسنة والهرسك،

وقدم الثائرون عريضة يطلبون تخفيض الضرائب ولكن الدولة العثمانية عززت قواتها وأعطاهم السلطان تعيين قضاة من الأهالي بطريق الانتخاب والمساواة بين المسيحيين والمسلمين بالضرائب ولكن القتال اشتد بسبب حروب الدولة ومساعدة النمسا للثائرين ولكن الغازي مختار باشا قضى على الثورة، واتفقت النمسا مع روسيا وألمانيا وقدمت للباب العالي طلباً بتعضيد طلبات الثائرين. وقدمت لائحة الدول إلى الباب العالي عن طريق إنكلترا فما كان من الباب العالي إلا أن أصدر عفواً عن الثائرين ولكن الثائرين طلبوا جلاء القوات العثمانية والعفو من الضرائب وأن تدفع لهم الدولة تعويضات عما هدم من منازلهم... وعقب ذلك حدث في سلانيك أن فتاة مسيحية بلغارية اعتنقت الدين الإسلامي وحضرت إلى سلانيك لإثبات إسلامها شرعاً فاختطفها المسيحيون وأخفوها في القنصلية الأمريكية فاجتمع المسلمون في أحد المساجد ولما حضر القنصليين الفرنسي والألماني ودخلا المسجد اعتدى عليهما بعض الشباب...

قدمت ألمانيا والنمسا وروسيا أعضاء الحلف المقدس لائحة إلى السلطان في ١٢ أيلول ١٨٧٥م تطالبها بالاتفاق مع الثائرين خلال شهر وتهدد باستعمال القوة ولكن الباب العالي رفض هذه اللائحة ولم توافقه عليها انكلترا...

أما في بلغاريا فكانت روسيا ترسل لكل السلاف بدافع عرقي المال والسلاح وتحرض البلغار على طلب الاستقلال فقاموا يطالبوا بالاستقلال. وفي أيلول ١٨٧٥م حصلت حركة عصيان أطفئت بسرعة وأرسلت الدولة بعض المتطوعة لمنع تجدد الثورة وفي أيار ١٨٧٦م قام البلغار بذبح المسلمين في كثير من المدن ولما وصل الخبر إلى الوالي طلب نجدات من استانبول ووزع الأسلحة على المسلمين ولمّا وصله المدد قمع الثورة. ولكن المغرضين في أوربا أهاجو الرأي العام مما دعى سفير انكلترا في الأستانة إلى تقديم طلب إلى السلطان بتعويض الثائرين وتعيين حاكم مسيحي على بلغاريا.

وقامت روسيا في نفس الوقت بالإيعاز إلى أميري الصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب على الدولة وأرسلت الجنرال تشرنايف فاتح مدينة طشقند ومذلّ المسلمين في آسيا.

لما رأت الدولة العثمانية ذلك أعدت جيشاً من أربعين ألف مقاتل في مدينة نيش. وفي حزيران ١٨٧٦م أرسل الباب العالي رسالة إلى صربيا يسألها عن سبب تجميع العسكر فأجاب أميرها أنها ـ أي الحملة ـ لمنع تعدي الألبان.

لما تمت الاستعدادات في صربيا طالبت بإخماد الثورة في البوسنة والهرسك لأن وجود العساكر العثمانية فيها مهدد لأمن صربيا ولمّا رفض السلطان، اجتازت جيوش الصرب الحدود بقيادة الجنرال تشرنايف الروسي.

ولكن الدولة العثمانية بشجاعة رجالها منعت الصرب من الاتصال مع بلغاريا وردت جيوش الثائرين وبدأت بالزحف على بلغراد واحتلت مدينة نياشيواز شمال نيش. وتوقفت الحرب للراحة.

عبر العثمانيون النهر جنوب بلغراد وانتصروا على الصرب بالقرب من بلغراد واستمر القتال فطلب أمير الصرب من الدول الأوربية التوسط بينه وبين العثمانيين فأبلغ السلطان الدول بمايلي:

١ ـ أن يأتي أمير الصرب إلى مقر الخلافة ليقدم الخضوع.

٢ ـ إعادة احتلال القلاع الأربعة في صربيا.

٣ ـ أن لا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة آلاف مقاتل، وبطاريتي مدفعية.

ولكن الدول الأوربية رفضت هذه الاقتراحات وتقدم سفير انكلترا بطلب إرجاع حالة الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب وتأسيس إدارة وطنية في البوسنة والهرسك وكذلك في بلاد البلغار.

أجاب الباب العالي، بأن الموافقة على هذه المذكرة من حق مجلس المبعوثان العثماني وأنه لا يرى ضرورة لإبرام اتفاق مع الدول بهذا الخصوص... وعاد القتال وتمكنت القوات العثمانية من هزيمة الصرب واحتلال جونيس ومدينة دليجراد... وزحف على مدينة بلغراد. هنا تدخلت روسيا وطلبت هدنة مدتها شهرين فقبل الباب العالي ذلك.

وفي ٥ تشرين أول عرض وزير خارجية انكلترا على باقي الدول الأوربية عقد مؤتمر في الأستانة لتسوية حالة مسيحيي الدولة العثمانية منعاً لحصول الحرب بينها

وبين روسيا؛ اجتمع مندوبي الدول في الأستانة ولكن مجلس المبعوثان العثماني فاجأه بإعلان المساواة بين المسلمين والمسيحيين في الدولة العثمانية، ورفض السلطان طلباتها ووقفت المجر على الحياد مؤيدة الدولة العثمانية وأبرم السلطان الصلح مع إمارة صربيا على أن تنسحب القوات العثمانية وتعود كما كانت عليه قبل الحرب أما الجبل الأسود فاكتفت الدولة العثمانية بتجديد الهدنة معه أما روسيا فلما رأت أنها فشلت في البلقان بعد مساواة السكان مسيحيين ومسلمين في الدولة العثمانية. تقدمت بطلب إلى الدولة العثمانية لتحسين أحوال النصارى.. ووقعت اللائحة من قبل انكلترا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا وروسيا رفض الباب العالي المذكرة فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية اجتازت تخوم رومانيا... فأرسلت بعض السفن الحربية إلى نهر الدانوب لإطلاق القنابل على الساحل ولكن رومانيا انضافت إلى روسيا ونادت بالاستقلال واشتركت في الحرب مع روسيا. وقد ثبت الجنود العثمانيون على قلاعهم في الطونة رغم تجاوز الجيوش الرومانية والروسية للنهر.

اجتازت الجيوش الروسية مضائق جبال البلقان الموصلة لشيبكا ووسط بلغاريا بين صوفيا والبحر الأسود وبدا الخوف في استانبول وخاف الناس على دار السعادة. وأعلنت الأحكام العرفية.

وفي هذه الأثناء أتى الغازي عثمان باشا من ودين لمساعدة مدينة نيكوبلي ولما بلغه سقوطها قصد مدينة بلفنة ذات الموقع الحربي بين مضائق جبال بلغاريا وحصنها، ولكن الروس هاجموا المدينة فردوا على أعقابهم وأعادوا تنظيم قواتهم وجمعوا بثلاثين أورطة من المشاة وقدرها من الخيالة ومائة وستة وثمانين مدفعاً ولكنهم فشلوا، وانتشرت جثثهم في الوديان ولما وصل الخبر إلى السلطان منح رتبة مشير. بعد هذا النصر بدأ الهجوم العثماني ولكن حاكم رومانيا جمع مئة ألف مقاتل ووصلت الإمدادات للروس فعاودوا الهجوم وتم حصار بلفنة وابتدأت المعارك وبعد أن أتموا حصارها بدأ الهجوم واستمر القتال حولها فعزم عثمان باشا على الخروج من القلاع لأنه لم يعد معه ذخائر ولا طعام... وصار المدد مستحيلاً.. وفوجىء الروس بخروج الجنود العثمانيين مهللين مكبرين وهاجموا

الاستحكامات الروسية كالسيل المنهمر على الخط الروسي للحصار فتجاوزوه وكذلك الخط الثاني وكان من الممكن تحطيم الخط الثالث والنصر لولا رصاصة أصابت عثمان باشا فسقط على الأرض وظن الجنود أنه قتل فرفعوا الراية البيضاء للتسليم فأوقف الروس القتال وبدأت المفاوضات للصلح وطلب جانتسكي القائد الروسي مقابلة عثمان باشا وسار إليه وطلب إليه الطلب إلى جنوده بإلقاء السلاح وأتى له بعربة نقلته إلى بلقنة وفي اليوم الثاني توجه إلى القيصر اسكندر الثاني فقام له إجلالاً ورد إليه سيفه إكباراً لشجاعته ونقل إلى مدينة كركوف حيث أقام حتى انتهاء الحرب.

لم يكن مع عثمان باشا إلا خمسين ألف جندي فقد بعضهم في حروب الصرب والجبل الأسود. ولم يكن معه إلا ٧٧ مدفعاً بينما كان الجيش الروسي ١٥٠ ألف جندي يساعده (١٠٠) ألف جندي روماني و٦٠٠ مدفع وأما الجنود فقد أحرقوا إعلامهم أو دفنوها بالأرض حتى لا تقع في يد العدو.

أما في القوقاز فقد احتلت الروسيا بلاد الشركس، فارس، وداغستان فهاجر كثير من السكان حفاظاً على دينهم.

أما في أوربا فتقدم الجيش الروسي واستطاع بث الدسائس وثارت بلاد الروم والبلغار وساعد الجيش الصربي الجيش الروسي وأخيراً احتل الجيش الروسي أدرنة في ٢٠ كانون الثاني ١٨٧٨م وسار نحو الأستانة.

طلبت الدولة العثمانية التدخل الدولي ولم تجب أي دولة عليها. ولذا طلبت التفاوض مع روسيا وبعد المفاوضات صار التوقيع على اتفاقين أحدهما يقضي منح الاستقلال الإداري للبلغار والاستقلال السياسي لمكدونيا والجبل الأسود وتقرير غرامة حربية لروسيا تدفع العدوانية يوم ٣١ كانون الثاني ١٨٧٨م.

اضطربت الأفكار في أوربا بعد إشاعات عن احتلال الروس استانبول لذلك طلبت انكلترا بتوجه أسطولها لإجلاء الرعايا البريطانيين وتدخلت الدول الأجنبية خوفاً من وصول روسيا للمياه الدافئة وكانت الدولة العثمانية قد وقعت مع روسيا معاهدة سان استيفانو وكانت روسيا قد أرسلت بعض سكان طشقند لإثارة المشاكل

للدولة العثمانية وهاجموا السراية وبحثوا عن السلطان مراد وأعطوه مسدس لقتل السلطان ولكن جنوداً من سراي يلدز قصر السلطان عبد الحميد حضروا بسرعة وقضوا على الثائرين وعاد الهدوء ولكن الروس دخلوا إلى الأستانة بدعوى حماية المسيحيين وبعد عدة أيام قام الجواسيس الروس بحرق دائرة شورى الدولة وجزء من الباب العالي ودائرة الأحكام العدلية والتشريعات والداخلية وغيرها.

ولما احتجت انكلترا سحبت روسيا جنودها من استانبول الأستانة وبعد مفاوضات وقعت معاهدة سان استفانو وتنص:

١ ـ تحديد الحدود بين ألبانيا وصربيا والجبل الأسود واستقلال الجبل الأسود.

٢ ـ استقلال إمارة الصرب مع تعديل حدودها...

٣ ـ على المسلمين ببلاد الصرب ترك أملاكهم أو تأجيرها...

٤ ـ بلغاريا إمارة مستقلة تدفع خراج للدولة العثمانية.

٥ ـ يحق للباب العالي نقل الجنود والمهمات إلى البلاد التي تقع غرب بلغاريا.

٦ ـ إجراء إصلاح إداري في أرمينيا بعد خروج قوات روسيا فرض غرامة صربية ٩٠٠ مليون روبل بسبب الحرب و٤٠٠ مليون روبل لقاء الأضرار بسواحل روسيا ومئة مليون روبل بسبب حروب القوقاز وعشرة ملايين روبل خسائر المسيحيين في البلاد العثمانية وتبدل قسم من هذه التعويضات بمدن: كيليا ـ سنة ـ محمودية ـ إيساقجي ـ طولجي ـ ماجين ـ بابا طاغي.

مما دعى إلى انعقاد مؤتمر برلين ١٨٧٨م وحضرت فرنسا المؤتمر مشترطة عدم بحث أي فكرة عن مصر وبلاد الشام باعتبارها منطقة نفوذها... واحتلت انكلترا جزيرة قبرص كرشوة من السلطان لها.. وكذلك إيطاليا بالإضافة إلى الدولة العثمانية.

وكانت مقررات المؤتمر مؤلفة من ٦٤بند متعلقة برومانيا ـ وصربيا ونهر الدانوب واليونان وبلغاريا وألبانيا وتسليم الباب العالي إلى روسيا جزء من أراضي

الأناضول مثل أردهان وقارص وباطوم وكذلك سواحل بحر قزوين حتى حدود أذربيجان الإيرانية.

وتنص المادة ٦٢ على حماية الأماكن المقدسة. . .

ومحاولة الإصلاح في الدولة العثمانية التي تزعمها مدحت باشا بتأييد من الدول الأوربية لنزع الصفة الإسلامية عن الدولة العثمانية وقد أعلن الدستور والحرية للأمة العثمانية مع المساواة بين المسلمين والمسيحيين في الدولة. واجتمع مجلس المبعوثان في سراي باغجة واقتسمه السلطان وبحث في الامتيازات للدول الأوربية والاختلالات المالية بعد حرب القرم وأعلن قانون إدارة الولايات وقانون البلديات وأصول المحاكمات المدنية. ولكن الهجوم الروسي وعدم استطاعة الولايات التي حصلت على الحرية الدينية والمساواة الدفاع عن الدولة أدى بالسلطان إلى إعلان الأحكام العرفية وحل مجلس المبعوثان. وفقد أكثر المناطق الأوربية التي يؤلف المسيحيون أكثر سكانها بعد مؤتمر برلين لذلك عاد إلى سياسة إسلامية. ولما كان اليهود الصهاينة يريدون فلسطين عرضوا على السلطان السماح لهم بالسكن في فلسطين فرفض باعتقاده أن ذلك يرضي انكلترا البروتستانتية ناسياً تصريحات اللورد بالمرستون بتأييدها ترك العثمانيون خرسوه ـ كوستنجة ـ مجيدية. وجزائر *نهر الطونة واردهان قارص* ـ باطون ـ بايزيد.

هذه التنازلات العثمانية جعلت انكلترا تخشى من وقوع المضائق تحت سلطة روسيا ووصولها إلى المياه الدافئة لذلك. حيث لم يبق للدولة العثمانية في أوربا إلا مدينة استانبول (الأستانة) مدينة سلانيك وقربها جزيرة بحيثا ومنطقة ألبانيا ـ والبوسنة والهرسك.

واحتلت روسيا كامل القوقاز الجنوبي، ووصلت إلى جنوب أرمينيا أما النمسا فكانت بعد نفوذها في البوسنة والهرسك تطمع في سالونيك لميناء على البحر المتوسط حيث ليس لها من منفذ إلا ميناء تريستا.

أما إيطاليا فكانت منشغلة في تقوية وحدتها الحديثة بعد الانفصال عن النمسا لذلك أذاعت انكلترا أن كل اتفاقية بينها وبين الدولة العثمانية مخالف لمعاهدة باريس لاغية وكانت بهذا المعنى تقصد روسيا.

وهنا دعت النمسا إلى مؤتمر دولي وجندت انكلتر جيشاً من مسلمي الهند للدفاع عن الدولة العثمانية... وبدأت الاستعداد للحرب كما أن مسلمي بلغاريا أخذوا يؤذون كل من يعثرون عليه من جنود روسيا واحتموا بالجبال وبدأت المناوشات بينهم وبين المسيحيين والجنود الروس في الأستانة وفي بحرها الأسطول الإنكليزي. وفشت الأمراض في الجيش الروسي فطلب أمبراطور روسيا من ألمانيا التوسط مع أنكلترا على أن تقبل انكلترا بتشكيل دولة بلغاريا مستقلة ولكن اشترطت انسحاب روسيا من سواحل بحر إيجة خوفاً من أن تتخذها روسيا موانىء لها على المتوسط..

فألف بعض الضباط جمعيات للعمل بتأييد الصهيونية العالمية للقضاء على الدولة العثمانية باسم الحرية، وكان ذلك، ودعمت فرنسا الجمعيات العربية وانتشرت الأفكار الوطنية وحاولت الجمعيات باسم الحرية التفريق بين العرب والترك...

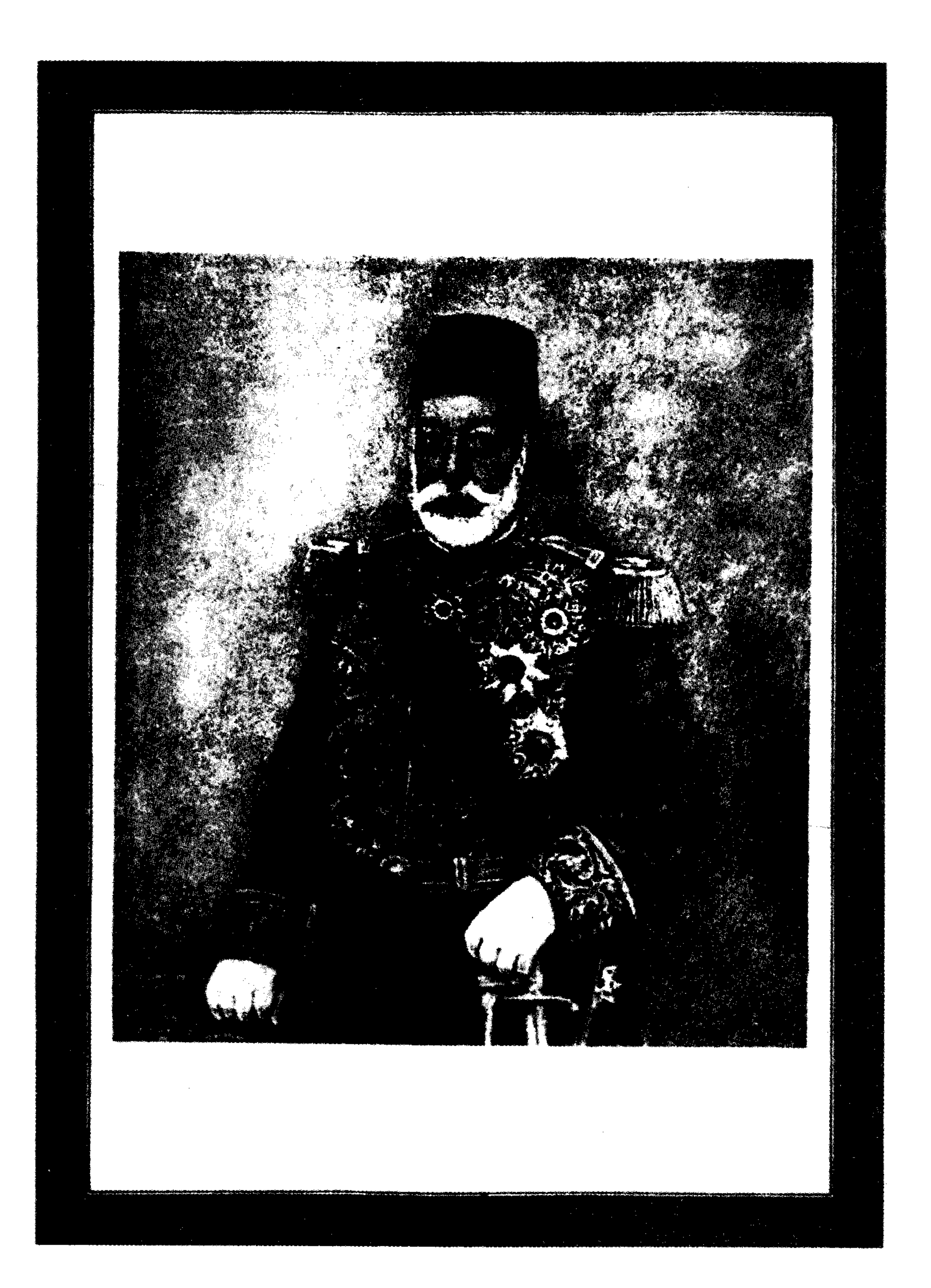
واستطاعت جمعية الاتحاد والترقي السيطرة على الفيلق الثاني والثالث في أدرنة وأزمير والرابع في أرض روم. ولم يرى السلطان إرسال الفيلق الأول الموجود في الأستانة لمحاربتهم حتى لا تجرّد العاصمة من الجند. وألف من أطلق عليهم الدستوريين عصابات فكانت عصابة نيازي باشا وعصابة أنور بك وعصابة رائف بك وعصابة حسن بك وغيرهم...

وفي شهر حزيران ١٩٠٨م أرسلت حكومة عبد الحميد شمسي باشا لاقتفاء عصابة نيازي ولكنه قتل وأرسلت فرق الأحتياط فانضمت إلى الدستوريين وفي ٢١ و٢٢ تموز أرسل الدستوريين تلغراف يطلبون فيه إعادة الدستور فما كان من السلطان إلا إعادة العمل بالدستور.

أراد السلطان إعادة نفوذه ولكن الثوار حاصروا قصره وقبضوا على أنصاره وقتلوهم وبلغ عدد القتلى (١٢٠٠) قتيل وحاصرت ثكنات اسكودار واستولت عليها وعزلت السلطان عبد الحميد يوم ٢٧ نيسان ١٩٠٩م وأعلن تتويج السلطان محمد رشاد.

وهناك رسالة من السلطان عبد الحميد موجودة في القيادة القومية في دمشق تبين أن هذا العمل كان بسبب رفضه السماح لليهود بالسكن في فلسطين، وأن أنور وطلعت وجمال وكافة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كانوا من الصهيونية العالمية ويهوداً اعتنقوا الإسلام لتحقيق رغباتها. . . باسم الحرية.



الخليفة العثماني محمد رشاد الخامس

٣٥ـ الخليفة العثماني محمد رشاد الخامس بن عبد المجيد الأول

١٩٠٩ ـ ١٩١٨

ولد ١٨٤٤م استلم الحكم في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م. وتسلَّم في عهده حزب الاتحاد والترقي، والاتحاد تعني عند هذا الحزب التتريك وكان أو أعماله تعميم المساواة بين أفراد الأمة أمام قانون واحد.

وقام الحزب بجمع الأسلحة من بلاد الروملي وكانت النمسا وأنكلترا وروسيا قد وزعت كميات كبيرة من الأسلحة.

كما قام الحزب بوضع ميزانية للدولة بعد أن تراكمت الديون على الدولة وزادت واردات الجمارك وأعطى الأموال لعرب الجزيرة السورية لزراعة أراضيهم ولكنه فتح البلاد للدول الأوربية فوقع معها معاهدة تقسم بلاد الدولة العثمانية بين الدول الأوربية ليضمن بقاءه في الحكم ومحاربة الشعور القومي لدى العرب والترك والأرمن واليونان. . . والشركس.

في جنوب العراق والكويت نفوذ انكليزي وسورية الساحلية نفوذ فرنسي وشمال العراق وداخل سورية نفوذ ألماني ومصر نفوذ إنكليزي وليبيا نفوذ إيطالي وتونس والمغرب نفوذ فرنسي والسودان نفوذ إنكليزي وأريتريا نفوذ إيطالي وكذلك الصومال وكينيا حتى حدود أوغندا. .

وكانت نتيجة هذه المعاهدة التي وقعها الاتحاديون عام ١٩١١م اعتداء إيطاليا على الحبشة. مما أثار الضباط العرب في الجيش العثماني، ورغم انسحاب الدولة العثمانية من ليبيا وتركها لإيطاليا فقد تطوع كثير من الضباط والمجاهدين العرب من سورية الطبيعية ومصر والسعودية والعراق لمحاربة الإيطاليين وكان على رأسهم

الأميرالاي علي عزيز المصري. وقام سكان ليبيا بالقتال، وعلى رأسهم السنوسيين وكان قائدهم المجاهد عمر المختار.

وفي ساحل سورية أخذت فرنسا امتياز الكهرباء والتزام وتمديد الخط الحديدي من دمشق إلى بيروت ومن بيروت إلى طرابلس وصيدا.

وفي الداخل حصلت ألمانيا على خط حديد استانبول بغداد أما الخط الممتد من حلب وحتى المدينة المنورة فقد بني من أموال المسلمين وتبرعاتهم لذلك فهو للمسلمين جميعاً، ولكنه لم يدم إلا عدة سنوات وفي عام ١٩١٤م دخلت تركيا الحرب بجانب الألمان والنمسا واستطاعت الدفاع عن الدولة العثمانية مدة أربع سنوات لم يستطع خلالها الحلفاء احتلال أي قطعة من الدولة العثمانية رغم معاملة الاتحاديين للعرب بقسوة وهم جياع عراة حبوبهم تصادر ورجالهم يقادون للمعارك. وقد حارب السوريون والعراقيون بشجاعة في معركة كاليبولي لأن انكلترا وفرنسا أرسلتا مليوني جندي لاحتلال مضائق البحر الأسود لإمداد روسيا ولكن الجنود العرب ثبتوا في القلاع مدة أربعة أشهر ولم يستطع الحلفاء النفوذ إلى المضائق وعندما حث الإنزال إلى البر خسر الحلفاء نصف مليون جندي رغم أن عدد الجنود العرب لا يزيد عن ٤٠ ألف جندي ومن جملة الذين أصيبوا من الفرنسيين الجنرال غورو الذي أصبح بعين واحدة ورجل واحدة لذلك امتلأ بالحقد على سوريا وعندما دخل دمشق زار قبر السلطان صلاح الدين بجانب الجامع الأموي وضربه بحذائه وقال جملته التي تتسم بالتحدي الصليبي: «أين أنت يا صلاح الدين لقد أتيناك».

كانت نتيجة المجاعات في بلاد الشام أن مات أكثر من نصف السكان وقتل أكثر شباب الشام في الحملة العثمانية غير المنظمة على مصر.

ثار العرب بقيادة شريف مكة بعد مجازر الشهداء في سورية ولبنان وتمكنوا بمساعدة انكلترا التي وعدتهم بمراسلات حسين مكماهون باستقلال البلاد العربية ولكن انكلترا نكثت بوعودها فأعلنت وعد بلفور في تشرين الثاني ١٩١٧م وتركت

فرنسا تنزل جنودها على الساحل السوري. بمساعدة الصهيونية العالمية. هزمت الدولة العثمانية بعد أن ظلت صامدة مدة أربع سنوات وقد مات محمد رشاد قبل الاستسلام بشهور من غيظه لأنه كان عالماً بالتاريخ ولكن لم يكن بيده شيء كان يهود الدونما مصطفى كمال وأنور وطلعت وجمال يحكمون الدولة العثمانية.






الخليفة العثماني محمد وحيد الدين



٣٦ـ الخليفة العثماني محمد وحيد الدين
محمد السادس
١٩١٨ ـ ١٩٢٢



خرج العثمانيون في الثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٨م من الحرب العالمية الأولى إثر هدنة مودروس. وتوفي السلطان محمد الخامس قبل أشهر من انتهاء هذه الحرب، وخلفه محمد وحيد الدين (محمد السادس). وقد أصبحت الدولة العثمانية بعد التسوية قاصرة على تركيا بعد أن احتل الجيش البريطاني العراق حتى الموصل والشام وحلب. وسيطرت قوات التحالف على المضائق، وأعادت إغلاقها في وجه السفن الحربية. وفرضت على تركيا معاهدة سيفر في العاشر من آب عام ١٩٢٠م. وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة:

١ ـ سلخ الولايات العربية عن الدولة العثمانية.

٢ ـ حصول اليونان على جزر إيجة ومنطقة تراقيا.

٣ ـ منح أزمير والأقسام الداخلية التابعة لها استقلالاً داخلياً تحت إشراف اليونان.

٤ ـ وضع منطقة أضاليا تحت الإشراف الإيطالي.

وقّع الخليفة العثماني محمد السادس هذه العاهدة، في حين رفضتها الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كمال. وكان السلطان قد عهد إليه العمل على إنقاذ البلاد. لكنه راح يعمل وفق مخطط خاص وضعه بمعزل عن السلطان.

وقد تنازل محمد السادس عن العرش عام ١٩٢٢م، بعد أن برز مصطفى كمال في الواجهة السياسية بعد أن طرد اليونانيين واستعاد أماكن تعتبرها تركيا جزءاً أساسياً من كيانها.



الخليفة العثماني عبد المجيد الثاني

٣٧ــ الخليفة العثماني عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز

١٩٢٢ ــ ١٩٢٤م

تسلّم الحكم بعد تنازل محمد السادس. وقد تميَّز عهده بازدياد وسطوع نجم مصطفى كمال الذي هيمن على مقدرات الدولة، وأضحى الحاكم القويَّ خاصة بعد إنجاز معاهدة الصلح في لوزان في الرابع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٢٣م، وبموجب هذه المعاهدة بسطت تركيا سلطانها من جديد على كامل آسيا الصغرى وعلى إسلامبول وتراقيا الشرقية.

وكانت الجمعية الوطنية قد أعلنت الجمهورية التركية في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٩٢٣م، وانتخبت مصطفى كمال رئيساً لها. وكان الاتجاه السائد هو الاحتفاظ بالخلافة على الرغم من أن عبد المجيد لم يحاول أن يمارس السلطة شخصياً بشكل جدّي. ولكن سرعان ما اعتقد مصطفى كمال أنه بقاء زعيم ديني يلتف حوله المسلمون من كافة الأقطار الإسلامية سيشكل له منافسة حقيقة ربما تعصف بالمكانة التي حققها في أنظار الشعب التركي.

وفي الثالث من شهر آذار ١٩٢٤م. اتخذت الجمعية الوطنية قراراً بإنهاء دور الخلافة وإخراج الخليفة من البلاد.

وهكذا، وبسقوط الخلافة الإسلامية انتهى عهد الدولة العثمانية التي حكمت أكثر من ستمائة عام.




أسباب انهيار الدولة العثمانية

من جملة الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة العثمانية، ومن ثم انهيارها وزوالها:

١ ـ غرور العثمانيين واستعلاؤهم على الشعوب الخاضعة لهم، ثم الابتعاد عن تحكيم شرع الله سبحانه وتعالى، خصوصاً أواخر السلاطين.

٢ ـ سطحية نظام الحكم الذي مورس، حيث كان يقوم على أسس من البداوة، فهو لم يتجاوز قطاعات مثل المحافظة على الأمن الداخلي، وجمع الضرائب، وتنظيم القضاء.

٣ ـ الجمود الذي سيطر على المجتمع العثماني وأجهزة الحكم. فبعد الفتوحات التي حققها العثمانيون خلال مراحل تاريخهم، لم يتماش العثمانيون مع التطور الحديث.

٤ ـ توليّ بعض السلاطين العرش في سنٍ مبكرة جداً تراوحت أعمارهم بين سن السابعة، والرابعة عشرة، ثم انصراف البعض الآخر عن ممارسة شؤون الحكم فكانوا لا يخرجون إلى القتال. فنتج عن ذلك الفساد الذي دبّ في جسم الجيش الانكشاري.

٥ ـ رفض فتح باب الاجتهاد، فقد أصبحت الدعوة بفتح باب الاجتهاد تهمة تصل إلى الرمي بالكبائر. وهذا ما شجَّع المتغربين بالسعي الدءوب لاستيراد المبادئ والنظم من الغرب.

٦ ـ انتشار الظلم والفساد في الدولة، لقد قام بعض البشوات بأفعال قبيحة وسفكوا الدماء واغتصبوا الأموال.

٧ ـ الترف والانغماس في الشهوات، وهذا الانحراف يخالف المنهج الذي سارت عليه الخلافة العثمانية زمن قوتها. وكان من وصايا محمد الفاتح لابنه

«ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو وأكثر من قدر اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك».

٨ ـ نفوذ الحريم السلطاني في نظام الحكم. وتأثير ذلك على مصير الدولة والأمثلة من تاريخ الدولة كثيرة على دور هذا النظام السلطاني في المساعدة على انهيار الدولة.

٩ ـ نظام الإقطاع الحربي ونظام الالتزام، وتأثيرهما على قدرات الدولة العسكرية.

١٠ ـ الامتيازات الأجنبية، التي تطورت من معاهدات تجارية عادية بين دولتين إلى امتيازات تتمتع بها دولة واحدة من الدولتين المتعاقدتين في أراضي الدولة الثانية، ثم إلى جوازات رسمية تبيح تدخل هذه الدولة المتعاقدة في شؤون الدولة الأخرى.

١١ ـ البعثات التنصيرية التي مارست نشاطاً دينياً في بعض الولايات العثمانية وبخاصة في بلاد الشام ابتداء من القرن السابع عشر. حيث كانت هذه البعثات أداة طيِّعة في يد الحكومات الأوروبية تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على الولايات التي سيطرت عليها، أو تتطلع إلى امتلاكها. وغدا النشاط التبشيري من أقوى الركائز الاستعمارية.



ثانياً: الدولة العثمانية
الأبعاد الحضارية

- تمهيد.
- التنظيمات الإدارية في الدولة العثمانية.
- الآداب والثقافة.
- الفن والمعمار في الدولة العثمانية.
- الحياة الاقتصادية والصناعية في الدولة العثمانية.
- الخاتمة.

تمهيد

يعتبر الأمير أورخان بن عثمان الأول هو من أرسى دعائم الحضارة العثمانية، هذه الحضارة التي استمدت عناصرها من التراث السلجوقي وحضارة السلاجقة وبعد أن فتح أورخان مدينة أزنيق التي كانت مركزاً علمياً مسيحياً يلي استانبول، أنشأ بها جامعة إسلامية كبيرة، وبدأ بتكوين جيشه النظامي الذي واصل مسيرة الفتح والجهاد. وبدأ الطراز المعماريّ العثماني في الظهور، كما تم ترتيب الديوان الذي يساعد الحاكم في تصريف أمور الرعية.

لقد أنشأ العثمانيون جامعة خاصة داخل القصر كانت تسمى «آندرون همايون» ظلَّتَ أربعة قرون كمدرسة فنية تمدُّ الدولة العثمانية بكبار الموظفين من العسكريين وفي هذه المدرسة كان يؤتى بشبان أكثرهم من المدارس السلطانية حيث يعدّون إعداداً تربوياً مع منحهم رتبة الضباط، وكانوا يدربون على إدارة الدولة من ناحية، ويتلقون دراسات خاصة في العلوم العسكرية والمواد العلمية والدينية، كما يتدربون على السباحة والرماية والفروسية.

يقول الجنرال النمساوي كونت فارسكي عن التنظيم الحضاري العثماني: «وصل التنظيم الاقتصادي العثماني إلى درجة عالية بحيث لم يكن يعادلها نظير في الحكومات المسيحية، من الممكن إيجاد موانع شتى في القوانين العثمانية والنظم الاقتصادية التركية تمنع الاستغلال وتشجب كافة المساوئ».

«أما في ساحة العلوم: فتشهد كتب شرف الدين الصابونجي الأماسي وهو جراح عثماني عاش في عهد الفاتح بعُلُو مركزه في دراسات الأدوية الجراحية. ولدينا داود الأنطاكي بدراساته في المخ وأخي جلبي وأبحاثه في المسالك البولية، وعياشلي شعبان أفندي ـ أفندي كانت تطلق على العلميين ـ بدراساته في أمراض

النساء والولادة والأطفال. وإنشاء المجمع الطبي العثماني في القرن الخامس عشر الميلادي دليل على اهتمام الحضارة العثمانية بالعلوم. وفي هذا القرن أيضاً يخصص العالم العثماني مؤمن السنيوبي في كتابه في الطب ٢٥ باباً للأمراض العقلية والنفسية، بل خصص العثمانيون مستشفيات خاصة لهذه الأمراض، في الوقت الذي كانت أوروبا تحرق المريض عقلياً أو نفسياً... في ذلك الوقت أيضاً استخدم الطبيب العثماني الموسيقى لمعالجة الأمراض...».

وقد أنشأ العثمانيون أول كلية للطب في القرن الرابع عشر الميلادي، قبل عهد النهضة العثمانية في عهد الفاتح، وسموها بدار الطب.

أما الجانب الاجتماعي الذي يشكل مظهراً حضارياً في الدولة العثمانية. فقد كان يدخل في اختصاص الوقف، وكان ركناً أساسياً في اقتصاد الدولة. وعن طريقه نشطت الحركة العلمية في جوامع استانبول التي كانت تمثل وحدة دينية متكاملة..

وكان هناك أوقات خاصة بصرف مرتبات للعائلات المعوزة. وكان المطعم الخيري الملحق بجامع السليمانية مثلاً. قد بلغت ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل عشر ملايين دولار أمريكي. وكانت هذه المطاعم تقدم أكلاً مجانياً لعدد يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يومياً.

وفي الثقافة والمعرفة كانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والأدب والعلوم. فقد كتب العثمانيون بهذه اللغة كل شيء من كتب الفقه والفتاوى، حتى اصطلاحات العلوم كانت كلها عربية. كما كتبوا بها التراجم مثل «الشقائق النعمانية» لطاشكبري زاده، وكتبوا بها التاريخ مثل «جامع الدول» لمنجم باشي أحمد دده، وتاريخ «العلم الزاخر في علوم الأوائل والأواخر» للعالم التركي جنابي، وكتبوا المقامات مثل «مقامات عيدي».

وكانت اللغة العربية لغة التدريس في جميع المعاهد التعليمية وفي كل المراحل الدراسية وعن الفن والعمران كتب الأمير شكيب أرسلان يقول: «لقد شاد بنو عثمان في الأستانة أو استانبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والثكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمةٍ فريدٍ نظيرها. وأهم ما فيها من

المباني الجوامع لا توجد في سواها...» ومن هذه المعالم الحضارية الراقية، جامع الفاتح الذي بناه محمد الفاتح، وبنى بجانبه ثماني مدارس، ثم جامع بايزيد، وجامع السليمانية الذي يعد من أفخم جوامع الدنيا والذي بناه سليمان القانوني ونفذه المهندس العثماني الشهير سنان، ثم جامع أياصوفيا الشهير الذي حُوّل من كنيسة أرثوذكسية إلى مسجد بعد دخول العثمانيين إلى القسطنطينية عام ١٤٥٣م.

وهذا يكشف عن المعالم الحضارية لهذه الدولة العظيمة في تاريخ أمتنا الإسلامية.

التنظيمات الإدارية في الدولة العثمانية

تمكّنت الدولة العثمانية في أقل من قرنين من الزمان أنّ تمدّ جناحها شرقاً وغرباً، لتصل إلى أبواب فيينا، رافعة راية الإسلام على ما يعرف الآن بدول أوربا الشرقية واليونان وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنّمسا، كذلك امتدت إلى شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الأفريقية وحدود المغرب الأقصى غرباً، كما أنها وصلت شرقاً إلى بلاد فارس وجبال كردستان.

وقد كانت الشريعة الإسلامية هي شريعة البلاد، والقانون المدني الذي طُبّق بها تحت اسم المجلة عام (١٨٦٩م) كان عبارة عن تقنين لأحكام تلك الشريعة أخذاً بمذهب الإمام أبي حنيفة، وتطبيق الأحكام على جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين.

وقد عملت الدولة العثمانية على تطوير القوانين والنظم الإدارية، لذلك قنّنت قوانين حتى تستطيع أن تنظم شؤون الإدارة المحلية في الدولة، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع. وفي عهد محمد الفاتح شكل لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع قانون يسمى «قانون نامه» المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، تتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية، وهو يُقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه.

كما اهتمت الدولة بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة، ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع

العدل بين رعيَّته وجَدَّ في ملاحقة اللُّصوص وقُطَّاع الطُّرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتبَّ الأمن وسادت الطمأنينة في رُبوع الدولة العثمانية.

وفي عهد السلطان محمد الفاتح. أدخل بعض التعديلات الطفيفة على النظام السائد في حكم الولايات يناسب عصره، ومكانة دولته. وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى «بكلر بك» وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء، وكان يسمى «سنجق بك» وكلا الحاكمين كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية في آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلية في أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلي فكان يحكمها بعض أمراء منها، ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكلِّ دقة وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا في الثورة على الحكومة العثمانية.

وعندما تُعلن الدولة الجهاد وتدعوا أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يُجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبنية، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف «آقجة» من إيراد إقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف «آقجة» مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية.

كما كان بعض السلاطين يقومون بحركات تغيير للموظفين غير الأكفاء. وكان السلطان محمد الفاتح يركِّز على الكفائة وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

أما النظام المالي فقد كان يخضع لقواعد محكمة صارمة في جباية أموال الدولة والقضاء على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيِّع على الدولة ثروات هائلة.

إن إقامة العدل بين الناس كان يشكل الاهتمام الكبير للسلاطين والخلفاء، خصوصاً في عهد محمد الفاتح، الذي كان شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته، ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطوف في أنحاء الدولة ويمنحهم مرسوماً

مكتوباً يُبيِّن مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء، لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة. وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم، وقد أعطى هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكانت السلطان عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأشد الناس حرصاً على إنفاذها، وكان يرى أن العلماء هم في الدولة بمنزلة القلب في البدن إذا صلحوا صلحت الدولة، ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم وأكرم العلماء ورفع منزلتهم.

لقد أظهر السلطان محمد الفاتح في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لا تقلان عن كفايته ومقدرته في الناحيتين السياسية والعسكرية.

وكان النظام القضائي في الدولة العثمانية يظهر مدى ما وصلت إليه الحضارة العثمانية من رقيٍّ إنساني، فقد جاء في الدستور العثماني أن جميع المحاكمات تجري علناً، وأن الإعلامات التي تصدر عنها مأذن بنشرها. كما يحق لكل أحد أن يستخدم لدى المحكمة جميع الوسائل القانونية للدفاع عن حقوقه. كما أنه لا يجوز لأي محكمة أن تمتنع عن رؤية دعوى هي من متعلقاتها، ولا يجوز توقيف المحكم بدعوى ما. أو تأخيره بعد الشروع في رؤية تلك الدعوى، أو إجراء التحقيقات الأولية المقتضية لرؤيتها، ما لم يكلِّف المدَّعي عن ملاحقة دعواه، ولكنّ حقوق الحكومة في الدعوى النهائية تأخذ مجراها النظامي.

الأدب والثقافة

لقد اهتم العثمانيون بالأدب والشعر. فقد كان الكثير من سلاطين الدولة العثمانية شعراء. ولهم دواوين في ذلك. ويذكر المؤرخون السلاطين الذين اهتموا بالأدب والشعر، مثل السلطان سليمان القانوني فاتح بغداد، وبلغراد ووالده السلطان سليم الأول فاتح الشام ومصر، ووالده السلطان بايزيد الثاني الملقب بالوالي لقلة حروبه، ووالده السلطان محمد الفاتح، ووالده السلطان مراد الثاني. فقد كان مراد الثاني أول سلطان عثماني ينظم الشعر ويؤدي دوراً هاماً في تطوير الأدب التركي العثماني، فقد كان رأيه في اللغة الأدبية أن تكون بسيطة في مفهومها يتقبلها الناس بفهم، لذلك جاءت أشعاره سهلة بسيطة. كما كان هذا السلطان يهتم بالشعراء الذين يدعوهم إلى مجلسه يومين في كل أسبوع ليقولوا ما عندهم، ويأخذوا بأطراف الأحاديث والأسمار. وقد أنجب عصره كثيراً من الشعراء. كما أنه كان يهتم بالترجمة من اللغة العربية إلى اللغة التركية، ويشجع هذه الحركة ويغذيها ويقول البعض أنه حوَّل القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية ووصل به الأمر أنه كان يصحب الشعراء في حروبه.

أما السلطان محمد الثاني (الفاتح) فهو كما وصفوه «راعٍ لنهضة أدبية، وشاعر مجيد حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء، وعرف بأبي الفتح لأنه غلب على امبراطوريتن، وفتح سبع ممالك واستولى على مائتي مدينة وشاد دور العلم ودور العبادة. .» كان محمد الفاتح يجيد عدة لغات، وإجادته للغة العربية تفوق اللغات الأخرى، ويداوم على المطالعة في كتبها حتى قيل إن جمهرة الكتب في مكتبته الخاصة كانت عربية.

وكان الفاتح يعني بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء

ويصطفيهم وكذلك العلماء. واستوزر الكثير منهم مثل أحمد باشا ومحمود باشا وقاسم الجزري باشا، وهؤلاء شعراء، ووظف الأرزاق لثلاثين شاعراً.

وكان على اطلاع منظم مدروس بالعلوم الإسلامية، وبالفكر الإسلامي، واليوناني كما كان متضلعاً في الفلك والطب والرياضيات والكيمياء.

الترجمة:

كما تذكر الدراسات التاريخية أن محمد الفاتح كان متقناً للغة الرومية، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في بلاده وشعبه، فقد أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب «مشاهير الرجال» لبلوتارك ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له، قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي جورج اميروتزوس، ثم طلب إليه وإلى ابنه الذي كان يجيد الرومية والعربية ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغة العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة. وكان العلامة علي القوشجي ـ وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك ـ كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح وكان الفاتح مهتماً بالعربية لأنها لغة القرآن الكريم كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة في ذلك العهد. وقد طلب من المدرسين في المدارس الثماني التي كانت موجودة في الدولة أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها، ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة. وأنشأ في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم. وكان بها إثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام ١٤٦٥م.

المدارس والجامعات والمكتبات:

يذكر الأمير شكيب آرسلان في خطط الأستانة حين حديثة عن الجامعات والمدارس وخزائن الكتب أنه توجد «في الأستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها:

دار الفنون في استانبول ومكتب غلطه سرى، في بك أوغلي، والمكتب العسكري في شيشلي، ومكتب البحرية في جزيرة خلفي في بحر مرمرة، وكلها قد نبغ منها الألوف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم» أما المدارس «القديمة التي كانت تعلم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية فكانت نحو (١٧) مدرسة، أشهرها مدرسة أيا صوفيا وفيها (١٥٠) طالباً والمحمدية وفيها (٩٠٠) طالب. . .» أما المكتبات أو خزائن الكتب كما يذكر أمير البيان «فهي (٤٥) خزانة فيها (٤٦١٦٢) مجلداً، كلها كتب إسلامية أكثرها مخطوطة بالقلم، وأشهر هذه الخزائن، الخزانة التي في سراي السلاطين في طوب قبو، ثم خزانة أيا صوفيا، ثم خزانة الفاتح، ثم خزانة النور العثماني، ثم خزانة أسعد أفندي، ثم خزانة الكوبريلي، ثم خزانة راغب باشا.

ومن الخزائن المعروفة خزانة بايزيد، وفيها كان بعض أجزاء كتاب «الإكليل» النادر الوجود للهمذاني اليماني. وخزانة عاشر أفندي، بقرب يني جامع، وفيها وجدت ـ كما يذكر أمير البيان ـ منذ أربعين سنة رسالة «الدرة اليتيمة» لعبد الله بن المقفع، ورسائل أبي إسحاق الصابئ رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسي. .

أما مكتبة السراي فمنها قسم في الخزانة الخاصة بها، ومنها قسم في بغداد كوشك، ويقال: إنّ فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة، وقد أتيح لي ـ كما يقول ـ أن أدخل إلى هذه المكتبة، وإلى خزانة التحف السلطانية، وأن أرى كثيراً من الكتب النفيسة في أجلادها المذهبة وخطوطها التي تحيِّر العقول ولا عجب فعن الملوك لا تَسَلْ، وأيّ الملوك: سلاطين آل عثمان، الذين ملكوا نحواً من سبعمائة سنة مملكة من أكبر ممالك العالم. .».

الفن والمعمار في الدولة العثمانية

اهتم العثمانيون ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخلوا المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وكان السلطان محمد الفاتح وهو أكثر السلاطين اهتماماً بالجوانب الحضارية لدولة الخلافة يشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء، والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءاً ورونقاً. وكان يسعى لأن يجعل مدينة استانبول أجمل عواصم العالم وحاضرة العلوم والفنون كما كثر في عهده العمران وانتشر، واهتم بإنشاء «دور الشفاء ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب ـ ثم زيد إلى اثنين ـ من حذاق الأطباء من أي جنس كان يعاونهما. . ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة الإنسانية. . ».

ومن أهم المساجد والآثار الدينية التي ترتبط بالحضارة العثمانية كما يذكر الأمير شكيب آرسلان في خطط الأستانة «جامع الفاتح الذي تم بناءه هو رحمه الله سنة (٨٧٥) للهجرة وبني بجانبه ثماني مدارس، وعند القبة التي دفن فيها الفاتح ومدافن أخرى لآله، يقال: إنَّ منها مدفن الأميرة الصربية ماري ابنة جورج برانكوفيه، التي كان قد تزوج بها مراد الثاني، وماتت وهي باقية على دينها».

ثم جامع بايزيد بقرب باب السر عسكرية، وفيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وبعض عائلته.

ثم جامع السليمية، بناه السلطان سليم الأول، مشرف على محلة الفنار وفيه

تربة السلطان المذكور وتربة السلطان عبد المجيد، والد السلاطين مراد، وعبد الحميد ومحمد السادس ومحمد الخامس.

ثم جامع الشاه زاده: بناء السلطان سليمان سنة (٩٥٥) للهجرة، وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان، مدفن أخيه جهانكير.

ثم جامع السليمانية، وهو من أجلِّ وأشهقِ وأفخم جوامع الدنيا، بناه السلطان سليمان القانوني، وكان المهندسِ له المعمار سنان، وانتخَبَ له أعلى قمة من الجبال التي عليها الأستانة، وبنى حوله أربع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانوني، وسليمان الثاني، وأحمد الثاني، وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية في بنائه ما لا يوجد في أيا صوفيا.

ثم جامع السلطان أحمد: بناه أحمد الأول، هو قريب من أيا صوفيا، وله ست منائر ثم بني جامع بقرب الجسر الواصل بين إستانبول وغلطة، وقد بدأت به السلطانة كوسم، وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع، ومصطفى الثاني، وأحمد الثالث، وعثمان الثالث، ولا تزدحم الجماعات في مسجد ما تزدحمه في هذا الجامع نظراً لقربه من الجسر ومركز حركة الخلق.

ثم جامع النور العثماني: بدأ بناءه محمود الأول، وأكمله عثمان الثالث.

ثم جامع لاله لي: وفيه مدفن سليم الثالث.

ثم زيرك جامع، وأصله كنيسة، حوَّله الفاتح إلى جامع.

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثماني بناه أحد الصدور العظام سنة (٨٦٨) للهجرة.

ثم جامع مراد باشا، بناه أحد وزراء الفاتح سنة (٨٧٠).

ثم جامع وفا بناه بايزيد الثاني سنة (٨٨١) للشيخ مصطفى وفا.

ثم جامع داود باشا على بحر مرمرة تاريخ بنائه سنة (٨٩٠).

ثم جامع خوجة مصطفى باشا في سماطية، أصله كنيسة بيزنطية تحولت جامعاً سنة (٨٩٥).

ثم جامع عتيق علي باشا في شمبرلي طاش بُني سنة (٩٠٢)

ثم جامع مهرماه: ابن السلطان سليمان في أعلى نقطة من المدينة بقرب باب أدرنة بني سنة (٩٦٥) وهندسه المعمار سنان.

ثم جامع رستم باشا عند الخليج، بناه رستم باشا الصدر الأعظم في زمن سليمان الأول، وهذا الجامع هو من بناه سنان أيضاً، وفيه من صنعة الخزف القاشاني نفائس لا توجد في غيره.

ثم جامع الصدر الأعظم الصوقلي كمل بناؤه سنة (٩٦٩).

ثم جامع فتحية أصله كنيسة، تحول جامعاً في زمن مراد الثالث سنة (١٥٨٧م).

ثم جامع جراح باشا، كان بناؤه سنة (١٠٠٢) للهجرة.

وفي استانبول القديمة نحو خمسمائة جامع، وبديهي أنه غير داخل في هذا العدد الجوامع التي في غلطة، وبك أوغلي، ويكشطاش، ونشان طاش، والقرى التي على البورسفور من الجانبين، فهناك جوامع أيضاً تحصى بالمئات. ومنها جوامع في الغاية من الإتقان والبداعة وكلها لها المنائر الرفيعة المستديرة الضاربة في الهواء البالغة الحد في البهاء، والتي هي زينة هذه العاصمة.

ومن أشهر هذه الجوامع النصرانية في الطونجانة، وجامع جهانكير في الفندقلي، وجامع يشكطاش، وغيرها.

ثم ينتقل أمير البيان للحديث عن جامع أياصوفيا ويصفه بأنه «الدرة الدهماء، واليتيمة الطائر ذكرها في الفيراء، فنقول: إنّ هذا الجامع لا يزال أعظم جامع في القسطنطينية. كما أنه كان أعظم وأجمل كنيسة في الشرق، ومن أعظم وأجمل كنائس العالم. والأصل في هندسة بنيته المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التي كانت معروفة قديماً في العراق أي أنها هندسة آسيوية أوروبية، كان أتى بها البناؤون من العراق إلى بلاد الروم، وغلبت على كنائسهم، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليوناني القديم».

أما حلية أياصوفيا الداخلية، فهي من الصناعة السورية، فهي إذاً من جميع الوجوه تضرب في بنائها إلى عرق آسيوي، ولقد صار طرازها هو المُعَوَّلُ عليه

في بناء الكنائس الأرثوذكسية كلِّها ولا سيما في روسية، ولم يحدث في الهندسة طراز يفوقه. . .

وتم بناء أيا صوفيا سنة (٥٣٧) واحتفل يوستنيانوس بافتتاحها في يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها، وهتف يومئذٍ: سليمان قد غلبتك (إشارة إلى تفوقها على هيكل سليمان). .

ثم ذكر أن أول مسلم كتب عن أياصوفيا هو أحمد بن رستة من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك في كتابه «الأعلاق النفيسة»، وكان يسمي أياصوفيا بالكنسية العظمى. . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفي الإسلام كتابة عن أياصوفيا حتى القرن السابع للهجرة، فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقي كلام وجيزٌ عن أياصوفيا.

ثم جاء ذكر أياصوفيا في «رحلة ابن بطوطة»، الذي زار الأستانة، لكن ابن بطوطة يقول: إنه لم يدخل إلى داخل الكنيسة، لأنه كان من العادات المرعية عندهم أنَّ كلَّ داخل إليها لا بدّ له من أن يسجد للصليب، وهو أبى أن يفعل ذلك.

ولما دخل الأتراك القسطنطينية في ٢٩مارس ـ آذار (١٤٥٤) ـ (٨٥٤) التجأ جميع الأهالي الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد إلى أياصوفيا، وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك إلى عمود قسطنطين الكبير، يظهر ملك في السماء، فينهزمون نكوصاً على الأعقاب، ويعودون من حيث أتوا ولكن الترك دخلوا الكنيسة، وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى، وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم وأنهم ذبحوهم، فالترك لم يذبحوا هناك أحداً، وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى.

ولما جاء محمد الفاتح ترجّل عن جواده، ودخل أياصوفيا، وارتفع صوت الأذان في داخل الكنيسة، وسجد السلطان ومن معه للإله الواحد، وتحول هيكل قنسطنطيوس ويوستنيانوس مسجداً للإسلام».

ثم يتابع الأمير شكيب أرسلان ويتناول الحديث عن التغيرات التي أدخلها العثمانيون على أياصوفيا: «أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أياصوفيا فهو

أنهم غطوا الصور التي كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المبثوثة على الجدر والأقبية وذلك بالجبصْ الذي يمنع ظهورها للعيان، لما في دين الإسلام من تحريم الصور في أماكن العبادة، وكذلك رفعوا الحاجز الذي كان يبين القسيسين والأهالي. ولما كانت الكنائس البيزنطية موجهةً في بنائها إلى القدس، وكان المسلمون في صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة، كان لا بدّ للمسلمين في أياصوفيا أن ينحرفوا قليلاً عن الجهة الشرقية إلى الجهة الجنوبية.

ولقد دعمّ المسلمون أياصوفيا بجدران جديدة، فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبي الشرقي من المسجد، وبنى أيضاً إحدى المنائر الأربع الموجودة الآن، والتي هي من أجمل ما يرى في سماء الأستانة، ثم بنى سليم الثاني المنارة الثانية، وبنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتامّت أربع منائر.

وكان لمراد الثالث في أياصوفيا آثار كثيرة فهو الذي جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما (١١٥٠) ليتراً من الماء لأجل الوضوء، وجعل في الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق إحداهما القرآن طول النهار ويؤذّن بالصلاة فوق الأخرى، ووضع مراد الثالث محل الصليب الذي بأعلى القبة هلالاً، وأنفق على تمويهه بالذهب أموالاً طائلة، وقطر هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بنيت إلى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثاني، وبجانبها مدفن ابنه مراد الثالث، وحفيده محمد الثالث، وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان إبراهيم.

وممن اعتنى أشد الاعتناء بأياصوفيا السلطان مراد الرابع، فشاد عضائد كثيرة للجدران، وفي أيامه كتبت على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التي يوجد أكبر منها، وكلها مموهة بالذهب، وهي من خط ذلك الخطاط الشهير بيشكجي زاده مصطفى شلبي، فمن هذه الأحرف الألف مثلاً طوله عشرة أذرع، وهذا عدا بداعة الخط، واشتباك حروفه وتعليق بعضها على بعض، مما يدهش الأبصار، ويتنافس به أدباء الترك، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة أما المنبر الذي في أياصوفيا فهو إحدى يتائم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد الرابع وقد شيد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشتبكة من

جهة المسجد. ثم إنّ السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلاً للماء ومدرسةً، وذلك إلى الجنوب منه، وجعل أيضاً خزانة للكتب في نفس الجامع.

ومن بعد مراد الرابع ـ فاتح بغداد ـ تأخرت أحوال أياصوفيا بالتأخر العام الذي أصاب المملكة، وبقيت الحال على ما هي عليه إلى أيام السلطان عبد المجيد الذي عهد سنة (١٨٤٧) إلى الأخوان فوساطي من البنائين الطليان بترميم ما يجب ترميمه من المسجد فلبثوا مدة سنتين يشتغلون، ولم يبقوا على الحيطان إلا الجص الذي يحجب الصور البشرية، وجلّوا الحيطان المموهة بالذهب والنقوش الساطعة، وكذلك في زمن عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجملة كان ترميم السلطان المشار إليه لجامع أياصوفيا من أجلّ مآثره.

ولقد توالت الزلازل على الأستانة المعروفة بكثرة زلازلها، ولم يصب أياصوفيا من هذه الاهتزازات الأرضية منذ القرن الخامس للمسيح إلى الآن أذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التي أقامها البيزنطيون سابقاً والأتراك لاحقاً، وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف.

. . . .وقد كتبت على مسجد أياصوفيا تآليف خاصة به، منها كتاب ظهر في زمن الفاتح تأليف أحمد الجيلاني، مأخوذ منه قسم عن اليونان، وقد حرره المؤلف بالفارسي ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله إلى التركي، وهذا التأليف تجده في خزانة أياصوفيا تحت رقم (٣٠٢٥).

وروى كاتب شلبي صاحب «كشف الظنون» أن الفلكي علي بن محمد القوشجي ألف أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسي على أياصوفيا، لكننا لم نتحققه.

. . . .وفي الأستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير، بناه أيضاً الإمبراطور يوستنيانوس باسم القديس سرجيوس وباخوس، وقد تحوَّل في زمان محمد الفاتح أيضاً إلى مسجدٍ. .

. . .وفي القسطنطينية جوامع أخرى كانت كنائس منها «كليسة جامع» و«كَل جامع» أي جامع الورد وغيرهما.

. . . أما في الجامع المسمى بسلطان أيوب في الخليج الذي هو أقدس مكانٍ عند الأتراك فهو الجامع المبني على ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد الأنصاري رضي الله عنه. ثم يتناول أمير البيان الحديث عن التكايا فيقول: «ومن الأمكنة الدينية المشهورة في الاستانة التكايا، وهي التي يقال لها الزوايا عند العرب، وهذه كان يبلغ عددها (٢٦٠) تكية في البلدة وقرى البوسفور، أشهرها تكية المولوية في يني كوي، وتكية السنبلي في جوارها، ثم تكية هذه الطريقة في بك أوغلي، وهي من أشهر تكايا تركية وأقدمها، بنيت سنة (٨٩٧) للهجرة، ثم احترقت منذ مئة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكلها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة (١٢١٠) وفيها قبر أحمد باشا المهتدي الإفرنسي، الذي كان اسمه الكونت دوبونفال. . .واشتهر بمحاربة الأتراك، وبعد مدة من الزمن وقع أسيراً في أيديهم في البوسنة، ثم أسلم وجعله الأتراك قائداً باسم أحمد باشا، ولما مات دفن في هذه التكية. .» ثم تناول الحديث عن القصور التي خلفتها الحضارة العثمانية وبدأ بسراى طوب قبو التي هي «عبارة عن بلدة كبيرة في طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها، وفيها أكشاك وقصور وصروح بغاية الأبهة،إذا طاف بها الإنسان طوال النهار لا يأتي على آخرها. وفيها مساكن حرم السلاطين، والغرف الخاصة بكل واحد منهم. .» وعلى جدرانها«آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجمل الخطوط المذهبة».

. . . وللسلاطين العثمانين، عدا سراي طوب قبو، سرايات كثيرة متناهية في الفخامة، منها سراي طولمة بغجة، التي كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد وفيها البهو الكبير العديم المنظِر، الذي تجري فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك ومنها سراي جراغان، وقد احترق جانب منها.

ومنها سراي يلدز، التي كان يسكنها السلطان عبد الحميد الثاني، وهي على رابية من أبدع روابي الأستانة، ولها حديقة واصلة إلى البحر، وكان يصيِّف فيها السلطان محمد رشاد أيضاً.

. . .ومن السرايا الفخمة في الأستانة سراي بكلر بك، وفي الشاطئ الأسيوي من البوسفور، وهي التي مات فيها السلطان عبد الحميد الثاني، ومنها كوشك

كوك صو، وغير ذلك من السرايا والقصور والصروح والمقاصف التي تدهش كل من رآها.

كما توجد بالأستانة «أسواق عظيمة شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها منها السوق الكبيرة التي بدأها محمد الفاتح، وسوق مصر التي بناها سليمان القانوني وغيرهما.

وكذلك فيها خانات شهيرة، مثل خان والدة سلطان، وبيوك بني جامع وفيه (٣٥٠) غرفة، وسنبلي خان، وخان محمود باشا، وغيرها، ويقدّر عدد ما فيها من الخانات بمئتين» أما الحمامات الموجودة بالأستانة فتقدر «بنحو من (١٥٠) حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالأستانة» أما المشافي فقد كانت تابعة للجوامع، ثم جعلتها الحكومة على الطريقة العصرية بعد تأثر الأتراك بالحضارة الأوروبية.

المعمار سنان علامة فارقة في سماء الحضارة العثمانية:

يعتبر المهندس سنان واحداً من أعظم المعماريين الذين ظهروا في التاريخ، فأعماله تجعله في مصاف المعماريين الكبار في العالم. هذا الرجل الذي تربي في أحضان الثقافة الإسلامية. هو من أبدع الجوامع والقصور في تاريخ الدولة العثمانية.

ولد المعمار سنان في قرية آغيرناص التابعة لولاية قيصرية في الأناضول وكان مولده في عام ١٤٩٠ في عهد السلطان بايزيد الثاني ابن الفاتح ووالد سليم الأول. في هذه القرية نشأ سنان فتى ولوعاً بشق قنوات المياه في الحدائق شغوفاً ببناء الأكواخ وحظائر الحيوانات.

«أسلم سنان وكان عمره ثلاثاً وعشرين عاماً والتحق بمدرسة عسكرية ابتدائية تسمّى بمدرسة عجمي أوغلانلر، وفيها تعلّم القراءة والكتابة والفنون التطبيقية ثم اختار قسم النجارة، وتحت إشراف هؤلاء أيضاً عمل سنان عاملاً معمارياً في بناء الجوامع والحمامات وسبل المياه والخانات».

اطلّع المعمار سنان على الجانب المعماري في تراث الأمم الأخرى غير العثمانية، خصوصاً آثار البيزنطيين في عاصمة الخلافة، وأثار السلاجقة في الأناضول أثناء وجوده فيها.

«ولكن الذي أثرى وأنمى تجربة سنان الفنية هو اشتراكه في الحروب العثمانية في الشرق وفي الغرب، فقد كان سنان ضمن الجيش العثماني في موقعة جالديران عام ١٥١٤م التي جرت بين العثمانيين وبين الصفويين، والتي انتهت بدخول العثمانيين تبريز عاصمة الصفويين شَدَّتْ تبريز بمبانيها المعمارية الصفوية انتباه سنان لخصائص الفن الإيراني. كما رافق الجيش العثماني في دخوله حلب ودمشق حيث جذبت الطرز المعمارية العربية اهتمام المعمار سنان. أما القاهرة فقد وقف سنان متأملاً مستغرقاً فاحصاً الطرز المعمارية التركمانية والمملوكية. كما تجوّل سنان أياماً كثيرة بين أهرامات الفراعنة».

«شاهد سنان الانتصارات العثمانية المتتالية على ملوك أوروبا. وأمرائها، مما كان له أثره واشعاعه على روح سنان الفنان، ومع توالي هذه الانتصارات كان المعمار سنان يواصل مشاهداته الفنية، فلقد اشترك في فتح رودس، فشاهد روائع المعمار اليوناني، واشترك في فتح العثمانيين لبودابست، فشاهد فنون المجر المعمارية، وفي بودابست بالذات كان سنان يتجول في الكنائس التي حَوَّلها العثمانيون إلى جوامع، تجوّل الفنان المدقق، وصحب في جولاته هذه، قمة زمانه في الفتوى الشيخ أبو السعود أفندي. ثم اشترك سنان في حملة السلطان سليمان القانوني على العراق (١٥٣٤)، فأثرى سنان تجربته الفنية بإطلاعة على الإبداع المعماري في بغداد، كما رافق سنان خير الدين برباروس باشا في حملاته البحرية عندما كان يجوب السواحل الإيطالية، حينما كان خير الدين برباروس يبحث عن أندريه دوريا القائد البحري الأوربي الشهير لكي يؤدبه.

كانت البداية الأولى لظهور سنان عام ١٥٣٤م عندما اشترك في الحملة العثمانية على إيران ضمن قوات لطفي باشا الصدر الأعظم يريد اجتياز بحيرة وان، فصدر الأمر إلى سنان بالإشراف على بناء سفن للنقل العسكري فأنجز سنان هذا العمل بنجاح».

ولما توفي كبير المعماريين في الدولة «عجم علي» اقترح الصدر الأعظم لطفي باشا إسناد هذه الوظيفة لسنان، ليصبح كبير معماري الخاصة السلطانية، وأصبح من يومها هو «المسؤول عن إقامة الأعمال المعمارية من قصور ومدارس ومطاعم خيرية

وسبل مياه وأضرحة وحمامات وغيرها. كما كان مسؤولاً عن الأعمال المعمارية بالعاصمة إستانبول، وعن إصلاح وتعمير وترميم وشق شوارع وبناء أرصفة وقنوات للمياه. كما كان مكلفاً بمراقبة كل أعمال البناء في كل أرجاء الدولة العثمانية وكذلك مراقبة المواد المستخدمة في البناء، كما أسندت إليه صلاحية هدم الأبنية المخالفة للنظام، والإشراف على أبنية القلاع».

وفي الكتاب الذي أملاه سنان على صديقه النقاش ساعي مصطفى جلبي - بيان لأعمال سنان، وتبلغ (٤٤١) عملاً في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، منها جامع صقوللو محمد باشا، وجامع رستم باشا، وجامع شهزاده، وجامع السليمانية باستانبول وكذلك جامع محمد باشا البوسفوري في صوفيا، وجامع تاتارخان في كوزوا - القرم كما بني المعمار سنان بعض المنشآت والجوامع في البلاد العربية منها. جامع خسروياشا (الخسروية) في حلب. وجامع السلطان سليمان، ومطعم السلطان سليمان الخيري في دمشق، وفي مكة المكرمة قام بترميم قباب الحرم المكي وبنى مطعماً خيرياً باسم خاصكي سلطان ومدرسة السلطان سليمان وحماماً باسم السلطان سليمان أيضاً، وفي المدينة المنورة بني مطعماً خيرياً باسم خاصكي سلطان.

أما أعظم ما بني المعمار سنان جامع شهزاده وكليته بين عامي ١٥٤٤ و١٥٤٨م وعندما انتهى من بنائه كان قد بلغ من العمر (٥٨) عاماً. وهذا الجامع يقع في حي شهزاده باشي في استانبول بناه سنان بأمر من السلطان سليمان القانوني.

«أما جامع السليمانية فهو من أشهر الأعمال المعمارية في عهد السلطان سليمان القانوني، بل وفي التاريخ العثماني كلّه، ويمثل اكثر مراحل المعمار العثماني تطوراً بناه سنان في إستانبول عام ١٥٥٧م، بأمر من السلطان. واختار لبنائه ربوة تتحكم في كل من الخليج الذهبي والبسفور، والجامع - بكليته من مدارس ومستشفى وغيرها - يعد ثاني كلية تبنى في استانبول بعد الكلية التي ابتناها السلطان محمد الفاتح لجامعه».

«ركّز سنان في جامع السليمانية على كل أساليب عصره ليبرز تأثير المكان الداخلي قوياً بأكثر مما فعل من قبل في جامع شهزاده، كما وَضَح اهتمام سنان في

السليمانية بإظهار عوامل التأثير الصوفي، كما وجه سنان أهمية كبيرة في هذا الجامع ـ الذي هو يعتبره رمزاً لفنيته النضجة ـ إلى نظام التهوية بحيث جعل عملية التهوية فيه تتسم بسرعة وسهولة».

«والكلية السليمانية تحتوي على جامع السليمانية ـ دار الطب (وهي مدرسة عليا لتدريس الطب) ـ المدرسة الأولى ـ المدرسة الثانية ـ كتّاب الصبيان ـ المدرسة الثالثة ـ المدرسة الرابعة ـ مدرسة الملازمين ـ دار الحديث ـ حمام السليمانية ـ دار الشفا (مستشفى) ـ دار الضيافة ـ دار الطبخ ـ دار القراء (لتدريس القرآن الكريم بقراءاته ورواياته). . . .».

أما جامع السليمية الذي بناه في أورنة فهو أعظم ما بنى سنان: فقد بناه بأمر من سليم الثاني. وقد اختار أعلى ربوة في أورنة ليقيم عليها الجامع بحيث يمكن مشاهدته من كل أنحاء المدينة. بدأ سنان في بناء الجامع عام ١٥٦٨ وكان عمره (٨٤) عاماً وانتهى من بنائه عام (١٥٧٤)م.

وعن هذا الجامع يقول المعمار سنان: «إن المعماريين الآخرين يقولون: إننا متفوقون على المسلمين لأن عالم الإسلام يخلو من قبة عظيمة مثل قبة أياصوفيا، وأن بناء مثل هذه القبة الضخمة في بلاد الإسلام أمر غاية في الصعوبة، وكان لكلامهم هذا تأثيره المؤلم في قلب هذا العبد العاجز. لذلك بذلت الهمة العالية في بناء هذا الجامع وبعون الله تم بتشجيع السلطان سليم خان قمت بإظهار المقدرة، وأقمت قبة هذا الجامع أعلى من قبة أياصوفيا بستة أذرع وأعمق بأربعة أذرع».

وتعتبر مئذنة جامع السليمة أعلى مئذنة في العالم بعد مئذنة جامع قطب منار في دلهي وهو الجامع الذي بناه أتراك الهند في القرن الثالث عشر.

الحياة الاقتصادية والصناعية في الدولة العثمانية

اهتم خلفاء الدولة العثمانية بالجوانب الاقتصادية والصناعية. وعملوا على إنعاشها بجميع الوسائل واتخذوا إلى ذلك جميع العوامل والأسباب لتطوير هذين الميدانين الهامين في بناء الدول والحضارات. وكانوا في كل المراحل التاريخية على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وأن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً عندما خلصها الفتح العثماني مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية، وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة وانشأوا الكباري الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة واضطرت الدولة الأجنبية من فتح موانيها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة في ظل الراية العثمانية، وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عمَّ الرخاء وساد الأمن والرفاهية في جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة سمعتها الذهبية المتميزة، ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد، كما أن أغلب الولايات التابعة للدولة العثمانية كانت تتمتع بإمكانيات اقتصادية ضخمة. فأراضيها الخصبة تدر أنواعاً مختلفة من الحبوب والخضر والفواكه. كما يوجد ببعض الولايات مناجم الحديد والرصاص والملح (الجزائر مثلاً). وتوجد غابات كثيرة كانت تفيض عن الحاجة، لبناء السفن والتسخين وبناء المنازل، وبالإضافة إلى الموانىء الكثيرة الواسعة التي كانت تستقبل وترسل السلع والبضائع من وإلى أوربا والشرق وكانت التجارة الخارجية مزدهرة، وكان التعامل مع أوروبا يتضمن تصدير الكثير من المنتجات الزراعية التي غالباً

ما كانت تتولاها بعض الدول التي تتمتع بامتيازات معينة، وكان التصدير غالباً من الأخشاب والحوامض والريش والعسل والحديد والصوف، والجلود، الشمع، كما كان يتم استيراد الأقمشة والجواهر والسكر والأسلحة.

أما بالنسبة للتجارة فنلاحظ أن معظم التجارة كانت في أيدي أجنبية، فقد كانت بعض الشركات الفرنسية تتمتع بامتيازات كبيرة من تصدير الحبوب والصوف والجلود، وكانت مرسيليا تستقبل بعض المنتوجات التي تتم في بعض الولايات العثمانية، كما كانت بعض هذه الشركات تتمتع بالصيد في سواحل الدولة. وتمنح الرخص إلى الصيادين الطليان والأسبان. أما التجارة الداخلية فقد كانت في يد اليهود للأسف.




الخاتمة

بعد نصر عين جالوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وخلال تصفية الوجود الصليبي والتتري في البلاد العربية ظهرت للوجود، وفي عالم الإسلام الدولة العثمانية، التي أعادت إلى الأمة الثقة في نفسها كأمة فاعلة في التاريخ باعتبارها حاملة لأعظم رسالة ختمت بها الأديان ظهرت الدولة العثمانية وقد امتدت رقعة حكمها من فينا عاصمة النمسا إلى أوروبا الشرقية، ومن المشرق العربي إلى مغربه. وأمدت الأمة برجال عظام، أمثال محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية وبايزيد الذي غزا هنغاريا والنمسا حتى وصلت جيوشه إلى فينا، فدخلت تحت حكمه هنغاريا، ورومانيا، وبلغاريا، واليونان والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود، وجزيرة كريت، وألبانيا، وقد قدمت الدولة العثمانية في غمرة أحداث تاريخية رهيبة لم يشهد المسلمون لها مثيلاً، بعد أن زرع المغول والصليبيون الموت والدمار في ربوع العالم الإسلامي وقد واجهت الدولة العثمانية وصول البرتغاليين إلى شرق الجزيرة العربية، ومحاولتهم مرَّتين (١٥١٧ ـ ١٥٢٠م) دخول البحر الأحمر من منفذه الحيوي للاستيلاء على جدة والزحف إلى مكة لهدم الكعبة المشرفة. ويعتبر هذا الغزو أخطر غزو أوروبي صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربية إسلامية تحت شعار الصليب أو المدفع.

وتمكَّنت الدولة العثمانية في أقل من قرنين من الزمان أن تمدَّ جناحها شرقاً وغرباً، لتصل إلى أبواب فينّا، رافعة راية الإسلام على ما يعرف الآن بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا كذلك امتدّت إلى شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الأفريقية وحدود المغرب الأقصى غرباً، كما أنها وصلت شرقاً إلى بلاد فارس وجبال كردستان.

لقد كان ظهور الدولة العثمانية قد ملأ فراغاً في تاريخ أمتنا. إذ أنه تزامن مع ظهور وانتصار القوى الصليبية في غرب العالم الإسلامي حيث سقطت الأندلس، وكادت أن تتبعها بقية الدول في المغرب العربي. ولكنه في الوقت الذي سقطت فيه حواضر المسلمين في الأندلس، فُتِحت القسطنطينية، وفي الوقت الذي اندفع فيه صليبيوا إسبانيا نحو العالم الإسلامي من الغرب، اندفع فيه الفاتحون العثمانيون نحو أوروبا من الشرق وأصبحت الدولة العثمانية حامية حمى الإسلام، والمدافع عن شرفه ومقدّساته في البر والبحر ومن ذلك الوقت وليس لأوروبا النصرانية همٌّ أوهاجس إلا دولة الخلافة العثمانية.

وشاء الله تبارك وتعالى أن يستولي محمد الفاتح على القسطنطينية (١٤٥٣) قبل أن يستولي فردينان وإيزابيلا على مملكة غرناطة آخر مماليك المسلمين في الأندلس (١٤٩٢م) لقد كان فتح القسطنطينية من أعفّ الفتوح وأقلّها غُرماً وأبعدها من الفتك والفساد. شأن كل فتوح المسلمين، فقد كانوا في انتصاراتهم أشرف الناس وأميلهم إلى الرحمة.

فسقوط بغداد على أيدي التتار تمَّ وسط مذابح هائلة أما سقوط القسطنطينية فلم يتجاوز القتلى فيه حدود ميدان القتال وحده.

وكانت الحملات الصليبية تهدف نحو محو الدين وإبادة أتباعه جملة وتفصيلاً، بينما عامل محمد الفاتح أهل الذمة عند فتح القسطنطينية كما هي سنة الإسلام في معاملة أهل الذمة. فقد حافظ على شعائرهم وترك لهم الحرية الدينية. لقد نظر العثمانيون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون في كل شيء فطبعوا المدن المفتوحة في الأناضول والرومللي بالطابع الإسلامي حيث غدت المدن العثمانية الكبرى مثل قونية وبروسة واستانبول وأدِرنة مدناً إسلامية ومراكز للدراسات الإسلامية.

وتنافس الخلفاء العثمانيون على إقامة المساجد الرائعة والمدارس الدينية لتدريس العلوم الشرعية، كما أقاموا الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وبنوا العديد من التكايا والحمامات العامة، وأوقفوا الكثير من الأوقاف للإنفاق من ريعها على تلك المؤسسات الدينية الخيرية.

فهرس الموضوعات


بحمد الله تعالى